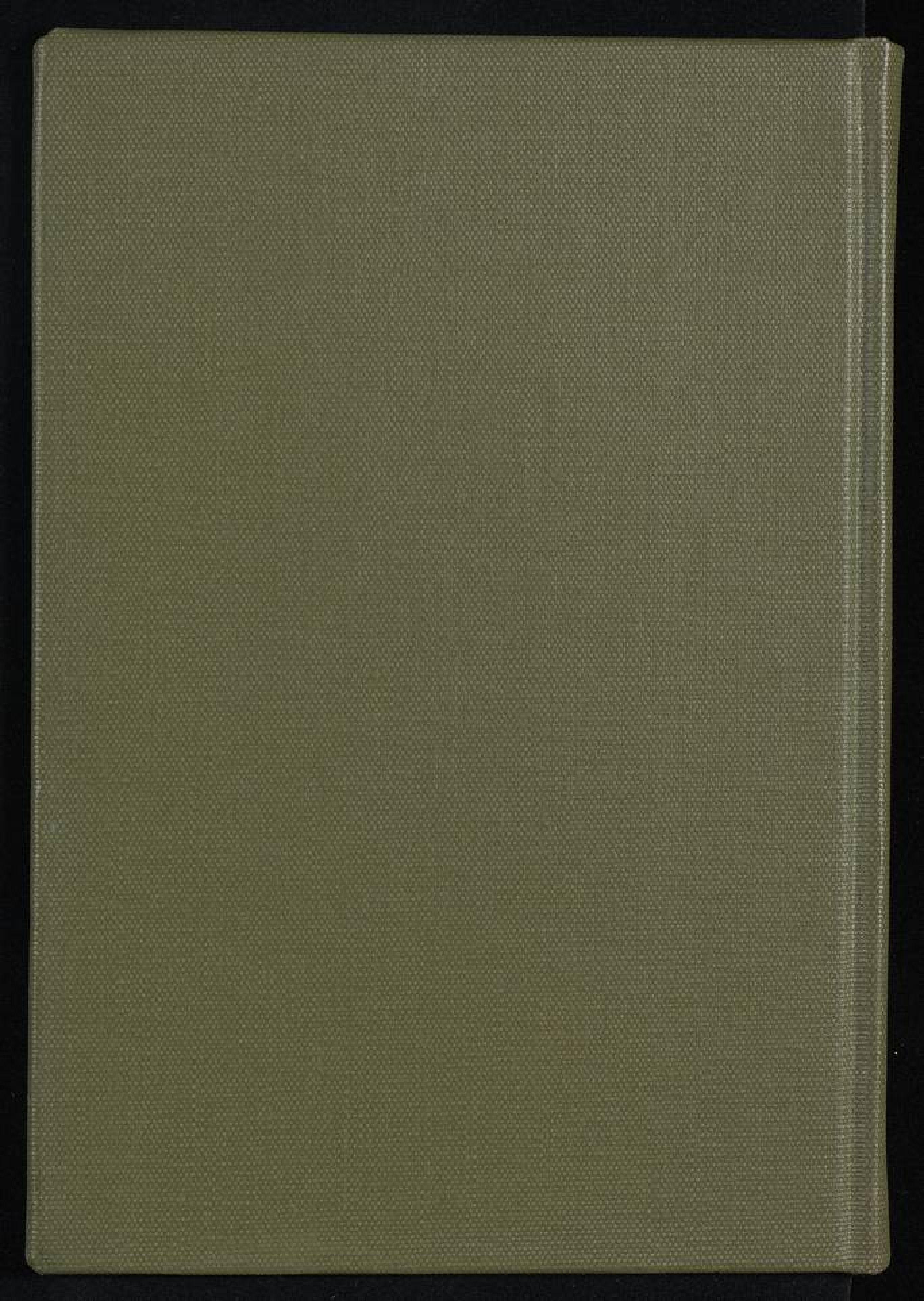
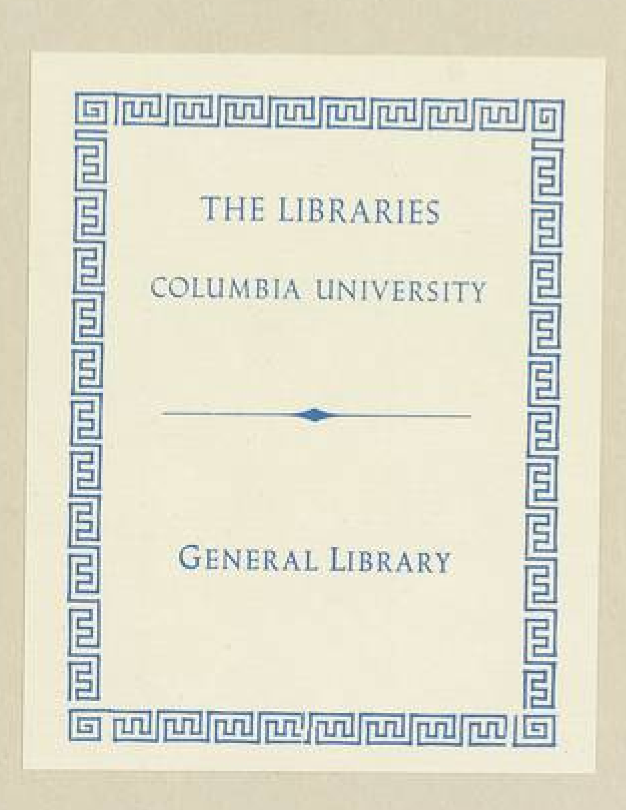
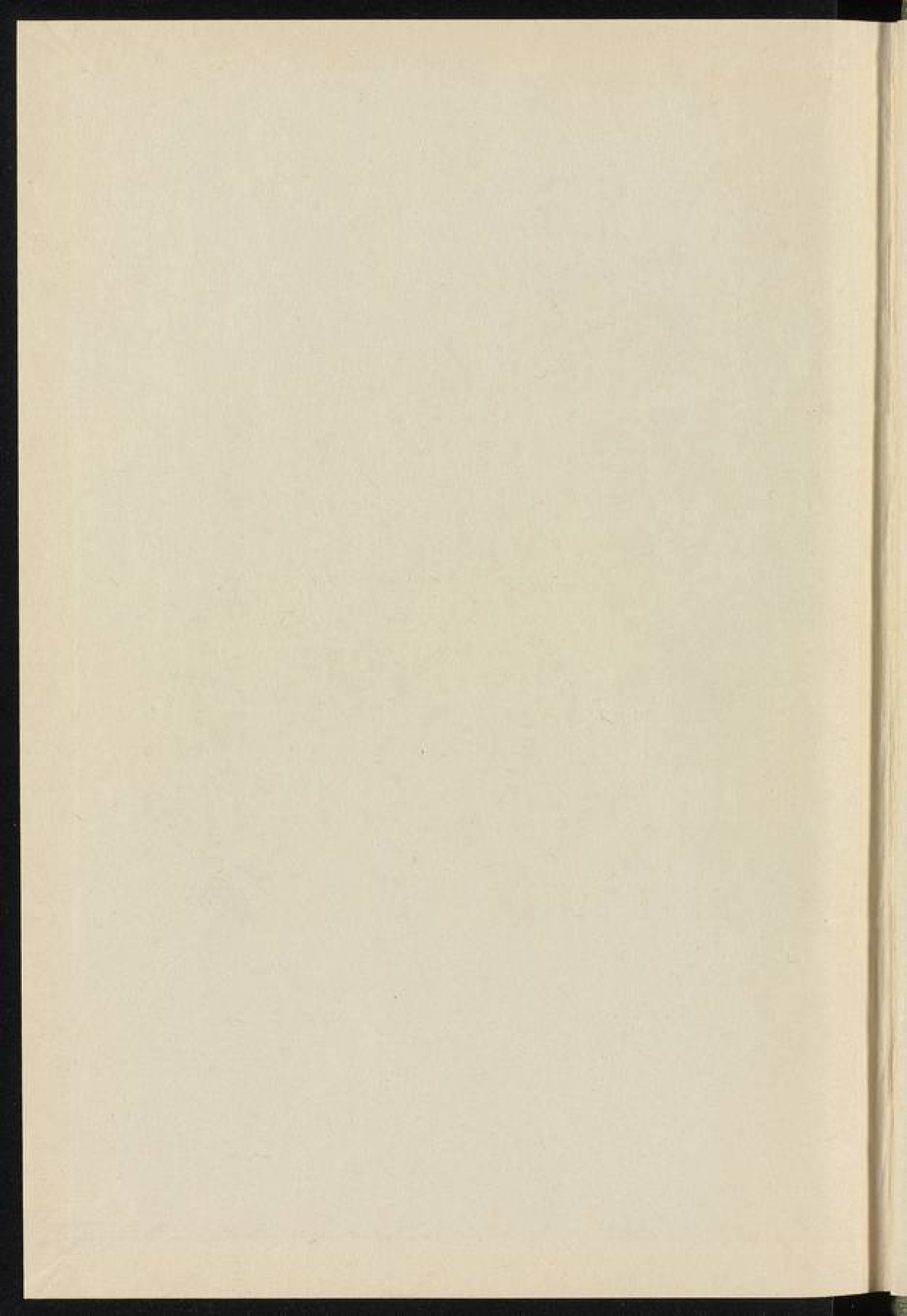
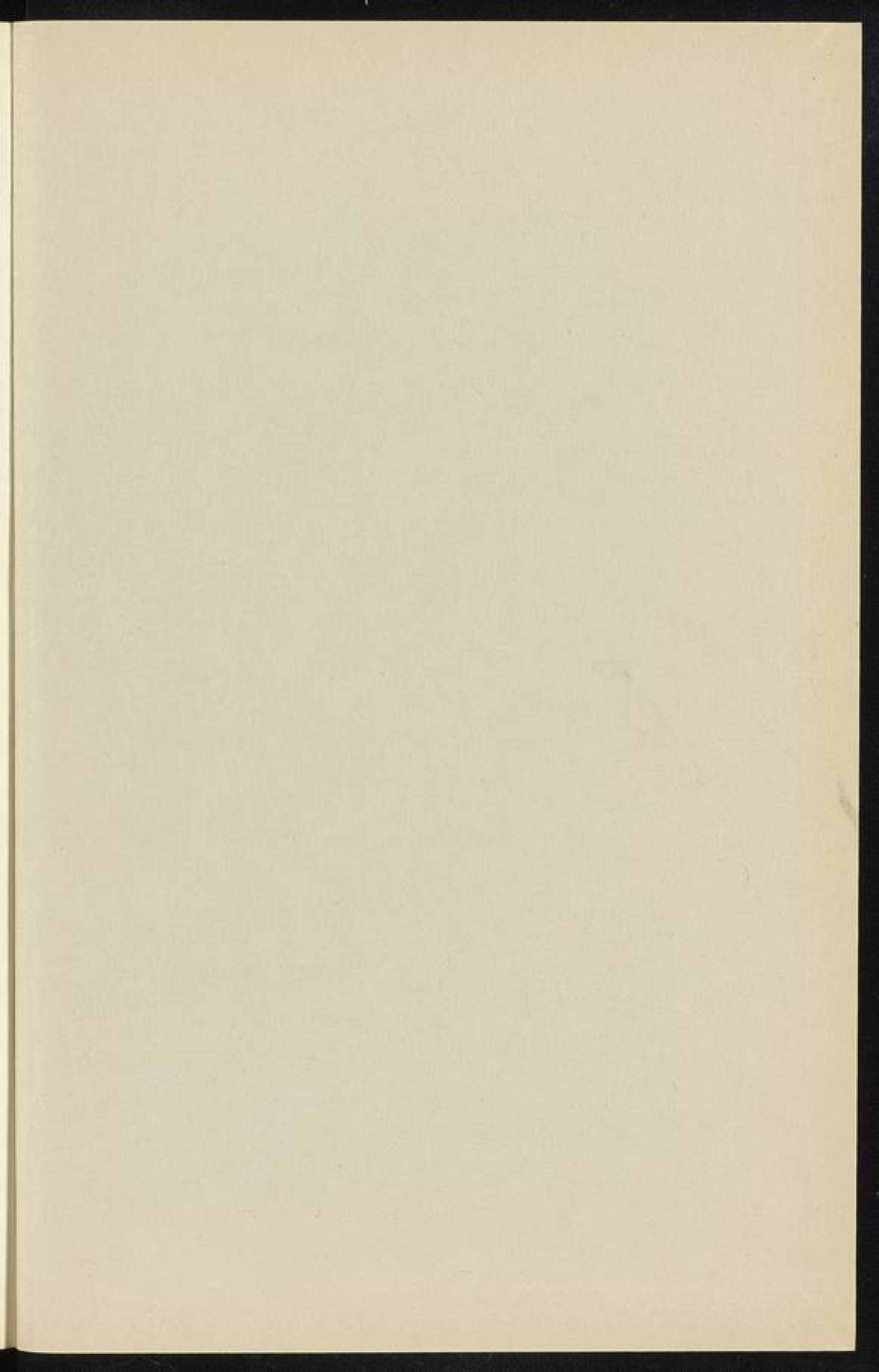
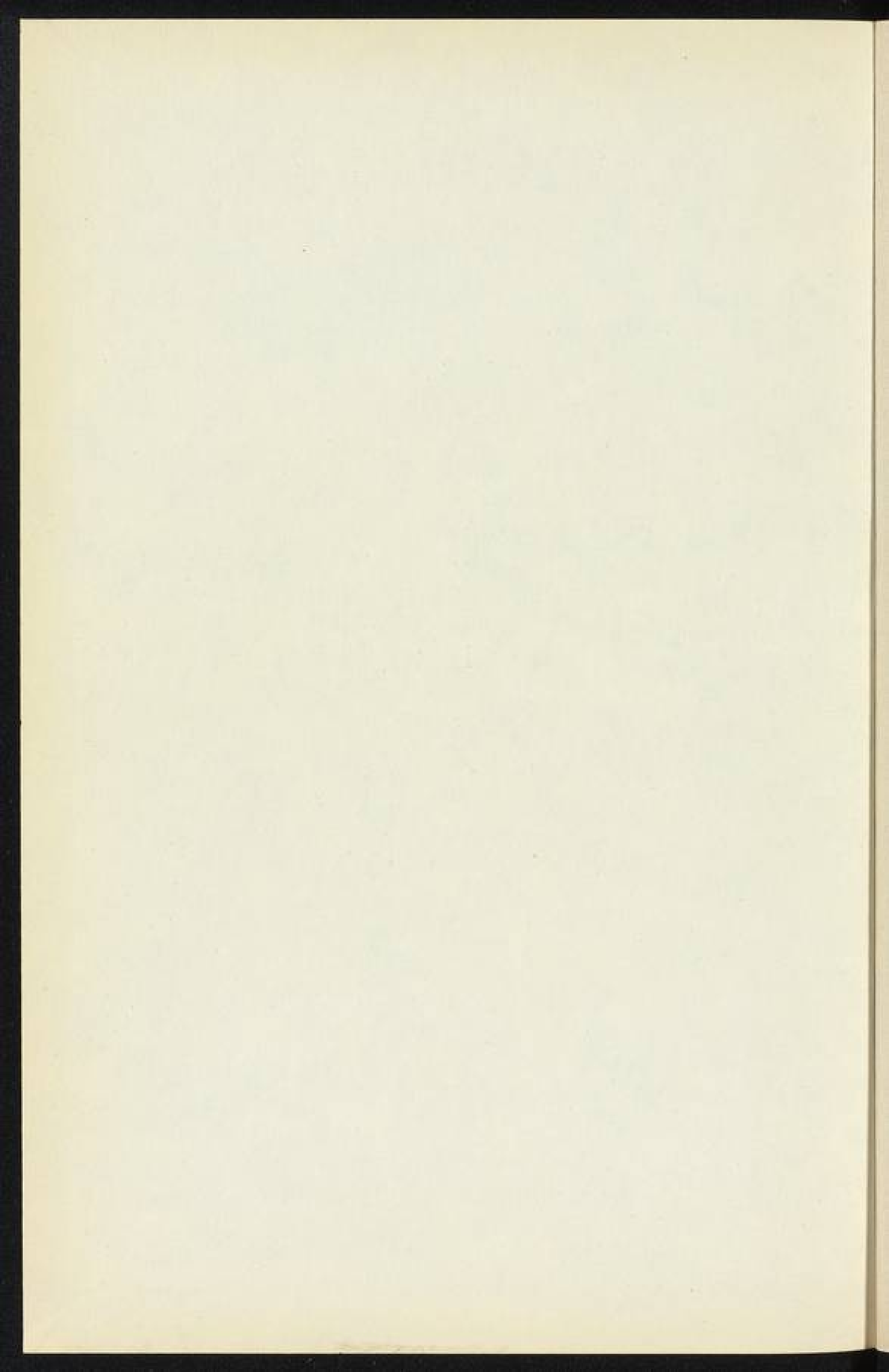
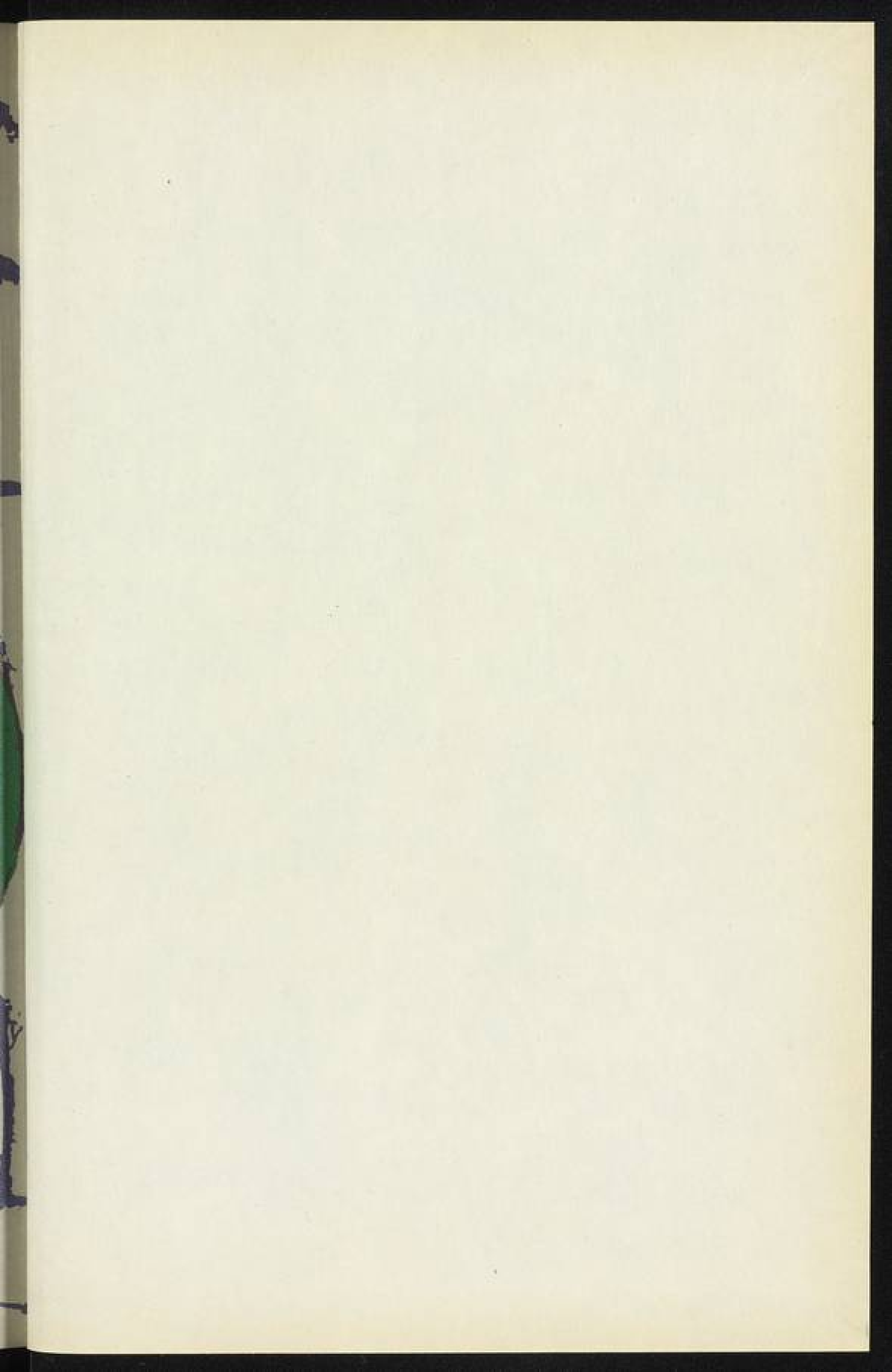


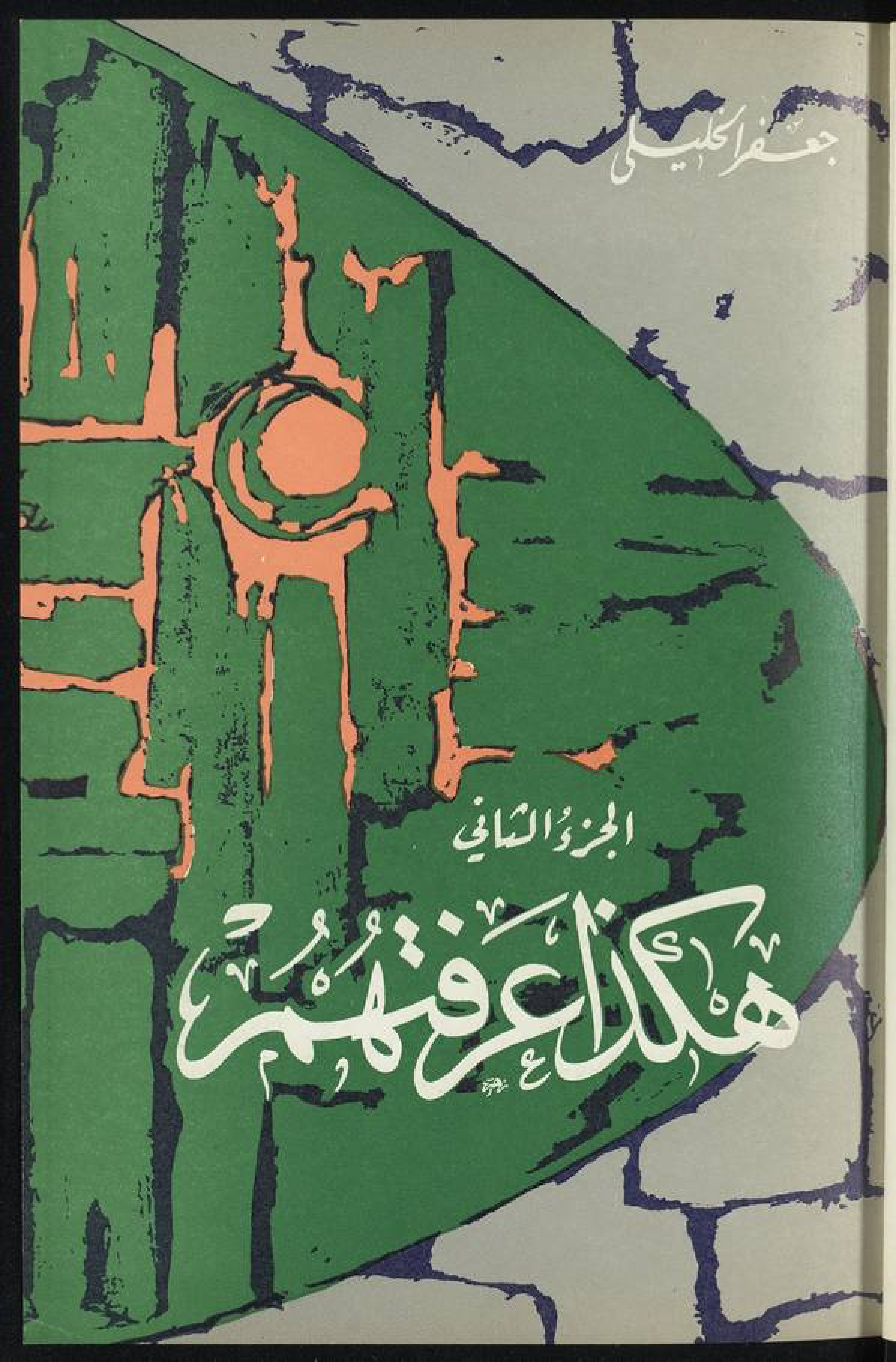

THE LIBRARIES
COLUMBIA UNIVERSITY
GENERAL LIBRARY

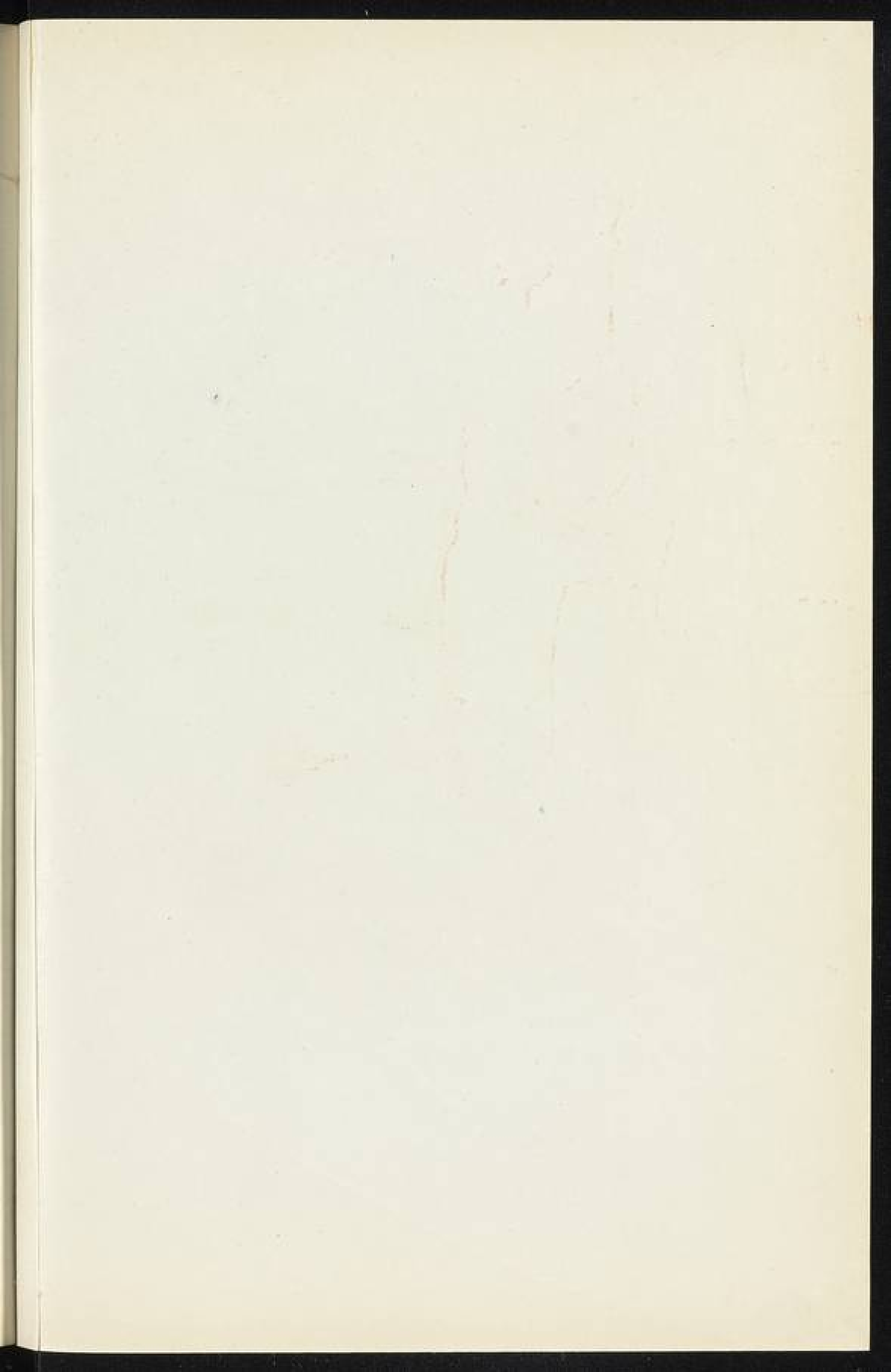








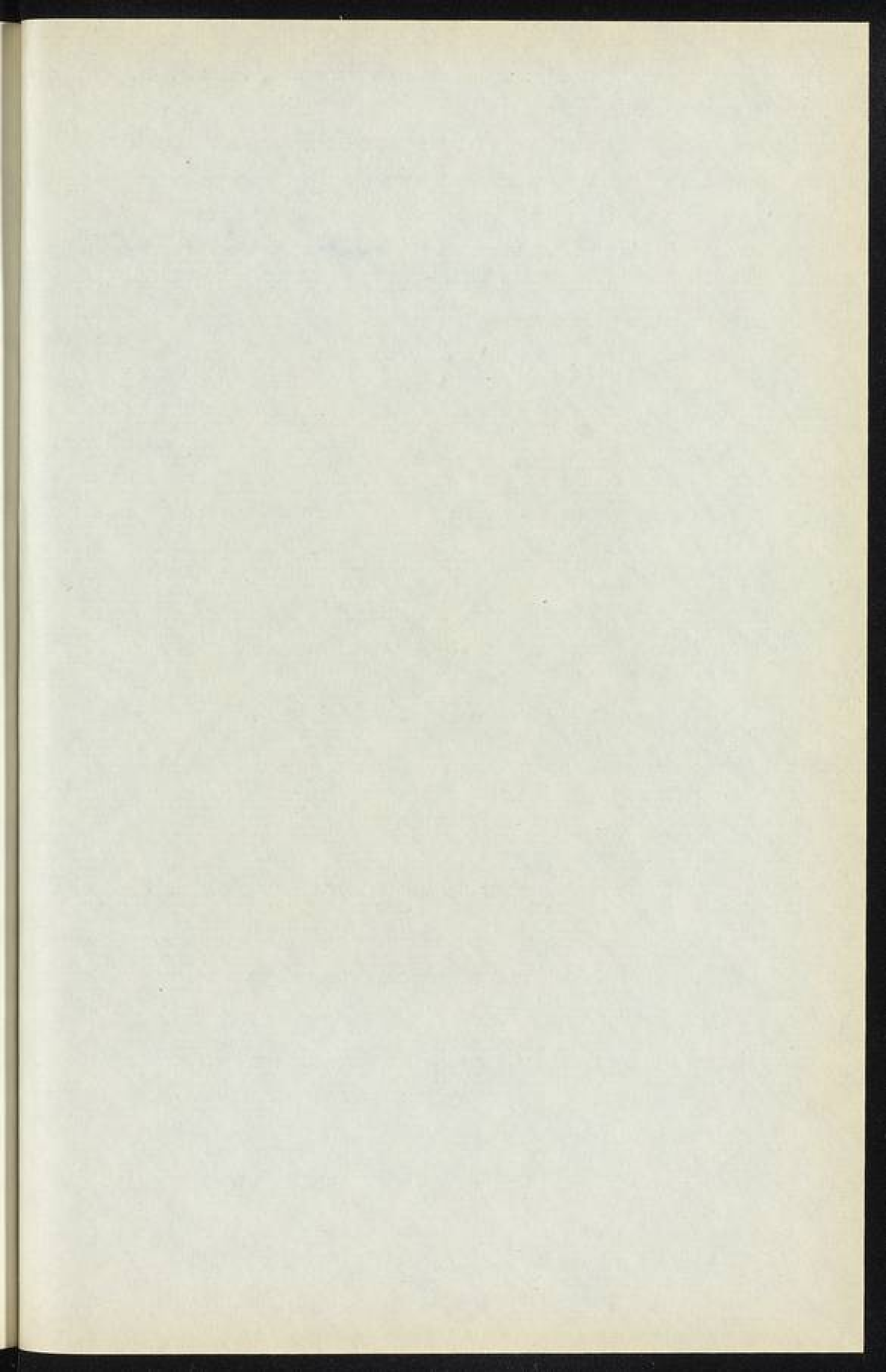

جعفر الخليلي
الجزء الثاني
هكذا عرفتهم



جعفر الخليلي

الجزء الثاني من كتاب
هكذا عرفتهم

دار التعارف — بغداد





خواطر عن اناس افذاذ عاشوا بعض
الاحيان لغيرهم اكثر مما عاشوا لانفسهم

الجزء الثاني

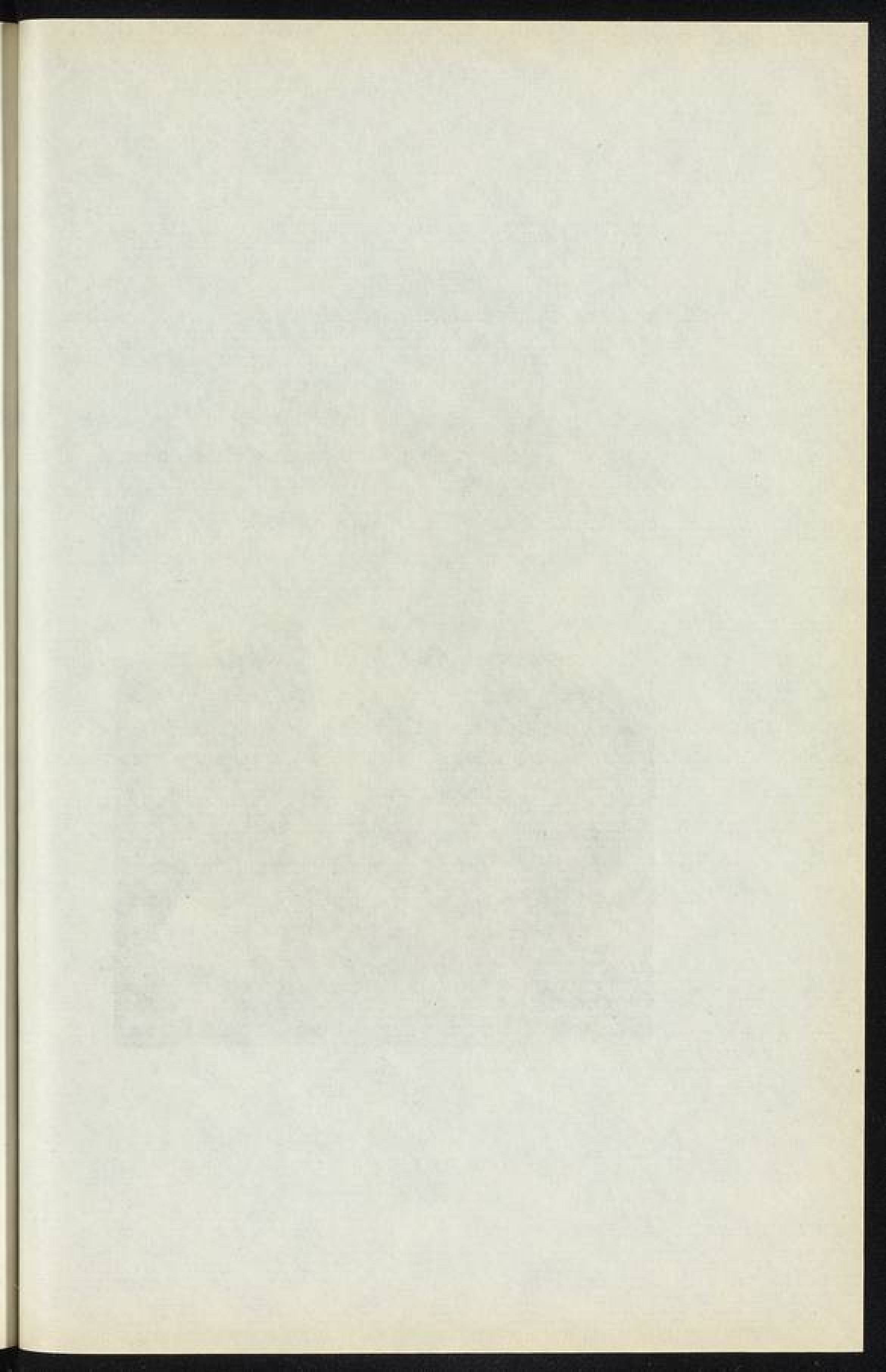
تأليف

جعفر الخليلي

دار التعارف - بغداد



المؤلف



هكذا عرفتهم

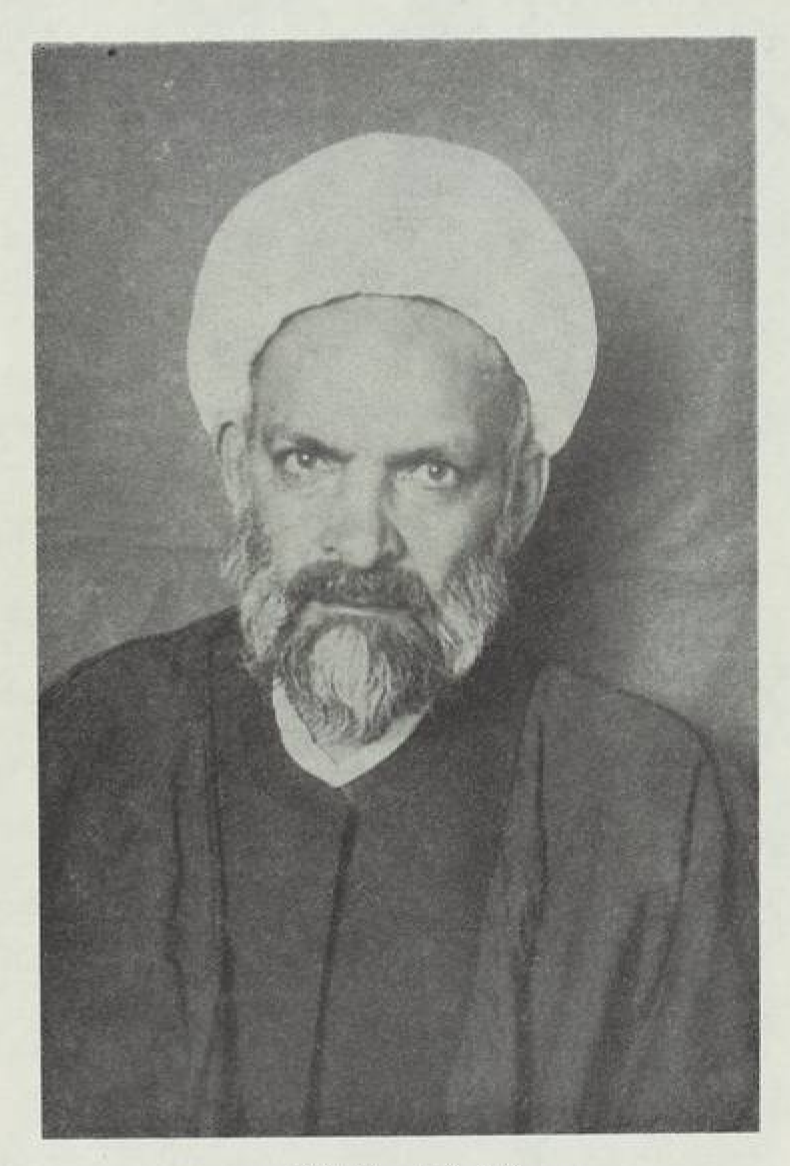
في الجزء الاول من هذا الكتاب تحدثت في مقدمته عن الأسباب التي حملتني على تسجيل بعض ما احتفظت به الذاكرة عن بعض من عرفت في طريق الحياة ، كما تحدثت باختصار عن الأسلوب الذي عرضت به تلك الذكريات عن اولئك الاشخاص ، وهو اسلوب ساتجنب الاشارة اليه هنا بعد ان تولى غيري التحدث عنه في الصحف وزاد فأعطاه اكثر مما يستحق من الثناء – اذا صح انه يستحق الثناء – وكل ما اريد ذكره هنا هو ان الجزء المذكور قد لقي من رعاية الناقدين وحملة الاقلام ما تجاوز الحد المأمول ، سواء في الأوساط العربية او الخارجية ، وقد اتخذ منه عدد غير قليل من الكتاب والمؤلفين مصدراً في تسجيل الحوادث التي تعنيهم منه واشاروا اليه في حواشي كتبهم ، وعلى ان لي اليوم ما يقرب من ثلاثين مؤلفاً في مختلف المواضيع فقد بدا لي ان هذا الكتاب قد حظى من حملة الاقلام والناقدين بمالم يحظ به كتاب من كتبي السابقة حتى (موسوعة العتبات المقدسة) التي أفضلها على كل ما كتبت والتي اريد ان انهي بها حياتي القلمية ، ولست ادري أكان ذلك من حسن حظي أنا ام من حسن حظ هذا الكتاب وسواء استحق هذا الكتاب – اعني الجزء الاول – هذه الرعاية والاهتمام او لم يستحق فقد الفيتني امضي في الجزء الثاني برغبة اشد مما اعرفها في نفسي وأنا اضع مواد كتبي الأخرى .

وقد يسأل البعض عن سبب طغيان العناصر الروحانية على العناصر الاخرى في هذه العروض والذكريات ، ومن الحق ان يسأل هذا البعض مثل هذا السؤال ما دام لم يعرف انني نجفي ، ومن المدينة التي يمثــل الروحانيون وطلاب العلم فيها الطبقة المثقفة من رجال العلم والبحث والادب ، والشعر منه على الاخص ، وانني محسوب على هذه الطبقة لا من حيث اسرتي الروحانية فحسب وإنما لان نزعتي الأدبية ونشأتي الصحافية كانت تفرض علي الالتقاء بمثل هذه الطبقات وانا في النجف اكثر مما تفرض علي الالتقاء بغيرهم ، خصوصاً وقد نشأت نداً للكثير منهم منذ الطفولة فجمعتني واياهم سوح اللعب ونحن صبيان ، ورحلات الصفوف ونحن طلاب ، وحلقات البحث في الصحن وفي المساجد ودواوين البيوت والاندية ونحن نتجاذب الاراء ، ونناقش الأمور ، ونتدارس ، ونسمر ، حتى فرّقت بيننا العمامة والجبّة منهم ، والبذلة الافرنجية مني ، فسار ذاك نحو المشرق ، وسار هذا نحو المغرب ، ولكن الارواح ظلت كما هي لم تخرج عن حدود تلك الالفة وذلك المزاج الذي كان يجمع بيننا ، ولم يسألني احد منهم لِمَ أنا حليق اللحية كما لم أسأل انا أحداً منهم لِمَ يطلق لحيته وشاربه ؟

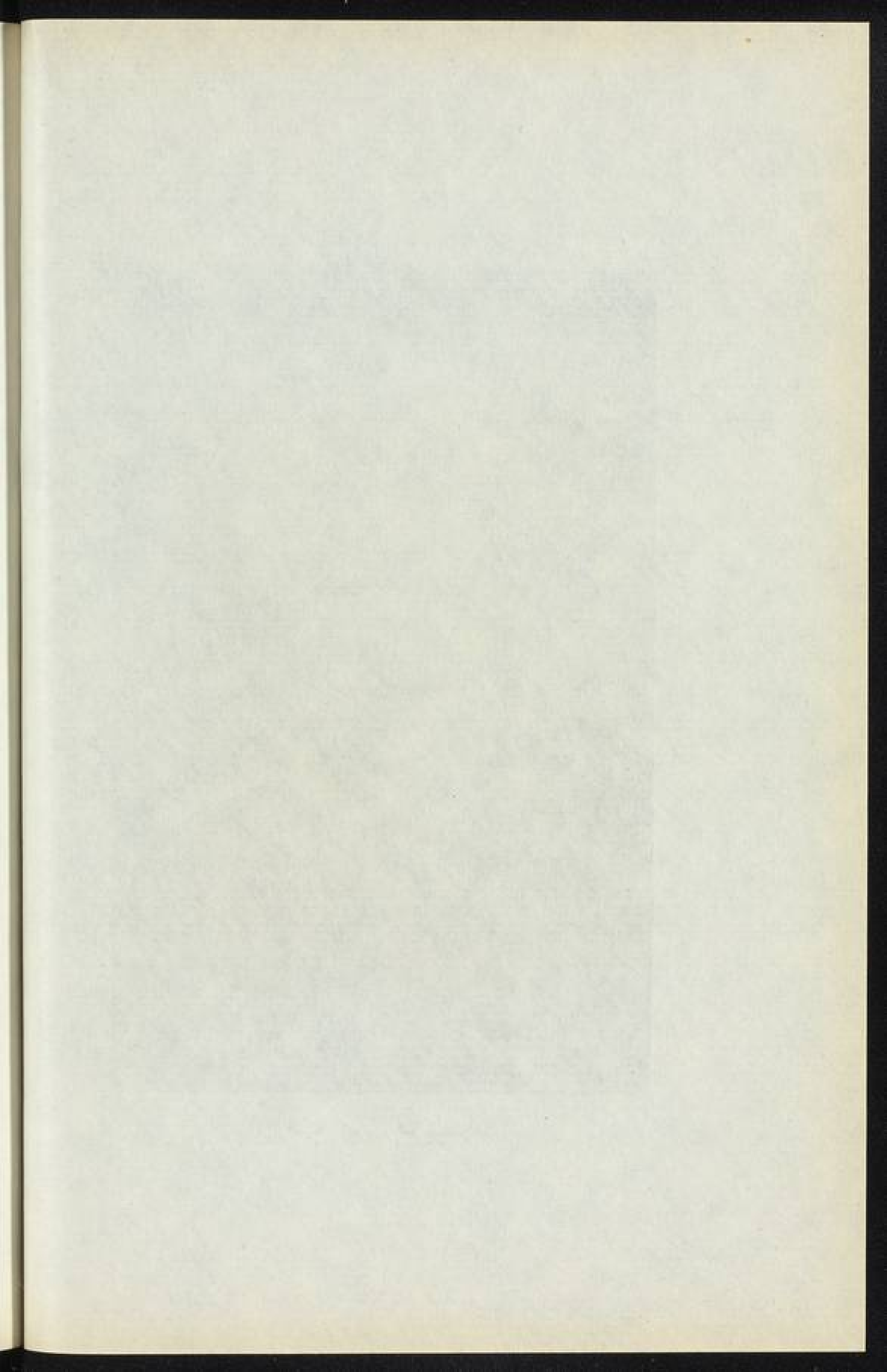
وأنا أعلم ان بين هؤلاء من يتمنى لو كان حليقاً مثلي ، وبين هؤلاء من يتمنى لو كنت أنا ملتحياً ومعتماً مثله ، والمهم في الأمر هو الروح وهو المزاج الذي شدني الى هذا البعض ، وشد هذا البعض اليّ ، برغم اختلاف العمامة والطربوش .

واذا كنت آسفاً لشيء فكل أسفي هو ان عدد هؤلاء الذين عرفتهم وامتزجت روحي بروحهم بدأ يتناقص على مرور الأيام ، وبدأت اشعر بالوحشة الكبيرة بسبب هذا الفراغ الذي بدأ يتسع يوماً بعد يوم ، فقد كان هؤلاء زبدة من عرفت ، وخيار من لقيت ، ومن مضى منهم مضى ولم يخلّف غير الذكريات ، وكان هذا الكتاب وما قبله بعض ما احتفظت به الذاكرة من تلك الذكريات ،

كرادة مريم جعفر الخليلي



الشيخ محمد رضا المظفر



كيف عرفت

الشيخ محمد رضا المظفر

ها هو ذا آخر حلقة من سلسلة الاصدقاء في حياتي ، فقد مات من قبله جلّ اصدقائي الذين ترجع صداقتهم الى أيام الصبا ولم يكن قد بقي في الحياة من تشدني اليه ذكريات الطفولة والصبا والشباب والكهولة على النحو الذي تشدني ذكرياتي الى الشيخ محمد رضا المظفر إلا الأقل من القليل .

وأنا لا اذكر متى عرفته لاول مرة وكيف ؟ ولكني اعرف اننا قد تعارفنا منذ الصغر ، واننا قد لعبنا معاً بعض الأحيان على الرغم من انني كنت من طلاب المدرسة العلوية ، وهي مدرسة حديثة تعنى بالعلوم العصرية ، وكان هو من طلاب المدرسة القديمة يسير في التعلم على الطريقة العامة المألوفة ، وعلى الرغم من اننا كنا نعيش في محلتين متباعدتين من النجف – اذ كان بيته يقع في اقصى محلة (البراق) من الجنوب الشرقي ، وبيتي انا يقع في اقصى محلة (العمارة) من الغرب فان هذا البعد لم يحل بين تعارفنا لان كلينا من مواليد ١٣٢٢ الهجرية ، ولان اسرتينا كانتا قريبتين من بعضهما من حيث النهج العلمي والادبي .

ومما بقي في ذهني من العاب الصبيان التي كنا نلعبها لعبة (السلطان والوزير) وهي لعبة تعتمد على القاء علبة الكبريت من لدن كل لاعب فان استقرت العلبة بحيث يكون سطح سمكها المطلي بمادة الكبريت والمتفق عليه بمقتضى علامة معينة الى الاعلى كان اللاعب (سلطاناً) ، وان استقرت

العلبة على الوجه المطلي المعاكس كان اللاعب (وزيراً) وان انقلبت بحيث يكون الوجه الذي يحمل ماركة العلبة وهي (بلوكي گري وشركاه ليمتد) - وكانت كل علب الكبريت من هذا النوع - الى الاعلى كان اللاعب حجّياً (حاجاً) في الاصطلاح، اما اذا انقلبت العلبة بحيث يكون الوجه الازرق الداكن الى الاعلى كان اللاعب (حرامياً)، واذا القى احدنا بالعلبة وكان (حرامياً) تناول الوزير سوطاً كان قد اعده من احزمة أحد اللاعبين من قبل وقد فتله كما يفتل الحبل حتى يصير صلباً مستعصياً واتجه الى السلطان قائلاً:

- سيّد ما مروك (أي أنت السيد وقد أمّروك).

فيجيب السلطان:

- لبّيك سعدوك (اي ان طلبك ملبّى ايها السعيد).

فيقول الوزير:

- شتامر على عبدوك (أي ما الذي ستأمر به بشأن عبدك الحرامي).

فيأمر السلطان حينذاك بأن يضرب الحرامي بالسوط بعدد ما يتراءى للسلطان، أو يكلف بأن يقوم بعمل خفيف ومثير للضحك اذا أراد السلطان ان يرأف بالحرامي، ولكن قلما وقعت هذه الرأفة.

وكم من مرة يكون الشيخ محمد رضا (حرامياً) بمقتضى هذه اللعبة ولكن الاحكام التي تصدر من السلطان فيه لم تكن تتجاوز (كشّ) العصافير، او تكرار كلمة مضحكة عدة مرات، والسبب هو ان الشيخ محمد رضا قلما استعمل الضرب او ما يثير الحقد في نفوس اللاعبين حينما يكون سلطاناً أو وزيراً.

وصدر الأمر مرة الى الشيخ محمد رضا بأن يصفع رفيقاً له في اللعب فتوقف عن ذلك وهو يضحك، فكرر السلطان عليه الأمر فأغرق الشيخ محمد رضا في الضحك ولم يستجب فغضب السلطان وأمر بأن يضرب

الشيخ محمد رضا عدداً لا اذكر مقداره فمد المظفر يده وقد تلقى هذه الضربات وهو مغرق في الضحك...

وكان للشيخ محمد رضا ثلاثة أخوة اخرين من امه وأبيه وكان هو أصغرهم وقد تولى الاشراف على تربيتهم وتنشئتهم أخ لهم من ابيهم هو الشيخ عبد النبي مظفر وكانت له وجاهة بين الناس ومكانة مرموقة فنشأ اخوته تنشئة كانت مضرب المثل بين الناس لا من حيث طلب العلم والادب فحسب وإنما من حيث الخلق الرضي والصفاء والوفاء والاخلاص الذي كان يجمع بين الأخوة جمعاً جعل الناس يعنونهم حينما يسمونهم (بآل مظفر) ، ولم يكن كل آل مظفر على هذه الشاكلة ، فالأسرة كبيرة جداً ، وأهدافها مختلفة ، وطبائعها غير متجانسة ، وفيها الطيب وغير الطيب ، والفاضل وغير الفاضل ، ولكن سيرة هؤلاء الأخوة ونشأتهم والمثل المضروب بهم (آل مظفر) قد طغى على كل شيء وغطى كل شيء ، ولم يعد احد ينظر لغير هؤلاء الأخوة من الأسرة الكبيرة ، خصوصاً وقد شق الأخ الأكبر طريقه في وسط ذلك الزحام من طلاب العلم حتى بلغ درجة الاجتهاد ، واصبح مرجعاً ومن اهم المراجع الدينية وقد كان عدد من اسرتي يرجع اليه في التقليد بعد وفاة السيد أبي الحسن .

ويميز هؤلاء الاخوة الأربعة عن بقية الناس بشرة طافحة على وجوههم ، وجاذبية من نوع خاص لا يستطيع احد ان يسبر كنهها ما لم يصابحهم ويماسهم زمناً ينتهي بعده الى الايمان بأن هذه الجاذبية انما هي مظهر من مظاهر الوداعة والطيبة وصفاء النفس ، فقد كان هؤلاء الاخوة وحتى الشيخ محمدعلي مظفر الذي يكبر الشيخ محمدرضا والذي قد يثور بعض الأحيان وقد يغضب حين يجري ما يستدعي الثورة والغضب كانوا نسيج وحدهم من حيث الدماثة واشراقة الوجه ، اما الشيخ محمد حسين وهو الأخ الثاني للشيخ محمد حسن فقلما عرفت النجف نظيره ترفاً واناقة في لباسه ، وذلاقة وظرفاً في كلامه ، وكان يحسن التعبير والتصوير اذا تولى الكلام ،

ويحسن حبك النكتة واشاعة البهجة في النفوس ، وقد كانت لسرعة بداهته وحضور ذهنه ثم لتعليقاته الظريفة على الأحاديث والامثلة ، شهرة واسعة بين اقرانه لم تقل ان لم تفق شهرته العلمية والأدبية وقد كان يرسل النكتة واضحة مرة ومبطّنة أخرى ولكنها لم تكن تكدّر خاطراً أو تخدش قلباً .

حضرت ذات ليلة من ليالي رمضان مجلس الشيخ محمد حرز وكان الشيخ محمد حسين مظفر حاضراً ، والشيخ محمد حرز عالم روحاني كبير ولكنه كثير الولع بغرائب العلوم والأساطير والاحلام ، وفي مجلسنا هذا جاء الشيخ ابو حسين الطريحي يعرض على الشيخ محمد حرز قصة حلم قال انه ازعجه وأخافه كثيراً ، وهو – اي الطريحي – منذ الليلة الماضية يكاد لا يستقر لشدة القلق .

واصغى المجلس كله ليعرف قصة هذا الحلم الذي ازعج الشيخ ابا حسين الطريحي مثل هذا الازعاج بحيث جعله يخف الى طلب تعبيره وتفسيره بهذه اللهفة ، فقال الطريحي :

قال – لقد رأيت فيما يرى النائم ان طوفاناً عظيماً قد اجتاح هذه الدنيا وغمر الأرض كلها فلم يظهر في وسط ذلك البحر الهائج والمجهول الحدود غير قمة منارة كنت قد اقتعدت رأسها ، فمرت من هناك باخرة لا تزال اصوات محركاتها تدوّي في اذني :

– بوب ، بوب ، بوب ، بوب ، بوب

وبدأ ابو حسين يحكي أصوات تلك المحركات بارسال النفخة تلو النفخة من فمه ثم قال :

وقد طافت الباخرة بالمنارة ودارت حولها وهي تنثر هنا وهناك مقادير كبيرة من (خيار الماي) واذا بي استيقظ من النوم .

قال الشيخ محمد حرز – وما هو وجه خوفك وقلقك وقد استيقظت ؟

قال الطريحي – إن لذلك قصة ، فقد سمعت مرة ان رجلاً رأى في

الحلم ان ناراً قد شبت من احدى زوايا بيته فلما عرض رؤياه على المفسرين قيل له ان النار هنا رمز لثروة كبيرة وكنز مخبأ في هذه الزاوية ، فأسرع الرجل الى نفس المكان وحفر في الأرض وما اشد دهشته حين وجد يده تقع على مقدار من الجواهر والذهب ..!!

وبعد مدة من الزمن ـ يقول ابو حسين ـ رأى الرجل في الحلم ناراً تشب من مكان آخر من البيت ، وكان قد عرف معنى شبوب النار فلا حاجة الى عرض رؤياه على مفسري الأحلام فأسرع الى ذلك المكان يحفر الأرض ، ولم يكد يزيح التراب قليلاً حتى وجد نفسه امام افعى هائلة لم يشهد لها نظيراً من قبل فإذا به يركض امامها وتركض خلفه ولم ينج منها الا باعجوبـــة .

يقول ابو حسين : فقصد الرجل المفسرين وهو مندهش لما قد حصل وسألهم عن معنى هذه النار التي تكون كنزاً مرة وافعى مرة اخرى ، فقيل له : انه الزمن ، والزمن وحده هو الذي يغيّر ويبدل هذه المعاني ويتصرف بالنتائج ، فالنار التي خلّفت كنزاً كان قد رآهاالنائم الحالم في فصل الشتاء وفي الوقت الذي تكون فيه النار مطلوبة ومحبوبة ، اما النار التي رآها الرجل اخيراً فقد كانت في الصيف وفي أشد الأوقات حرارة ...

قال الشيخ محمد حرز ـ وما الذي يخيفك انت من حلم الطوفان والسفينة ؟

قال ابو حسين الطريحي ـ ان (خيار الماء) الذي رأيت الباخرة تقذف به هنا وهناك كان في غير موسمه ، وانتم تعلمون ان هذا ليس فصل خيار ولا فصل قثاء فخفت ان تكون قصة الخيار كقصة النار .

وهنا استيقظت طبيعة الشيخ محمد حسين المظفر المرحة ، وبحلاوتـــه المعروفة توجه للشيخ محمد حرز قائلاً :

ـ منذ ساعة وانا افكر كيف ان ابا حسين الطريحي قد اخافه خيار الماء الذي كانت تلقي به السفينة هنا وهناك ولم يخفه رأس العمود الذي كان يقتعده من قمة المنارة ؟

وهنا ضج المجلس بالضحك ، ولما كان ابو حسين الطريحي من الوداعة وطهارة النفس بحيث تلذ مداعبته فقد تحول السؤال والجواب عن الحلم والباخرة والخيار الى الدعابة والمزاح عن قاعدة جلوس الشيخ ابي حسين على العمود ، ثم تحول السؤال والجواب الى الاستفتاء عن حكم المسلم اذا ما ابتلي بمثل ما ابتلى به الشيخ الطريحي في صلاته وصيامه ، وكيف وبأية صورة يؤدي المسلم فريضته وبقينا حتى السحر ونحن نتفنن في استخراج النكت من تلك الحكاية ، وحين رأى ابو حسين ان القصة بدأت تتعقد وان لا خلاص له مما بدأ يتوارد عليه من الاسئلة أنكر — وهو يضحك — ان يكون مجلسه في الحلم قد كان فوق عمود المنارة وانما قال انه كان راكباً في (القمارة) من المركب :

وعلى ان الشيخ محمد حسين مظفر كان اوفر نصيباً من ملكة الدعابة والمرح والظرف من جميع آل مظفر فان الظرف والمرح ليطفح على وجه الشيخ محمد رضا في اغلب اوقاته وحتى لقد يهش للنكتة ويضحك لها حتى تكاد انفاسه تتقطع ، والفرق بين ضحكتي الاخوين هو انك تسمع ضحكة الشيخ محمد حسين من مسافة بعيدة ، اما ضحكة الشيخ محمد رضا فلا تكاد تسمعها خارج الغرفة .

وكان هؤلاء الاخوة (آل مظفر) يسكنون داراً واحدة ولدوا فيها ونشأوا وترعرعوا في افيائها ، وتزوجوا واولدوا بها ، ولم يتحولوا عن دارهم هذه الا بعد ان ضاقت بهم وبأولادهم فاضطروا الى الانتقال الى بيوت مستقلة .

ومن عادة بعض الاسر — ولم تزل هذه العادة مرعية ومقدسة لليوم وهي ان يطيع الصغير الكبير وان يمتثل امره ، ويحترم مقامه ، ومن اشهر أسر الفرات المتمسكة بهذه العادة تمسكاً شديداً في اسرة آل القزويني ، فاذا ما رأى صغيرهم — ولو كان هذا الصغير متزوجاً ووالداً او جداً — كبيرهم اخذ يده وقبلها وجلس دون مجلسه مبالغة في الاحترام .

وكانت هذه الظاهرة عند (آل مظفر) قوية ، ولما كان الشيخ محمد رضا المظفر اصغر الاخوة كان عليه ان يقوم بجميع تكاليف اخوته ، وحاجات بيوتهم ، وحتى بعد ان استقل كل منهم في بيت ، فهو الذي كان يمارس السوق ، ويشتري حاجات البيت ، وهو الذي يُعدّ القهوة لديوانهم ويطحنها ، وهو الذي يراجع الطبيب لمعالجة الصغير والكبير منهم ويجلب الدواء لهم اذا ما مرضوا ، اما الشيخ محمد علي فقد كان هو المسؤول عن كل هذا قبل ان يلطف الله ويجعل من الشيخ محمد رضا الأخ الأصغر ، ومن لطف الله ايضاً ان تحوّل الشيخ محمد علي في عرض الطريق من طالب علم الى تاجر فخفف على اخيه الأصغر شيئاً ربما كان غير قليل من تكاليفه وتكاليف بيته المنفرد .

وبالاجمال فقد كانت مسؤولية الشيخ محمد رضا كبيرة لا من حيث القيام بواجبات اخوته وحده وانما كان عليه من جهة اخرى ان يعنى بنفسه ودروسه وتتبع بحوثه خصوصاً وقد بدأ نجمه يلمع كطالب علم ممتاز وهو لم يزل في أول مراحل الدرس من (المقدمات) واني لاذكر وقد كان (الصحن) يجمعنا ان الذين كانوا يستلفتون الأنظار بجدهم وانغماسهم في الدروس لم يزيدوا بين مئات الشبان من أمثالهم يومذاك على بضعة أنفار كان من ابرزهم الشيخ محمد رضا ، والسيد حسن الحكيم ، وكان الشيخ مهدي الحجار ألمع اولئك جميعاً ولكنه كان اكبر من تلك الزمرة سناً .

وفي هذا الدور – دور الشباب – تبحث النفس عن منافذ تطل منها على مباهج الحياة ولذائذها كلاً حسب كينونتها ومزاجها وظروفها ، والنجف بلد قاحل ، خلق ليكون صومعة منعزلة فكان لا بد لطلاب العلم في هذا الدور خاصة ان ينشدوا متعتهم في اوقات الفراغ بالشعر والأدب ، واذا ما اتيحت لهم الفرصة في كل اسبوع او في كل شهر مرة كيّفوا ظروفهم بزيارة الكوفة فطافوا بالبساتين وجلسوا على النهر ، او أمّوا مسجد السهلة ومسجد الكوفة في امسيات الاربعاء خاصة ليجمعوا بين ثواب العبادة هنا والتنفس عن النفس .

وكان الشيخ محمد رضا من اقل المتمتعين بهذه الاجواء لما كان يحمل عاتقه من ثقل المسؤولية بصفته الاخ الاصغر ، ولما كان يفرضه عليه ايمانه من المحافظة على الطقوس الدينية والانكباب على الدرس ، فانحصرت تسليته في الغالب بالشعر والادب ، وشاع يومذاك ونحن في اول ادوار الشباب علم استحضار الارواح ، وقد اخرج (الطنطاوي) فيه كتاباً فرحنا ننشد المتعة بسببه من طريق جديد اضافة الى وسيلة الشعر والتقفية ، واحضر لنا الشيخ عباس الشيخ مشكور منضدة من الخشب تقوم على ثلاث قوائم وقد كتبت على كل قائمة حروف وخططت خطوط ، وقال لنا انه يستطيع ان يحضر ارواح الموتى بواسطة هذه المنضدة ، فجئنا انا والشيخ محمد رضا والسيد جعفر الكيشوان نجرّب ، وقد نجحت التجربة وبدأت احدى قوائم المنضدة تتحرك (وليس هنا وقت تعليل القضية وذكر الاسباب) وقد أحضرنا عدداً كبيراً من الأرواح على قدر ما كانت تسنح لنا الفرصة ، وبدأنا نتفنن كل يوم في وضع الاسئلة ، وقد حملتنا هذه اللذة على متابعة هذا الموضوع والبحث عن الروح وماهيتها في بعض ما كنا نحصل عليه من مجلات كالهلال والمقتطف والعرفان ، واحسب ان هذا هو مبدا اقبال الشيخ محمد رضا المظفر على مطالعة الكتب الحديثة ، ولعل قضية تحضير الارواح هي التي ساقته الى التعمق والتغلغل في دراسة الالهيات والتصوف ودراسة فلسفة الملا صدرا وتفهم اسفاره فيما بعد ، ولعل هذه الميول هي التي جعلته يبحث عن الاسس والاصول الاسلامية وعن طريق هذه الميول اقبل كما اقبلت انا يومهـــا على تتبع ما كان يضعه الشيخ جواد البلاغي وما كان يقول به في الرد المنطقي المبني على المعقول على كل من كان يأخذ على الاسلام واصوله من مستشرقين وغير مستشرقين من المآخذ الأساسية فقد كان الشيخ جواد البلاغي من العلماء الذين انفردوا بالاطلاع الواسع وبناء رده ونقده على المنطق في الغالب ولم يعرف عصرنا نظيراً له وللسيد عبد الحسين شرف الدين في هذا الميدان .

ولم يقتصر المظفر على دراسة المقدمات العمودية من نحو وصرف ومعان

وبيان ومنطق وانما راح يجمع الى هذا شيئاً من الهيئة السماوية ، وشيئاً من الحساب والهندسة وسائر ما كان يتفرع من العلوم العربية من شعر وعروض وبديع حتى اذا ولج مرحلة (السطوح) من العلوم ، ثم مرحلة حضور (الخارج) وهي من مراحل الاجتهاد ولجها كأقوى ما يكون ذهناً وقابلية وفهماً للتشريع وعلله ، والدين واهدافه ، يسنده شعر رصين ، وقلم ناضج .

وشد ازرنا الادب ، وبدأنا ندخل مجالس الشعر ، وساقت هذه المناسبات الشيخ محمد رضا الى ان يسهم في قول الشعر ، وتليت له في بعض المناسبات قصائد استلفتت الانظار ، ومع قرب بعضنا من بعض فقد كنت انا ضمن حلقة اخرى من الاصدقاء ليس لها بالشيخ محمد رضا كبير صلة ، كان من بينها محمد مهدي الجواهري ، والسيد علي الجصاني ، والسيد جعفر الكيشوان : والشيخ عبد المنعم العكام وغير اولئك ممن كان يربط بيننا الأدب والدعابة والتحرر والدعوة للتجديد على قدر مقتضيات شباب مثلنا وبنسبة تلك المدارك حتى لقد قمت انا باصدار اعداد غير قليلة من جريدة خطية تضمنت الشيء الكثير من افكارنا وآمالنا وادبنا في ذلك اليوم ، وهي التي كانت النواة الاولى للجريدة الخطية التي اصدرتها وانا ازاول التعليم في الحلة ثم النواة الاساسية لمزاولتي الصحافة بعد ذلك .

اما الشيخ محمد رضا فلا احسبه كان يميل الى هذا النوع من اللهو ولربما اعتبره عملاً صبيانياً واظن ان له في ادب القصة رأياً خاصاً فلم يكن يؤمن بأن القصة فن يستحق الدرس ولا يبعد ان يكون مات وهو على هذا الرأي ، ولم يكن الشيخ محمد رضا مظفر وحده في هذه العقيدة وانما هي عقيدة اغلب الذين يدرسون العلم على هذا النمط الذي تدرسه النجف ويدرسه الازهر .

ولمع الشيخ محمد رضا كطالب علم وكاستاذ يتحلق حوله عدد من الطلاب وقد بدأت حلقة طلابه تزداد اتساعاً يوماً بعد يوم ، وتدريس العلم في النجف مجاني لذلك كثيراً ما يضيق النابهون من الاساتذة بعدد طلابهم وكان الشيخ محمد رضا من اكثر من كان يضيق بالوسطاء لقبول من يتوسطون له في حلقته ،

ولكنه كان يتلقى كل شيء من هذا بل انه ليتلقى كل همّ وغمّ بتلك الصورة التي تفيض بالبشر وتشيع في النفوس البهجة .

وجاءت الفتنة الكبرى التي شغلت العالم الشيعي في مختلف جهاته وشطرته الى شطرين متعادين متكارهين فخلفت في كل نفس حقداً لم يزل اثره باقياً الى هذا اليوم ، فلقد قام عدد من علماء الشيعة يعلن استنكاره لما قد جرت العادة عليه في شهر محرم الحرام من الضرب بالسيوف والسلاسل ، واللطم على الصدور ، ودقّ الطبول والصنوج وما شاكل ، وكان في البصرة عالمان هما ابرز علماء البصرة في ذلك اليوم الاول السيد مهدي القزويني ، والثاني الشيخ عبد المهدي مظفر ، وكانت بينهما اكثر من منافسة فما ان صدرت الدعوة الى شجب هذه الطقوس وتحريمها من قبل السيد مهدي القزويني مستنداً على تأييد المرجع الشيعي الكبير السيد ابي الحسن الاصفهاني حتى انبرى الشيخ عبد المهدي مظفر يدعو الى التمسك بضرب السيوف والسلاسل ويعتبر ذلك شعاراً من شعائر الدين ومظهراً من المظاهر المستحبة : ان يجري الحزن على سيد الشهداء ابي عبد الله الحسين على هذه الصورة .

واتسعت حركة الاختلاف وطافت بجميع المدن ، وكان المتصدي او حامل علم الاستنكار وتحريم مثل هذه الطقوس وشجبها هو المجتهد المصلح السيد محسن الامين ، يعارضه من جانب آخر العالمان الشهيران السيد عبد الحسين شرف الدين والشيخ عبد الحسين صادق اللذان كانا يشجبان الدعوة الى تحريم هذه الطقوس .

وكان (آل مظفر) من ابرز الواجهات التي ناهضت حركة الاصلاح وقد غذى الشيخ محمد حسين مظفر فكرة مناهضة الاصلاح بكل ما استطاع من عمل ومن كتابة حتى لقد صار محور تلك الحركة وحتى لقد قيل بأن (آل مظفر) هم الذين استخرجوا فتوى الزعيم الروحاني الكبير الميرزا حسين النائيني باستحباب هذه الطقوس والحث على اقامتها احياء لذكرى ابي عبد الله الحسين ، وكان الشيخ محمد رضا المظفر واحداً من اولئك الداعين الى التمسك

بهذه الطقوس ، ولقد تجاوز اختلاف المذهبين عند كل شطر الحدود المألوفة وادى الى كثير من الخصومات العنيفة من ضرب واعتداء ومضايقات بين الحزب الحسيني الذي يدعو الى تأييد تلك الطقوس ـ وقد كان هو الأكثرية في جميع الأصقاع الشيعية ـ والحزب المسمى بالحزب الاموي ـ وقد كان الاقلية ولكنه كان على شيء غير قليل من النشاط والحركة ـ المؤيد بفتاوى السيد ابي الحسن .

وتكاره القوم في كل بلد من البلدان الشيعية وتباغضوا وودّ بعضهم لو استطاع ان يشرب دم الآخر تشفياً ، وكنت بالطبع ضمن (الامويين) على حد تعبيرهم بل من الامويين العنيفين ، ولكنني ما رأيت والله الشيخ محمد رضا مظفر الا وقد خجلت من نفسي وحاولت ان اجد المعاذير لمثل هذا الاختلاف الحاصل بيني وبينه ، فلقد والله كان من الدماثة ، وطيب النفس ، وسعة الصدر ، والخلق الرضي ـ واشهد ان جميع الاخوة كانوا على هذا النمط ـ بما يحملك على نسيان حقك او تناسيه اذا ما التقيته ، ولقد وقعت لي معه عدة اختلافات في عدة امور فيما بعد فما وجدتني بأقل من ذلك الموقف سفاً لمثل هذا الاختلاف ، ولوماً للظروف التي تجعل منا شخصين مختلفين ، وهذا اقصى ما يبلغه رجل من دماثة الخلق ، وطهارة النفس ، واكتساب محبة الناس .

ولكن الشيخ محمد رضا قد بدأ يدنو الى الاعتدال كلما خطا خطوة أخرى في العلم ، فلقد تسنى له ان يقرأ الشيء الكثير من الكتب المختلفة والكتب الحديثة خاصة ، وقد اتسعت دائرة تفكيره ، واستقام قلمه اكثر واكثر ، وازدادت ثروته اللغوية ، واصبح له رأي مستقلفي الامور ، وكان اول من التفت الى وجوب ايجاد حركة جديدة في طريقة البحث والاستقراء والاستقصاء من طريق التأليف ، والمبادرة الى احياء المؤلفات الخطية ونشرها والتعليق عليها بقالب يتمشى مع هذا العصر ، وقد سره ان وجد له مؤيدين وكان معظمهم اكبر منه سناً واقدم عهداً بالدرس كالشيخ عبد الحسين الحلي ،

والسيد علي بحر العلوم ، والشيخ محمو جواد الحجامي ، واخيه الشيخ محمد حسين مظفر وغيرهم ، فأسسوا جمعية منتدى النشر برياسة الشيخ محمد جواد الحجامي وسكرتارية الشيخ محمد رضا المظفر ، ولم تلبث هذه الجمعية حتى دب الخلاف بين أعضائها لأسباب جذرية عميقة ليس هذا موضع شرحها حتى انتهى الامر بخروج كل هؤلاء الاعضاء وانسحابهم وترك الشيخ محمد رضا المظفر وحده في الميدان .

وكان الهدف الاول والاخير من هذا الانسحاب عند البعض هو احراج الشيخ محمد رضا وحمله على ترك العمل وحلّ الجمعية ، وجاءني الشيخ محمد رضا وقد صمم على الانسحاب هو الآخر ما دام اكثر الاعضاء والاعضاء العاملين قد استقالوا من ادارة (المنتدى) خصوصاً وبين هؤلاء من يعتدّ برأيه ويطمئن الى شخصه ، ويوثق باخلاصه ، وقد وجد مني معارضاً قوياً صوّر له مغبة العمل ، وهوّل له سوء العاقبة ، وفداحة الشماتة ان هو اقدم على الانسحاب ، واستطيع بكل فخر ان ازعم بأني انا الذي طلبت منه ان يمشي بالداء ما مشى به ، وانا الذي ظللت اياماً احضّه على دخول الميدان واثبت له ان فيه من الملكات والمواهب ما هو جدير بمثل هذا واكثر حتى تجدد عزمه ، واندفع بايمانه المعروف يعمل بكل حزم وجزم ثم ادرك بعد ذلك بأن (المنتدى) لا ينبغي ان يقف عند حد احياء العلوم القديمة وتأليف الكتب وانما الحاجة الماسة – وقد خبرها بنفسه وهو طالب علم في جميع مراحل الدراسة – الى تنظيم هذه الدراسة وتنسيقها ووضع المناهج الخاصة بها فقد ظلت دراسة النجف منذ اكثر من الف سنة تسير على نمط استنفد جهوداً كبيرة في فهم المتون بل وحتى فهم الشروح ، وقد تغير العالم وتبدّل في حين ظلت الفجوة بين رجال الدين ورجال الدنيا او بين ما يقرأ رجال الدين وبين اهداف الدين كبيرة وواسعة بل استحالت هذه الفجوة الى جفوة ، واعتقد الشيخ محمد رضا بأن هناك حلقة مفقودة يجب ان يبحث عنها او يجب السعي لايجادها على الاصح لكي تربط بين دنيا المسلم وآخرته ، وان عليه وعلى الذين يفهمون هذه الحقيقة

العمل لخلق هذه الحلقة المفقودة ، ومن هناك توجه بكل قواه الى تأسيس مدرسة يناط بها تحقيق هذه الفكرة . وابتدأ هنا الصراع – الصراع بين الذين يريدون ان يبقى كل شيء على ما كان عليه والذين يريدون ان تجري الامور وفق اهداف الدين الصحيحة التي لا تتنافى وسنة التطور .

ولقي الشيخ محمد رضا ما لقي في سبيل تحقيق هذه الفكرة من عذاب واذى وما وضع في طريقه من احابيل واشراك لا يعرف مداها الا من كتب له ان يصاحب تأريخ منتدى النشر ويشهده عن كثب .

ومن حسن الحظ ان لقيت هذه الفكرة عند السيد ابي الحسن المرجع الديني الكبير تأييداً بحيث أفتى بانفاق الوجوه الشرعية على هذه المدرسة . ومن حسن الحظ ايضاً ان وجد من آمن برسالة المظفر امثال الشيخ عبد الحسين الحلي فسدد للمنتدى ومدرسته الخطى واقسموا ان يعملوا للمنتدى متبرعين ودون ان يستهدفوا شيئاً غير تحقيق الفكرة .

وأهمل الشيخ محمد رضا حلقة دروسه الخاصة ومعنى ذلك انه قد ألقى اية فكرة تؤول به الى المرجعية وراء ظهره واقبل على المنتدى يغذيه بروحه ويحدب عليه ولولا المنتدى لما كان بينه وبين ان يكون مرجعاً روحانياً كبيراً ما يمكن ان يحول دون ذلك . فقد بلغ الشيخ محمد رضا درجة الاجتهاد : وقد بدأ المؤتمون يأتمون في الصلاة به على هذا الأساس واكثر ، فقد شغل بعد اخويه الشيخ محمد حسن والشيخ محمد حسين مكانهما في الصلاة بالناس والتصدي للمراجعات الدينية ، ولكن المنتدى قد اخذ منه كل شيء .

والمتتبع لتأريخ الشيخ محمد رضا مظفر يجد ان بين النصف الأول من عمره والنصف الثاني تبايناً كلياً في طريقة التفكير وفهم الحياة واهداف الدين ، فقد كانت الرجعية تتغلب عليه وتتملك كل تصرفاته في نصف عمره الأول ، ولكنه ما كاد يخطو الى الثلاثين حتى ظهرت عليه بوادر التجديد والدعوة الصحيحة السليمة الى الاصلاح الديني وتنزيهه من الشوائب التي علقت به

الامر الذي حدا به الى البحث في ايجاد الحلقة المفقودة والى تنظيم الدراسة الدينية وتثبيت مناهجها .

ولم تكن الكتب وحدها ولا الاستعداد الذاتي وحده الذي عمل على تفتق ذهنه وان كانا العاملين الكبيرين في صقل ذهنه وانما لصديقه الشيخ محمد الشريعة الذي عمل معه والذي تولى مديرية مدرسة منتدى النشر ، والذي كان اول من اوجد فكرة وجوب فتح صفوف لخطباء المنابر الحسينية ليحولوا بين هؤلاء الذين يرقون المنابر باسم الحسين (ع) فيسيئون الى الدين بما كانوا يروون من احاديث وأخبار كاذبة ، هذه الفكرة التي قامت قيامة النجف ضدها وآلت الى تظاهرة صاخبة والتي وجد فيها بعض المغرضين فرصة للتشفي من (المنتدى) فهاجوا نارها بما القوا فيها من الحطب ، اقول وانما كان الشيخ محمد الشريعة المعروف بتفتق الذهن وحرية الفكر ، وتخريج الأخبار الدينية تخريجة منطقية عصرية ، شرعية أثر قد لا يكون قليلاً على الشيخ محمد رضا المظفر : والشيخ محمد الشريعة هو ابن شيخ الشريعة المرجع الديني الأكبر في الثورة العراقية بعد الميرزا الشيرازي ، والشيخ محمد الشريعة يشغل اليوم مركز العالم الروحاني في كراجي بالباكستان ، وقد كان (الشريعة) صديقاً حميماً للمظفر ، وكان بيته مقابل بيت المظفر تماماً وقد اعتاد احدهما ان يقضي وقت فراغه ليلاً عند الآخر ، وكان الشيخ محمد الشريعة فضلاً عن حدة ذكائه وقابلياته العلمية جريئاً جداً ، وهو آخر من يفكر بشيء اسمه الفشل ، وكان رائده في كل ما يعمل هو التجديد الذي يماشي الشريعة والفلسفة الاسلامية .

وكان عدد الذين رافقوا المنتدى من أول تأسيسه الى اليوم كأعضاء اداريين وعاملين واصدقاء لا يزيدون على بضعة اشخاص كان السيد هادي فياض منهم في الطليعة فقد بذل من مجهوده واخلاصه وتفانيه ما يستدعي الاعجاب وقد كان من اوفى الاوفياء لهذا المشروع الذي رافقه من اول يومه حتى هذا اليوم وخصوصاً في ايام المحن .

وكم سعد الناس بعد تلك المحن الطوال التي تحتاج شروحها الى مؤلف

كبير حين رأوا نماذج مختلفة من الحلقات المفقودة تخرجهم مدارس جمعية منتدى النشر على النهج الذي وضعه الشيخ محمد رضا المظفر وتبناه ، فان بين التجار اليوم عدداً من خريجي المنتدى وقد جمعوا بين الفضيلة والتجارة والادب والاستقامة وفي طليعتهم التاجر الأديب الشاعر الحاج محمد صادق القاموسي وهو احد مفاخر التجارة والأدب في بغداد ، والتاجر المعروف محمد رضا المسقطي ، والسيد محمد حسن القاضي ، والسيد محمد حسين الصافي وغيرهم .

وان بين الوعاظ والخطباء الذين تخرجوا من مدارس المنتدى من انتهت اليهم زعامة المنابر كالخطيب الشيخ احمد الوائلي ، والسيد جواد شبر ، والسيد عبد الحسين الحجار ، والشيخ محمد جواد قسام والشيخ مسلم الجابري وغيرهم .

وهناك عدد قد دخل جامعة بغداد من كلية الفقه للمنتدى لدراسة الماستر في العلوم الاسلامية ، وهم فضيلة السيد محمد بحر العلوم رئيس جمعية الرابطة الأدبية في النجف وكان لأبيه الفضل الأكبر في الاسهام بوضع الحجر الأساسي للمنتدى في اول تأسيسه ، ومحمود مظفر ، والسيد مصطفى جمال الدين ، والشيخ عبد الحميد الحر وغيرهم .

وهناك عدد آخر من متخرجي مدارس منتدى النشر وهم يزاولون تدريس الآداب العربية والعلوم الاسلامية في مدارس الحكومة الثانوية .

وكانت جريدة (الهاتف) من اهم العناصر التي اسندت (المنتدى) في جميع مراحل حياته وفي ايام محنه وازماته الحادة ، وكان الشيخ محمد رضا من اعز اصدقاء (الهاتف) واسرته القلمية وقد اسند (الهاتف) وآزرها مؤازرة جد كبيرة في جميع مراحل حياتها حتى اصبح الهاتف وسيلة لا يستطيع ان يستغنى عنها من يريد ان يتتبع حياة الشيخ محمد رضا ودراسة افكاره ، وقد ظهرت أكثر آثاره الفكرية في السنة الثالثة عشرة والسنة الرابعة عشرة في سلسلة من النماذج الاخلاقية تحت عنوان (اسمعني) .

وقد جرى في الهاتف مرة نقاش بين المظفر والدكتور مصطفى جواد عن كلمة (فوضى) التي قال عنها المظفر انه لا يجوز تعريفها بدخول الألف واللام عليها في حين قال الدكتور مصطفى جواد بجواز ذلك واستلزم هذا الموضوع الاخذ والرد على صفحات الهاتف ، وقال لي المظفر : ان الدكتور مصطفى جواد كثير المصادر ، وكثير الحفظ ومن يدريني ان لا يكون قد وجد لدخول (ال) التعريف على كلمة (فوضى) جوازاً في احد المصادر ، وانا لا أعلم بذلك ، وبعد مناقشة طويلة طلب الشيخ محمد رضا من الدكتور مصطفى جواد في احدى مقالاته ان يأتيه بالنصوص والدلائل التي قبلت دخول الالف واللام على كلمة (فوضى) فأجابه الدكتور بما مضمونه : انه انما يرى الجواز فبمقتضى ما يستنبطه اجتهاداً .

وهنا استراح المظفر وقال : لِمَ لم تقل يا سيدي انك ترى هذا الرأي بداعي الاجتهاد لأوفر لنفسي مشقة الاخذ والرد منذ الساعة الاولى .

وعلى ذكر اللغة فقد روى لي احد الاصدقاء اخيراً عن احد اعضاء المجمع العلمي ببغداد — والشيخ محمد رضا المظفر احد اعضائه — قال انه تلقى المجمع العلمي قبل مدة وجيزة من مجمع اللغة بمصر رسالة حول موضوع من المواضيع ، وقد قرأنا الرسالة كلنا وقرأها الشيخ محمد رضا الشبيبي ولكن المظفر لفت نظرنا الى ورود خمسة اغلاط لغوية في تلك الرسالة وقال : انه لم يكن من الأدب تسقّط السهو والغلط في الرسائل التي تردنا لو لم يكن مصدر هذه الرسالة مجمعاً لغوياً ...

وتقاربنا روحاً في فكرة الاصلاح والأدب على رغم تباعدنا في الامور الاخرى وكنا متفاهمين فيما ينبغي ان يأخذ به المجتمع والفرد ليقرب من الانسانية وليسعد نسبياً بدنياه ، واذكر مرة أن وقع اختيار البعض عليه وعليّ لنزور البلاط الملكي ببغداد معاً تلطيفاً للجفوة التي قوبل بها ولي العهد في اثناء زيارته للنجف ، فلقد كانت هناك امور استدعت علماء النجف ان يحجموا عن مقابلة ولي العهد في تلك الزيارة ، ولقد قابلنا ولي العهد فعلاً ولنترك

الآن ما قلته انا ، اما هو فما عرفت لوما افرغ في عتب حلوجميل ، ولا نقداً صيغ في عبارة عذبة ، كالعتب الذي عاتب به المظفر الحكومة ، وكالنقد البناء العذب الذي اسمعه لولي العهد عن حكومة ذلك الوقت ، ولم يكذب ولم يداهن وكل ما عمل هو ان نقل احاسيس الناس وسخطهم في عبارة غاية في الادب ، وخرجنا من البلاط وانا جازم بأنه قد قال اكثر مما تسمح به الظروف هناك عن الحكومة وطريقة الحكم .

وتوثقت اواصر الصداقة بيننا اكثر واكثر حتى راح يدعو لتكريم جريدة الهاتف بمناسبة مرور خمس سنوات ثم عشر سنوات باعتبارها اول صحيفة ادبية في العراق استطاعت ان تقطع هذه المراحل دون ان تتخلف عن ميعاد صدورها ، وكان هو اول من قدم لها الهدايا .

ولقد حكم على جريدة (الهاتف) بجرم القذف مرة لأن الهاتف ردّت على كلمة وخز بها اديب شخصية الشيخ محمد رضا المظفر فقاضاها المشتكي عند محكمة جزاء النجف وكان الحاكم يومها السيد شفيق العاني فوقع اختيار المحكمة على ثلاثة خبراء كان احدهم يومذاك من اصدقائي الحميمين وهو السيد عبود زلزلة وكان مديراً لثانوية النجف ، وكان الثاني صالح الجعفري أستاذ الأدب العربي في الثانوية وكان الثالث الخطيب الشهير الشيخ محمد علي اليعقوبي وكانت بيني وبين الأخيرين برودة او شيء من سوء التفاهم فرأى صالح الجعفري ان يستقيل رعاية للخلق والأدب فاستقال ، ورأى الشيخ محمد علي اليعقوبي ان يقف موقف من يحاول ان يسوي الأمر بين المتخاصمين فلم يشدد في التأويل والتفسير ، وادلى السيد عبود زلزلة الصديق الحميم برأيه فقال ان عبارة الهاتف لا يمكن ان تحمل على اي محمل غير القذف والتشهير ولا يمكن ان يكون فيها اي لبس او غموض فهكذا اراد الكاتب وهكذا كانت العبارة ! ! ومنذ ذلك اليوم لم ار السيد عبود زلزلة ولم اذكر اسمه على لساني لا لأنه كان بوسعه ان يستقيل من موقفه كمحكَّمٍ ضد صديق وانما لأنه غالى على ما اعتقد في التفسير واعطى العبارة من معنى التشهير والقذف

اكثر مما تحمل ، ومنذ ذلك اليوم زال ما كان بيني وبين الجعفري واليعقوبي من جفاء ، وكل هذا وامثاله قد احكم الصداقة بيني وبين الشيخ محمد رِضا المظفر واخوته اكثر واكثر .

* * *

وقامت ذات يوم ضجة كبيرة في النجف وانشقت البلدة الى شقين بسبب مدفن رضا شاه ، فقد ازمعت الحكومة الايرانية على نقل جثمان الشاه من منفاه ودفنه في النجف ، وقد كان قسم من الايرانيين المتعصبين وجلّهم من الروحانيين على خلاف مع الشاه المتوفى والحكومة الايرانية ، ومن اشهرهم كان الشيخ عبد الحسين الاميني ، فراح هؤلاء يثيرون الناس ويهيجونهم ويدعونهم الى معارضة فكرة دفن الشاه في النجف وكان هنالك رهط من النجفيين يخالفون اولئك بخصوص الدفن ، وكانوا يرون في دفن الشاه في النجف فوائد معنوية واقتصادية فضلاً عن ان النجف ليست ملك احد ليتحكم فيها المتحكم ويمنع دفن من يريد ان يدفن فيها من المسلمين ، وكنت انا من المتحمسين لهذه الفكرة ، وقد توليت انا حمل المرجع الديني الكبير الشيخ محمد رضا آل ياسين والشيخ عبد الكريم الجزائري وبعض العلماء على الكتابة الى الشاه محمد رضا بالترحيب بدفن ابيه في النجف .

واخبرني الحاج مصطفى الصراف وهو من اصدقائي الذين كنت اقضي بعض وقتي من كل يوم في محله : بأن بعض المخالفين لفكرة دفن الشاه في النجف قد كلّموه بخصوصي وانذروه بسوء عاقبتي ان انا واصلت مسعاي وايدت فكرة دفن الشاه في النجف ، وقال لي : ان الذي كلمه بشأني كان شاباً قصير القامة يعتم بعمة سوداء صغيرة ، وقال : انه قد تجاوز حده في التهديد والوعيد والسباب حتى اضطرني الى سبّه وطرده .

ولاح لي شبح هذا الشاب بعد ذلك مرة او مرتين وهو متكيء على ظهر الجدار المقابل (لدار الهاتف) وحدثتني نفسي ان أقصده وأسأله :

ـ أأنت ؟. انت الذي اوصلت لي التهـديد عن طريق الحاج مصطفى الصراف بقتلي ؟

ثم تصورتها رعونة مني ان اقصد شخصاً لا اعرف كم هو نصيب الخطأ والصواب في حقيقته ، ثم اني لو فعلت هذا وقال لي الرجل : نعم انا هو : فما الذي يترتب على ذلك وما الذي ينبغي ان افعل ؟

وعدلت الحكومة الايرانية عن نقل جثمان رضا شاه الى النجف وقررت دفنه بطهران ، وكتب الشاه كلمة شكر مسهبة الى الزعماء الروحانيين الذين رحبوا بدفن الشاه في النجف وتأييدهم لهذا الدفن ، وانتهت الازمة .

وجاءني الشيخ محمد رضا المظفر ، وكان من غير مؤيدي دفن الشاه في النجف وقال لي :

ـ أتدري انك قد نجوت من اغتيال كان سيقع عليك حتماً لولا عناية الله ومسعاي وعدول الحكومة الايرانية عن دفن الشاه في النجف .

قلت ـ ومن هذا الذي كان سيغتالني ؟

قال ـ السيد صفوي ...

ووصفه لي فاذا به نفس الشاب المعمم الذي حدثني عنه الحاج مصطفى الصراف . والذي كان يتربص بي بالقرب من دار الهاتف .

وقال الشيخ محمد رضا ان السيد صفوي ممن يبيح لنفسه الحكم في الامور وهو من التعصب والجرأة بحيث لا يمتنع ان يقدم على ارتكاب اية جريمة باسم الاسلام والدفاع عن حوزته فيجد لها ما يبررها من مزاعمه ، وقال انه من حسن الحظ ان يكون هذا الشاب قد تعرف بي قبل زمن وآمن بي واسترشد برأيي وقد اطلعني اخيراً على نيته وما يريد ان يفعل بك باعتبارك حجر عثرة في طريق الاسلام الصحيح ما دمت من اكثر المتحمسين لدفن الشاه في النجف .

وهنالك صرخت في وجهه ـ يقول الشيخ محمد رضا ـ وطلبت منه ان

يستغفر ربه وان يتوب اليه ، فان هذا الذي يقوله عنك فضلاً عن انه ليس جريمة يصح ان تنسب لك فان البت في امر الجرائم الشرعية ليس من شأن امثاله ولا يجوز لواحد ان يتهم احداً فضلاً عن ان يدينه مسلماً كان ام غير مسلم .

قال : وشدّدت عليه النكير ، وكنت اعلم انه من زعماء جماعة (فدائيان اسلام) الذين لا يمتنعون ان يقرروا امراً وينفذوه باسم الشرع وباسم حماية الاسلام وهم ابعد ما يكونون عن الشرع والاسلام ..!!

وقال الشيخ المظفر : — وعلى اني قد اطمأننت كل الاطمئنان من انصراف السيد صفوي عن هذه الفكرة فاني ظللت في قلق طوال ايام الأزمة حتى اعلنت الحكومة الايرانية قرارها بالعدول عن دفن الشاه في النجف وهناك شعرت بالراحة التامة .

وكان ان اعدم السيد صفوي بطهران مع من اعدم في قضية الاغتيالات والجرائم التي ارتكبوها .

* * *

وفي اوقات فراغنا كنا نبتكر المتع ابتكاراً فنقضي مع عدد من الاصدقاء اوقاتاً طيبة فنطبخ (المقالب) ونهيىء المناسبات لنحمل بعض الاصدقاء على دعوتنا في بيته ، واكثر من عرف بين اصدقائنا باجادة نسج الاشراك للصيد كان الشيخ محمد كاظم الشيخ راضي وكنت انا ، واذكر ان الشيخ محمد حسين المظفر جاءني مرة يطلب مني ان اضع الخطة التي تدعو الحاج محمد صالح الخليلي وهو من ابناء عمومتي والمقيم في قصبة الكوفة لان يولم لنا وليمة من طيور البط المعروف (بالخضيري) ، فقلت له ولم لا تفعل انت ذلك وان بينك وبين ابن عمي هذا من الصلات ما يضمن لك تحقيق المطلوب بمجرد ان تطلب ، وقد اعتدتَ في الغالب ان تقضي من كل اسبوع يوماً او يومين عنده او عند السيد شبّر او الحاج محسن الصباغ في الكوفة ، قال صحيح ولكني فاقد لهذه اللباقة التي تملكها انت ويملكها الشيخ محمد كاظم .

وتمت الوليمة وكان حضارها بضعة عشر نفراً من الفضلاء والأدباء : وقد خص كل واحد منهم بطير من (الخضيري) وما كدنا نفرغ من الطعام حتى فاجأنا الشيخ محمد رضا بمقطوعة من الشعر المرح الضاحك يرثي بها الحاج محمد صالح الذي راح ضحية صيادين مهرة اعتادوا ان ينصبوا شباكهم ليصيدوا فقال :

اين المفرّ من (العزيمة) يا بعدها خططاً حكيمة
نصبوا – ابا الهادي [1] – الشباك وقد وقعت بها غنيمة
صادوك ام صادوا طيو رك ام جيوبك للوليمة
ودعيت لو تدري الى ما ليس يدفع بالهزيمة
فاصبر على مضض فما للصيد غير الصبر شيمه
ان قلت انك قد خدعت بنا فليس من النميمه
فاقنع بأن ندعوك من ملق أيا زاكي الارومه
وعلى غدائك قد جثونا (جيمة) من بعد (جيمه)
وعلا ضجيج القوم ينتظرون من نهم قدومه
ولقد جلسنا حول مائدة الطعام العذب (كومه)
واصطكت الاسنان تقضم من مفاخره لحومه
واذا سمعتم بالهجيمة هذه معنى (الهجيمه)
عجبي من القرم (الخليلي) [2] كيف لم يقطع شكيمه
فيفر من وجه العدالة تاركاً فينا رسومه
يا (صالحاً) حييت انت الى العلى اسمى عزيمة
ولك السماحة انجبت فيها الخؤولة والعمومه
وعلى نداك دليلنا طيب الابوة والامومة
ومن العجائب انهم منحوا الحبال وانت ديمه
لو انهم رغبوا (بثانية) وقالوا ربَّ (ديمه)
لأجبتَ حيّهلا ونفس لا تجيبكم لئيمه

---

(١) هي كنية محمد صالح الخليلي . (٢) يعني المؤلف

وهمس في اذني الشيخ محمد كاظم الشيخ راضي قائلاً : أرأيت كيف تنصل المظفر كأننا نحن الذين صدنا قريبك الخليلي ولم يكن اخوه السبب ؟ قلت وما الذي تريد الآن ؟

قال – ان نعمل بالشيخ محمد رضا المظفر ما قد عملناه مع الحاج محمد صالح الخليلي ، وكان كما أراد ، وكانت وليمة من اعمر الولائم في بيت آل مظفر .

وعلى اننا أنا والشيخ محمد كاظم اللذين نحيك الدسائس وننصب الشباك لنعقد الولائم هنا وهناك في اوقات فراغنا وحين كانت نفوسنا تسأم فقد كنا أنا واياه من اكثر اخواننا دعوة للاصدقاء في بيوتنا وطالما ابتدأت هذه الولائم بنا واتخذنا منها مناسبة لمباريات شعرية طالما اشارت اليها الصحف ونشرت من اشعارها وطرائفها الشيء الكثير .

وللشيخ محمد رضا مظفر شعر وافر ربما ألف ديواناً ، واغلب شعره عواطف واحاسيس بعضها عامة وبعضها خاصة افرغها في مراثي وتهاني شخصية منها مرثية في السيد محمد علي بحر العلوم ، ومرثية في الشيخ جواد البلاغي : وتهنئة في زواج صديقه السيد موسى بحر العلوم ، ومرثية في الشيخ جواد الجواهري التي استهلها بقوله :

أصدر العلى في أيّ درّ تفاخر
وهيهات بعد البحر تصفو الجواهر

وكان (الهاتف) قد ابتكر لوناً جديداً من الوان الأدب في احدى السنين ولست ادري ما اذا كنت مسبوقاً بهذا اللون وقلدته وتصرفت به دون ان ادري ام كنت انا الذي ابتكرته كما يخال لي ، ولكني قرأت هذا اللون : وهو لون (المحاكمات) بعد ذلك كثيراً ورأيت في بعض الصحف منه ما كان يفوق محاكمات الهاتف طرازاً وبراعة واسلوباً ، وهو ان يُفرض وجود قاعة محكمة، وحاكم ، ومدع ،ومتهم يساق إلى المحكمة ويحاكم بمقتضى شكوى الشاكي ، وقد نسجت جريدة الهاتف عدداً من مثل هذه المحاكمات ساقت

اليها الدكتور عبد الرزاق محي الدين وصالح الجعفري ، والشيخ محمد حسن حيدر كلاً بتهمة معينة ، ولقي يومها هذا اللون من الأدب الذي كان يمزج بين الجد والهزل والحقيقة والخيال اقبالاً واستحساناً كبيرين .

وكان فيما نسج (الهاتف) وابتدع من المحاكمات : محاكمة الشيخ محمد رضا المظفر وقد توخى الهاتف من هذه المحاكمة تعريف قرائه بأهداف جمعية المنتدى وغايتهم ، وتعريف القراء بشخصية رئيسه الشيخ محمد رضا مظفر و اهدافه في حياته ونذره نفسه لمشروعه ، فجرت المحاكمة يومها على هذه الصورة :

المشتكي — جمعية منتدى النشر .

المتهم — العلامة الجليل الشيخ محمد رضا المظفر بصفته معتمد جمعية منتدى النشر .

الحاكم — العلامة الشيخ محمد الشريعة .

المحلفون — جماعة من الأدباء والفضلاء وبينهم جعفر الخليلي صاحب الهاتف .

المحكمة — في مكتب جريدة الهاتف في النجف .

انتدبت جمعية منتدى النشر صاحب الفضيلة الشيخ علي ثامر نائب معتمد الجمعية مندوباً فوق العادة ووكيلاً عاماً لاقامة الدعوى على الشيخ محمد رضا المظفر معتمد الجمعية وفوضت اليه كل الحقوق التي تسوغ له ملاحقة المدعى عليه في سوح المحاكم الأدبية بحيث لا يتخلى عنه الى ان يأخذ الحق الأدبي مجـــراه .

وبناء على ذلك فقد اضطر الشيخ علي ثامر الى ان يتناسى جميع الحقوق الشخصية والروابط الأدبية التي تشده الى المتهم وذلك استجابة للواجب الأدبي

والعلم الصحيح ، والخلق القويم الذي نذرت جمعية المنتدى نفسها له قربة الى الله تعالى وحده .

وافتتحت الجلسة بمحضر جمع كبير من اهل الفضل والعلم والأدب ، وبينهم الحاسد المتشفي بالشيخ المظفر ، والمحب الآسف على ما آلت اليه الأخلاق من التردي حتى جاز ان يدخل قفص الاتهام شخص كالمظفر ، وعلى رغم تباين نزعات المتفرجين فقد كانوا جد حريصين على هيبة المحكمة ووقارها لا سيما وقد تسلم منصة القضاء قاض له وزنه العلمي ومكانته الشرعية : ولولا ذلك لصعب ان يشهد الناس الشيخ المظفر متهماً .

ووجه الحاكم السؤال الى الشيخ علي ثامر :

الحاكم ـ الاسم والعمل ؟

المدعي ـ الشيخ علي ثامر نائب معتمـد جمعية منتدى النشر حالاً ، والمترقب لانتخابه معتمداً للجمعية عند ادانة المتهم بحول الله وقوته ، والوكيل لجمعية المنتدى في اقامة الدعوى .

الحاكم ـ ما هو وجه الدعوى وما الذي يرتجيه موكلوك من المتهم ؟

المدعي ـ اذا قيل جمعية منتدى النشر فان المقصود بذلك طائفة من العلماء والادباء والفضلاء الذين جمعت بينهم المصلحة العامة ، وألف بين قلوبهم الأدب وحسن النية ، فعزموا على ان يخصوا المجتمع بجزء من مجهودهم : ويقفوا عليه قسطاً من مساعيهم لوجه الله تعالى وحده ، وما اسرع ما قالوا وفعلوا ، وكان اول قولهم ان ليس لاية جماعة حظ من الفوز قبل تعيين المعتمد ، وكان اول عملهم أن انتخبوا المتهم الماثل امام المحكمة معتمداً ، وقد عقدوا اجتماعاتهم الأولى في احدى غرف المدارس الدينية ، ثم في بيت احد الأصدقاء من اعضائهم وقد اتخذوه مكتباً لجمعيتهم ، ثم في دار حملت اسم الجمعية واتخذت لهم مقراً ، وشرعوا اول ما شرعوا بالمذاكرات العلمية والمباحث والمراجعات ، ولم تلبث ان تحولت هذه المذاكرات

الى محاضرات شهرية ثم اسبوعية ثم انتهى الأمر الى قيام مدرسة تضم عشرات الطلاب ممن يدرس العلم القديم والحديث ويعنى بالعلوم العربية والاسلامية والشريعة عناية خاصة ، ولما كان الكِتابُ هو الوسيلة الأساسية في جميع مراحل الدراسة والثقافة فقد تأسست في الجمعية مكتبة ضمت اهم المصادر والبحوث اللازمة ، وكل هذا قد جرى في ظروف حرجة ، وأحوال غير طبيعية ومع ذلك فقد تم ما تم دون ضجيج ، ولا جعجعة ، ولا تبجّح ، ولا مفاخرة ، واذا كان الفضل يعود الى هذا المتهم الذي ادار دفة هذه المدرسة وتبنى مشروع المنتدى في احرج الاوقات فان له من الذنوب ما قد تتضاءل امامها هذه الخدمات الجليلة ، فهو رجل – اطال الله بقاءه – حريص على مال الجمعية حرص البخيل على الدرة الثمينة ، لجوج في المحاسبة والمؤاخذة على الهفوة المادية لحدّ قد يفوق الوصف ، ثم هو هاديء ، ساكن اكثر مما يتصف به العلماء : ومن امانيه ان يعمل (المنتدى) صامتاً هادئاً ، وان تؤدى رسالته بعيداً عن الدعاوة والكبرياء ، والاصل عنده في الخدمة هي التضحية ، فاذا اقترح احدنا دفع اجور رمزية لبعض الاساتذة ، قال أفلم نقرر ان نخدم مجاناً ؟ وان لا ندفع لاحد اجراً مادام صندوق الجمعية لا يقوى على ذلك .؟!

واذا ما تم لمدرسة الجمعية ان تخرج من طلابها الى ميدان العمل من يستطيع ان يفج الزحام ويعرف موضع قدميه ، ومكانته من المجتمع كتاجر او اديب او واعظ او رجل دين قال المتهم اياكم ان تقولوا شيئاً او تتباهوا بشيء فنحن لا نزال في اول الطريق .

وبين هذا الحرص على الانفاق ، والابتعاد عن الدعاوة ، وخلق جو صامت بارد ، قد ضاعت حقوق وحقوق ، واذا راق البعض هذا العمل من المتهم فان اعضاء الجمعية لم يرقهم ذلك بأي وجه من الوجوه ، إذ متى يعرف الناس مبلغ ما يضحي به عضو الجمعية وما يكابده في هذا السبيل لكي يثيبوه عليه ويكرموه وهو كل ما يطلبه المضحون ويصبون اليه من وراء الخدمة والتضحيات المجانية ولكن المتهم يا سيدي القاضي يريد ان يختلس الخطى اختلاساً ، وان

يدور الدولاب بسرعة ودون صوت او صرير ودون انتظار ثمن غير ارضاء الضمير ، وبهذا قد اضاع مجهوده واضاع مجهود الأعضاء ، وبلغ من امره ان حرم نفسه وحرم الأعضاء حتى من تنـــاول قدح من الشاي على حساب صندوق المنتدى .

لذلك فانا باسم العدل الأدبي والانصاف الشرعي والعرفي اناشد المحكمة بان تنزل بالمتهم اقصى ما تراه مناسباً من العقاب الصارم ...!!

* * *

الحاكم – (وهو يوجه كلامه للمتهم) – لاشك انك قد سمعت ما ورد في لائحة الاتهام فماذا تقول ؟

المتهم – سامح الله العالم الجليل الشيخ قاسم محي الدين الذي فتح باب الشكاوى والمحاكمات فلو لم يجرِّ عبد الرزاق محي الدين . وصالح الجعفري الى ساحة المحكمة متهمين لما جرؤ اعضاء منتدى النشر في ايقافي بقفص الاتهام ، ولما استطاع المدعي ان يحاسبني كل هذا الحساب العسير من اجل أمور ليس لي فيها نفوذ ولا سلطان . فالجميع يعرفون ان الحصى لا يستحيل الى ماس وياقوت ، وان الجمرة لا تستقر في الماء دون ان تصير فحمة ، وانه لم يحن الوقت بعد ليستطيع المرء ان يكيّف امزجة الآخرين وافكارهم حسب رغبته ، على انني لو كنت واجداً عضواً واحداً بين اعضاء المنتدى وفيه جذوة من الحماس والحرارة بقدر عود ثقاب وحاولت اخماد هذه الجذوة لما وجدت الى ذلك سبيلاً ، فما ذنبي انا اذا كان جميع الأعضاء بعيدين عن الدعـــاوة لانفسهم ، بعيدين عن التباهي والمباهلة ، ثم ماهو ذنبي اذا كان صندوق المنتدى افرغ من فؤاد ام موسى ؟ ولنفرض ان الصندوق كان مليئاً – وفرض المحال ليس محالاً – فما حيلتي انا وأمين الصندوق والمحاسب عضوان ليس لي عليهما من سلطان ، وبعد ذلك أفلم يعاهد الأعضاء ربهم بان يتطوعوا للخدمة مجاناً مادام صندوق الجمعية فارغاً ، وان يعملوا دون ان تكون لهم غاية غير المصلحة العامة ؟ فعلام اذن كل هذه الجلبة والضوضاء ؟ وعلام اذن هذه المحاكمة ؟

احد المحلفين – (جعفر الخليلي) لا بأس أن يسأل المتهم ولِمَ لم تبح لهم شرب الشاي او تدخين السكاير على حساب المنتدى ؟

المتهم – ليس المال مالي – إن وجد – لابيح استعماله فيما يشتهون : وها هو ذا بيتي مفتوح لمن يشاء ان يشرفني منهم ...

المدعي – فاذا لم نجده في البيت فما العمل ؟ فلقد شاءت الأقدار ان تجعل المتهم اصغر اخوته ، والمحكمة تدري من الذي يفتح الباب ويغلقه ؟ ومن الذي يعدّ القهوة ويطحنها ويغليها ويقدمها للضيوف؟ ومن الذي يمارس السوق ويشتري حاجات البيت ويستقبل باسم اهل البيت ويودع ، ويأخذ ، ويعطي ؟ من هذا الذي يعمل كل هذا غير الأخ الصغير ؟ وان الشيخ محمد رضا قد كبر وقد تزوج وانجب ولم يزل صغيراً عند اخوته وان عليه ان يمر على بيوت إخوته بيتاً بيتاً ليسأل عما يلزمهم في كل صباح وفي كل مساء . ولو انتهى الامر عند هذا لكان فيه الخير ولكن عليه ان يحضر حلقات درسه الخاص وعليه ان يمر (بالمنتدى) لينظر في شؤونه اليومية ، وعليه ان لا يتقاعس عن اداء فروضه الدينية وحتّى المستحبة منها ، وان شخصاً هذا حاله ، وهذا هو وقته وظروفه فأين يمكن أن يجده الصديق ليشرب عنده الشاي والقهوة ؟

الحاكم – يستبان أن الدعوى قد بدأت تنحصر في شرب الشاي وتدخين السيكاير فهل هذه كل دعواكم ؟

المدعي – ليست هذه كل دعوانا وما الشاي والقهوة والسيكاير الاحديث اثاره المحلف (جعفر الخليلي) ليصرف الدعوى الى جهة اخرى لحاجة في نفس يعقوب .

الحاكم – وما علاقة الخليلي بهذا الامر ؟

المدعي – نجحنا اذن ورب الكعبة اذا كانت المحكمة غافلة عن علاقة الخليلي بالمظفر ؟ فهي علاقة ولائم ، وشعر ، ومجالس سمر ، وصداقة ارواح ،

ومن تكون هذه حاله فالمحكمة اعرف برأيه وميوله ونزاهته ،

المحلف – (جعفر الخليلي) – انني احتج

الحاكم – لقد قضيت كل عمرك محتجاً فما الذي جنيت ليت شعري من الاحتجاج ؟

المدعي – جزاكم الله خير الجزاء واخذ بيدكم في تحقيق العدل

الحاكم – (وقد لمح الاصفرار بادياً على وجه المتهم) : ما هو سر هذا الاصفرار البادي على وجهك ؟

المتهم – انه اثر اللطمة التي وجهتها محكمتكم الشريفه لمحلف كان المنتظر ان يكون اكبر عون للحق

الحاكم – (يوجه الخطاب للمتخاصمين) – هل لكما شيء آخر تقولانه ؟

الخصمان – كلا . . .

واجل هنا الحاكم النظر في الحكم الى اسبوع ، وصدر الهاتف ، في الاسبوع الاخر بالقرار التالي :

الحيثيات

نظرت محكمة الجزاء الادبية المنعقدة بمكتب جريدة الهاتف في الدعوى التي اقامها العلامة الشيخ علي ثامر باسم جمعية منتدى النشر على الشيخ محمد رضا المظفر فوجدت ان كثيراً من الصفات التي شكا منها المدعي متوفرة في المتهم وذلك باعتراف المتهم نفسه ، ولكن هذا المتهم كان يدافع عن هذه الصفات كما لو كانت مثلاً عليا ، وصفات مشرفة سامية ، واذا جاز ان لا يروق طلحة والزبير وامثالهما من الصحابة ان يطفىء الامام علي (ع) السراج الذي كان يُجري عليه حساب بيت المال في اثناء زيارتهم له ويأتي بسراج آخر من بيته غير مستحل لزائريه ان يستضيئوا

على حساب أموال المسلمين ، وعلي هو من عرف المسلمون وغير المسلمين منزلته ، وهؤلاء الصحابة من عرف الناس بلاءهم في سبيل الاسلام ، نقول اذا جاز ان لا يروق هؤلاء مثل هذا الحرص على الحق والعدل فكم بالحري ان لا يروق جمعية (المنتدى) مثل هذا التأسي من عميدهم بالامام علي بن ابي طالب عليه السلام وفي مقام ليس له دخل بالحق والعدل ؟ لذلك تعتقد المحكمة ان حرصاً يحرم اعضاء المنتدى وهم الذين ضحوا بكل ما وسعهم في سبيل هذه المؤسسة من ان يتناولوا قدحاً واحداً من الشاي على حساب صندوق الجمعية لهو بعيد كل البعد عن المرؤة والعدل والانصاف بل هو نوع من أنواع العجرفة والصلابة التي لا تستسيغها المحكمة، وان حرصاً كهذا وصفات كهذه اجدر ان تلتصق بالحكام والقضاة لا العمداء والمعتمدين بحجة النزاهة والمحافظة على الحقوق ، ولهذه الحيثيات لا ترى المحكمة بدأ من ادانه الشيخ محمد رضا مظفر والحكم عليه بما يأتي :

القرار والحكم

حكمت هذه المحكمة على فضيلة العلامة الشيخ محمد رضا المظفر بالتنحي من رياسة جمعية منتدى النشر وتحميله جميع نفقات هذه المحكمة ، ولما كانت الصفات التي يتصف بها فضيلته مما تستدعي الرأفة فقد اكتفت المحكمة بتخفيض نفقات الدعوى وحصرها في اقامة وليمة عشاء يحضرها جميع اعضاء المحكمة واعضاء جمعية المنتدى واسرة جريدة الهاتف القلمية .

ولما كانت شماتة المدعي الشيخ علي ثامر بالمدعى عليه الشيخ محمد رضا ستكون عظيمة وكبيرة ، وبالنظر لاصرار المحلف (جعفر الخليلي) وتهديده بالاستقالة اذا لم تستجب له المحكمة ، فقد حكمت المحكمة على فضيلة الشيخ علي ثامر المدعي بحرمانه من نيل رياسة جمعية (المنتدى) وهو حكم سبق ان نطق به عبدالله بن الزبير حين قال :

– « اقتلوني ومالكاً » والا فليس له اية صلة بقرقوش الشهير ،

وهو قرار قابل للاستئناف والتميز بعد التأكد من حضور الوليمـــة .. عند الشيخ علي ثامر .

ومن الغرائب ان يحكم على الشيخ محمد رضا وينفذ الحكم في الآخرين فقد فرض على محمد الخليلي بأن يعيد وليمة (الپاجة) التي كانت قد اصبحت من الفرائض السنوية التي كان يقيمها في كل سنة لهم في مهرجان من الشعر والمباريات الادبية ، كما فرض على السيد هادي فياض بأن يعيد للقوم وليمة السمك (الحرش) المعروف (بأبي خريزة) والتي كانت هي الأخرى من الفروض او الرسوم السنوية التي قيل عنها « قطع الخشوم ولا قطع الرسوم » والغريب ان ليس لهذين الاديبين اية علاقة (بالپاجة) او (الحرش) من حيث الامتياز بالطبخ او الشهرة ولكن مشيئة هؤلاء الرفاق لا تعرف شيئاً اسمه علاقة او امتياز او مناسبة ، كما فرض ايضاً على الشيخ علي ثامر المدعي وكان يسكن يومها محلة (الجديدة) من النجف ان يستقبل هذا الجمهور في بيته ظهر يوم معين رضي ام أبى تنفيذاً لحكم المحكمة ، كأنه هو المحكوم لا الشيخ محمد رضا بالوليمة .

ونفذ الحكم بالشيخ علي ثامر وكانت وليمة من افخر الولائم وانفسها ووقف هناك ابنه الدكتور محمود ثامر الاختصاصي بأمراض القلب اليوم وكان يومها تلميذاً صغيراً لا اظنه يتجاوز الثامنة نيابة عن ابيه والقى علينا قصيدة بدأها بقوله :

السلام عليكم ايها (المنعزمون) . وانشد :

أهلاً بأربـــاب الفضيلة	وذوي السجيّات الجميله
أهلاً بكم ما غردت	في وكرهـــا بنت الخميله
اهلاً ومن بشر يقول	اذا رأى خلٌ خليـــله
يـــا معشراً رمقتـــكم	العليا بابصـــار كليله

يا معشراً حتى السماء	وان علت فقدت مثيله
ليس الكواكب جيلـه	كلا ولا الاملاك جيله
بكم العراق يفوق مصراً	والفرات يفوق نيلـه
ولكم تطـاولت البـلاد	عـلى الثريا المستطيله
وبكم حوى النجف المقد	س كل مكرمة جليلة
هذي (الجديدة)[1] لم تكن	نسماتها قبلاً عليلـة
مرت عـلى جنباتهـا	اقدامكم فغدت بليله
لو بالنفـوس قرى	الضيوف لكنت منتهجاًسبيله
ولو ان معناً جاد في	كبد لكنت بهـا زميله
لكن رأيت (بحرشة)	او (پاچة) تقرى القبيله
فرضيت من نفسي القليل	ولم تكن نفسي بخيله
هذا القليـل فكـثروا	برضاكم عنـه قليله

وهناك أبيات تناول الناظم فيها الشيخ محمد رضا والشيخ قاسم محي الدين والشيخ محمد كاظم وتناولني انا بصورة خاصة بالهجاء المغلف بالدعابة لاننا كنا نحن الذين دبرنا له هذا (المقلب) ولكن هذه الأبيات استلها الناظم نفسه وحذفها حين سمح للادباء بنقلها فضاعت مع الاسف منه ومنا نحن الذين تخصنا .

ومن الغرائب ايضاً أن يتدرج ذلك التلميذ الصغير محمود ثامر الذي انشدنا شعر أبيه واسمعنا هجاءنا على سبيل المزاح وهو صبي فيتخرج بتفوق في الطب ، ويتخصص بتفوق في جراحة القلب وامراضه ويؤول اليه الاشراف على معالجة الشيخ محمد رضا نفسه ويكون له الفضل في تمديد حياة المظفرِ مدة أطول .

وعلق الكثيرون على الدعوى التي اقيمت على الشيخ محمد رضا المظفر

---

(١) إحدى محلات النجف التي كان يقيم فيها الشيخ علي ثامر

في جريدة الهاتف واعتبروا هذا الحكم مجحفاً ، وطلبوا من الشيخ محمد رضا ان يميز الحكم في ساحة بعيدة عن ساحة (الهاتف) وعند جماعة اكثر انصافاً ومرؤءة لا يهتمون بالولائم والشعر ونصب الحبائل عند النظر في الاحكام ، ونزل الشيخ محمد رضا على رغبتهم وميّز الحكم عند الشيخ عبد الحسين الحلي قاضي قضاة البحرين في لائحة استعرض فيها اخلاق الناس في مختلف أدوار حياتهم ، وما تبانوا عليه من قواعد فاسدة ، وما انتهجوا من سبل لتحقيق اغراضهم ، وقدم اللائحة الى الهاتف بقلمه وبهذا النص :

الى الزعيم العلمي في منتدى النشر
من بلد النجف الاشرف سابقاً
وشيخ الاسلام في البحرين لاحقاً

العلامة الكبير الشيخ عبد الحسين الحلي دام للحق والعدل والعلم والادب

سيدي — لقد حكمت محكمة مكتب الهاتف الأدبية علي أنا الموقع ادناه في عددها (٣١١) بالاخراج من عمادة (منتدى النشر) — وطالما تمنيته من صميم قلبي كما تعلمون — بناء على التهمة الموجهة الي من قبل اخواني جماعة (المنتدى) على لسان العلامة الشيخ علي ثامر ، ولما كان هذا الحكم صارماً لم يتناسب والتهمة الموجهة الي ، بل مجحفاً لم تستطع فيه المحكمة اداني ، بل جائراً لم يستند على اساس عدلي صحيح ، فاني افزع اليكم لتقولوا كلمة الفصل في هذه الدعوى الفذة في بابها ، النادرة في تاريخ المحاكم التي ابتدعتها جريدة (الهاتف) الغراء ، وما اكثر مبتدعاتها .. ! !

ولم اجد محكمة استئناف أدبية يحق لها ان تنظر في هذا الأمر غير محكمتكم العالية ، كيف لا وهي تتمثل في شخصكم الكريم ، ولكم هذه المنزلة الكبيرة في العلم والادب والمنصب القضائي الرفيع ، على ان لكم من الاحاطة باسرار (المنتدى) ودخائله وتاريخه وتطوراته ما ليس

لاحد غيركم ، فبهمتكم أحكمت آساسه ، وبقلمكم رفع بناؤه ، وبعلمكم اشتهرت آثاره ، وبادبكم انبعثت حياته ، فضلاً عن معلوماتكم الدقيقة عن نفسية المدعى عليه وتفكيره ، وتتبعكم لاعماله وحركاته من يوم كنتم على رأس الحركة العلمية في المنتدى حتّى اليوم ، وان اشتطت بكم الدار فلم تشتط عنكم دقائق الأعمال وحقائقها واليكم ما استأنف به الحكم واميزه :

ما هذه باول قارورة كسرت في الإسلام ، وما نحن وما هي قيمتنا اذا قيست بالعظماء الذين حكم عليهم جوراً ولا سيما اذا كان العظيم عظيماً بكل معاني الكلمة كالامام علي بن ابي طالب عليه السلام ، ألم يحكموا عليه بعدم استحقاقه الخلافة لان فيه دعابة .. ! ؟ مع الاعتراف بأنه ان وليها ليحملهم على المحجة البيضاء ، وهل بعد المحجة البيضاء من هدف لمستهدف ، وخوف من شيء على الحق ؟ وفي المثل « ما وراء عبّادان قرية » وما هي (الدعابة) حتّى تقع في قاموس الخلافة عيباً ؟ وهل هي الا طيب المعاشرة . وخفة الروح ، واستملاح النكتة التي تدل على سلامة الطوية ، ولين العريكة ، وكرم النفس ، فماوجه الغرابة بعد هذا إذا اندفع مدع كالعلامة الشيخ علي ثامر ، وإذا حكم حاكم كالعلامة الشيخ محمد الشريعه ؟ وقبلهما كان ملايين المدعين ، وملايين الحكام ، وملايين المحكومين على هذا النمط حتّى لقد سموا قديماً الشجاعة بالجنون ، والكرم بالسفه ، والحلم بالذل ، والعفو بالضعف ، والتفاني في سبيل الحق بالقاء النفس في التهلكة ، واتباع سبيل العقل والحكمة بالزندقة ، كما قلبوا المعاني فسموا الختل والخداع عقلاً وتدبيراً ، والكذب والنفاق سياسة ودهاء ، والمجون والخلاعة رقة في الحاشية ، ولم يغب عن سمعنا ما يدعو به بعض متمديني العصر الحاضر من ان الاخذ بنظام الدين رجعية ، والتمسك بالعقيدة جموداً ، والصدق والوفاء غباوة ، كما قلبوا ايضاً فوصفوا التمرد على النظم الاجتماعية بالحرية ، واعلان الفسق والفجور بالتمدن ، وهكذا دواليك من تشويه للحقائق وطمس للاخلاق الفاضلة .

وكل هذه كلمات خداعة ، براقة ، يستعملها الدهاة والساسة والخطباء والادباء للتأثير على الجماهير ، وإثارة العاطفة فيهم ، والجماهير عاطفية تتأثر بالكلمات الرجراجة التي تتسع وتتضيق حدود معانيها بنسبة قوة عاطفة الجمهور وخيالهم ، وتحتفظ لنفسها بقوتها السحرية ، وسيطرتها في التأثير على عواطف الجمهور وتخدير اعصابهم بجمالها لإثارة اشمئزاز النفس وانقباضها ، او اقبالها وانبساطها ، ولكن لا تستطيع ان تثبت امام التفكير الفردي ، ولا تجدها شيئاً عند التحليل العلمي ، ولا تعثر لها في قاموس العدل الاخلاقي على معنى واضح ليجعلها من المساوي والعيوب التي يستحق عليها مرتكبها اللوم والذم او المحاسن والكمالات التي من شأن صاحبها المدح والثناء .

وعلى هذا فإذا حللنا ادانة محكمة الجزاء الادبية لشخصي على التهمة الموجهة إلي فلم تخرج عن تسميتها الامانة والنزاهة (عجرفة) او (صلابة) كما سمعنا سابقاً من تسمية طيب المعاشرة وخفة الروح بالدعابة ، وانما هي الاخلاق الفاضلة التي تستحق المدح والثواب ، لاالذم والعقاب ، ومثله تسميتهم للتمسك بالعقيدة جموداً ، فيلقون الكلام على عواهنه ، وما الجمود الذي هو عين الجهل والحماقة غير التمسك بالعقيدة مع وجود البرهان على بطلانها وفسادها ،

ومثله أيضاً وصفهم للتمسك بالدين رجعية من دون ان يتبينوا معنى واضحاً للرجعية تكون به وصمته في الانسان معروفة في عيوب النفس الا إذا رجعت الى معنى التقليد للاباء الذي نهى عنه القرآن الكريم من دون قيام الدليل على صحة ذلك الدين .

فلنسأل هنا : ــ ما هي (العجرفة) في قاموس العدل الاجتماعي والاخلاقي لتكون جرماً يستحق عليه مثل هذا العقاب الصارم ؟ وهل معناها الاكمعاني (الدعابة) والجمود ، والرجعية الخلابة البراقة التي ليس لها حدود مفهومة معينة ؟ بل هي اكثرها غموضاً ، ولا تستطيع ان ترجعها الى احد العيوب

النفسية المعروفة ،

والمحاكم ــ مهما كانت أدبية ــ فان عليها ان تقيس الالفاظ بمقياس العدل والعلم لا بمقياس العاطفة والخيال ، فانما تستعمل مثل هذه الكلمات لاثارة الجماهير ، او تكييفهم ، لا لتقرير حكم عادل مثل هذا الحكم ، ولذلك قلت عنه : انه حكم جائر لا يستند على اساس عدلي صحيح ،

اما انه مجحف لم تستطع فيه المحكمة اداتني فلأني لم يسبق لي الاعتراف صريحاً بالحرص المدعى في بياني في العدد (٣١٠) من الهاتف الغراء ، وانما جعلت المسؤولية على من بيده المال من الاعضاء غيري

واما ان الحكم صارم لم يتناسب والتهمة الموجهة الي فعلى تقدير ثبوت التهمة واعتبارها جريمة فمهما بولغ في شناعتها فلا تبلغ ان تستحق مثل هذا العقاب الشديد ، والجرائم انما تقدر بقدرها ، ولكل جريمة حدود من العقاب ليس للحاكم ان يتعداها مهما كانت منزلته ، لانه ليس له صفة التشريع ابداً حتى الحاكم المدني ، فكيف اذا كان على طريقتنا نحن الامامية ؟ الا اذا جاز لحكومة الادب ان تمنح حكامها كل حرية وسلطة ليتصرفوا في شريعتها ، ويستبدوا في احكامهم ، ولكن حكومة الادب حكومة ديموقراطية الى أبعد حدود الديموقراطية واوسعها ، فكيف يخضع الادباء لاستبداد واحد منهم في (شريعتهم) الادبية .

ولا يتنافى كل ذلك مع تقديري لشخصية الحاكم الادبية والعلمية العلامة الشيخ محمد الشريعة ، واعجابي بعقله الراجح ، وتفكيره العالي ، واخلاقه الفاضلة ، وقلما رأيت له نظيراً في اقرانه ، ولكن الجواد قد يكبو ، والسيف قد ينبو .

وارجو بعد هذا ان تقولوا كلمتكم الاخيرة التي يكون بها الفصل بعد تدقيق اوراق المحاكمة ودمتم للفضل .

المدعى عليه محمد رضا المظفر

ولست ادري على أي مستند كان زعم البعض بان هناك تشابهاً وتقارباً في اللون والتركيب والاسلوب بين شعري ونثري وشعر الشيخ محمد رضا ونثره فثمة الف دليل ودليل يفنّد مثل هذا الزعم ، ومع ذلك فقد مرت حوادث ادبية ، اظهرت هذا الزعم عند البعض باجلى مظاهره ومن ذلك ان بعض البيوت العلمية النجفية ارادت ان تحتفي بالحاج اغا حسين ابن المرجع الكبير السيد ابي الحسن الاصفهاني بمناسبة عودته من زيارة خراسان إكراماً لأبيه ، فكانت حفلة الشيخ حبيب العادلي من اكبر تلك الحفلات وكانت وليمته اكبر الولائم على الاطلاق حتى لقد قال عنها الشيخ قاسم محي الدين على سبيل المزاح : ان الصحون والأواني في وليمة العادلي قد ناءت بما كانت تحمل من ألذّ المآكل واطيبها فاستعان الشيخ حبيب عليها بالزنابيل .. ! ! وقد عن لي هنا ان أسهم في هذا التكريم بالشعر . وقد تطرقت في قصيدتي الى مواضع كان من الانسب ان اظل مجهولاً بسببها ، لذلك دعوت الخطيب السيد جواد شبر وانا اثق بايمانه وتقواه وخلقه ، ومع ذلك احتطت للامر وقلت له : هذه قصيدة نظمها احد اصدقائي وقد اخذ علي عهداً بان يظل اسمه مجهولاً واني اريد ان آخذ عليك نفس العهد بان يظل اسمي كوسيط مجهولاً ايضاً ، وان تكتبها بخطك وتنشدها في مجلس الشيخ حبيب العادلي غداً وبالطريقة النجفية ولحنها ...

وأنشد السيد جواد القصيدة ، ولقيت إقبالاً عجيباً ، واستعيدت ابياتها ولاسيما الابيات التي تضمنت النكتة والتي من أجلها اردت ان يبقى اسمي مجهولاً ، واتجهت العيون اغلبها الى الشيخ محمد رضا المظفر بل صاح غير واحد ان الشعر شعره ، وان استعادته الابيات مع المستعيدين ما هو الا للتضليل والتمويه ، وظل الأمر مكتوباً الى ما قبل ثلاثة شهور من هذا التاريخ حين سألني السيد جواد شبر عما اذا كان بامكانه الان ان يعرف صاحب تلك القصيدة وقد مرّ عليها اكثر من بضع عشرة سنة ؟ فاخبرته بخبرها .

وكانت هنالك سلسلة من مقالات كتبتها في الهاتف بعنوان (الهندواني بين اليعقوبي والخاقاني) وكنت اوقعها بتوقيع رمزي باسم (الهندواني) ، فقد كان علي الخاقاني قد نشر كتاباً حوى تراجم عدد كبير من الشعراء لم تسلم من السهو والغلط والخلط الامر الذي حمل الشيخ محمد علي اليعقوبي على ان يقوم بتصحيح ما وقع فيه الخاقاني من اغلاط تاريخية كبيرة فطبع في ذلك كتاباً ولم يصرح باسم كاتبه ، فجئت انا بتلك السلسلة من المقالات في اسلوب عجيب من التباله والمجون والمنطق المفلوج دفاعاً عن الخاقاني بحيث كانت لهذه المقالات التي استمرت طويلاً ضجة وبحيث قال عنها الشاعر النجفي أحمد الصافي يوم انهيت كتابتها بما مضمونه : « ما ساءني شيء كما ساءني ان يقطع الهاتف هذه السلسلة ويحرم قراءه هذه اللذة »

ولقد احسنت أنا التمويه والتستر على نفسي في كتابة تلك السلسة حتى راح كل واحد ينسبها الى كاتب من الكتاب ، والعجيب في الامر ان عدد الذين نسبوها الى الشيخ محمد رضا المظفر لم يكن قليلا .

واثقل كاهل الشيخ محمد رضا الجهد ، ولو كان جهد (المنتدى) وحده لكفى ، وانما كان عليه ان يبحث ويتتبع ويؤلف ويواصل عمله كمجتهد ، وقد ألف عدة كتب كانت في عالمها ذات شأن كبير ، وكان عليه ان يتجشم مشقة الطريق بين النجف وبغداد لحضور اجتماع (المجمع العلمي) كلما اقتضى ذلك بصفته عضواً ، وقد شكا — بل هو منذ سنة واكثر كان يشكو — عوارض قلبية ادت بعد ذلك الى دخوله المستشفى طويلاً ، وعلى ان الاطباء كانوا قد ألزموه بتجنب الاتعاب الفكرية فقد كان يضطر لا ستجابة ميوله فيقرأ ويكتب ويعمل ، ويبدو لي انه كان يحس بدنو أجله فقد قال لي على أثر قراءته الجزء الاول من كتابي (هكذا عرفتهم) قال لي :

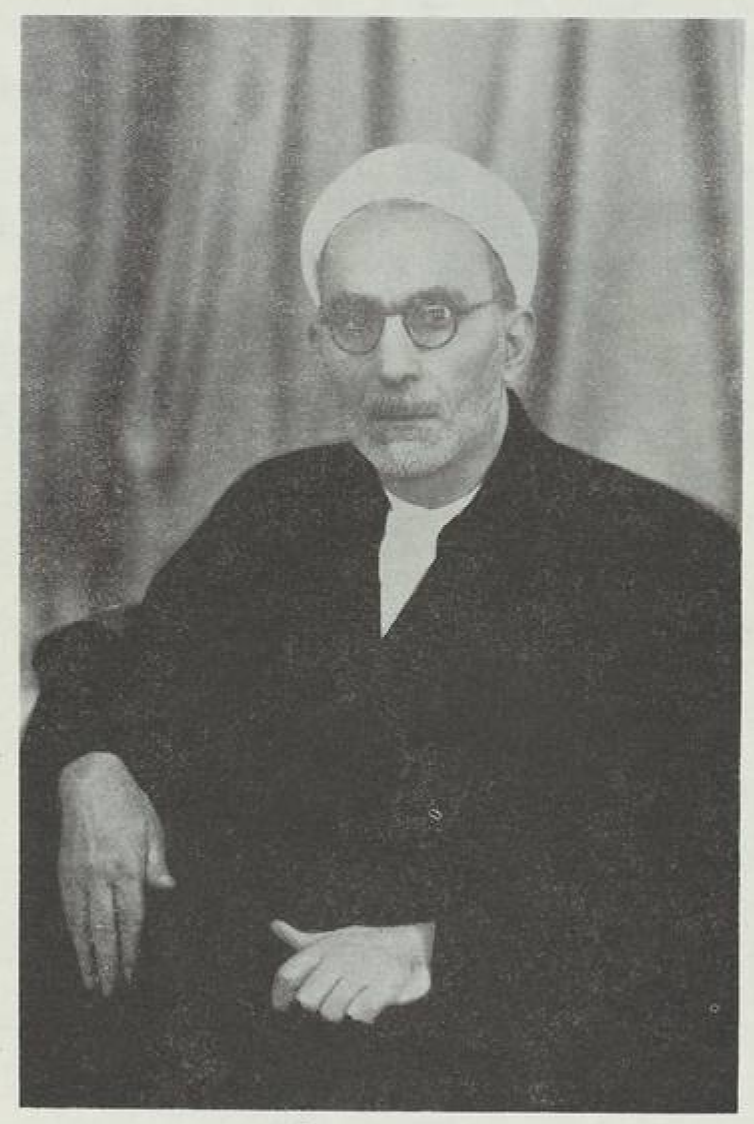
« لو أنك أجلت صدور هذا الكتاب قليلاً لكان لماضينا فيه ذكر »

وقبل وفاته بنحو اسبوعين تلفن لي من بغداد ، وقال انه يريد أن يراني

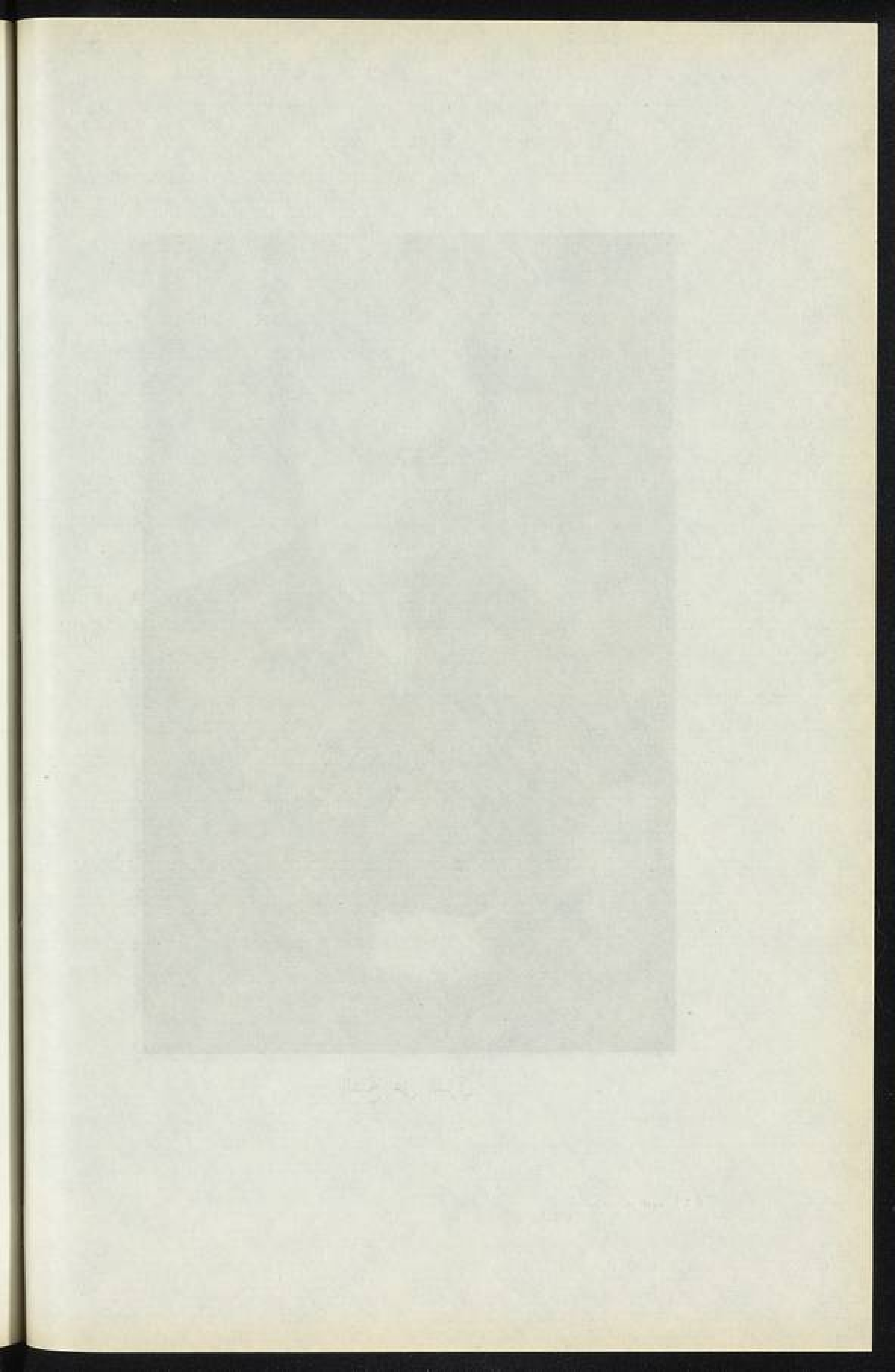
ولكنه لا يستطيع ان يصعد درج المكتب لذلك يحبِّذ ان يزورني في البيت ، قلت اذا كان كذلك فنحن منتظروه على الغداء ، وسألني عن الموعد المناسب الذي يمكن ان نزور معاً الشيخ علي الشرقي فاخبرته بان (الشرقي) في لندن ، وانه قد دخل المستشفى للمعالجة ، فدعا له بالشفاء .

ولم أر الشيخ محمد رضا بعد هذا ، ولم ادرانني لن اراه مرة اخرى ، ففي صباح يوم الجمعة وانا في ايام الجمع والعطل أتأخر اكثر من المعتاد في الفراش — فتحت الراديو وهو ضجيعي في السرير واذا بالاذاعة تنعى الشيخ محمد رضا واذا بها مصادفة لم أعدّ نفسي لتلقيها ، واذا بي في شبه دوامة من الهلع ، وفي دقائق بل وفي ثواني سريعة يمثل هذا الصديق امام عيني في شريط من ذكريات الطفولة ونحن نلعب ، وذكريات الشباب ونحن ندرس ، وفي تلك المجالس الحلوة يوم كنا نخطر ، وفي صفحات (الهاتف) يوم كنا نجتمع ، وفي مكاتب المنتدى يوم كنا نتعاون ، وفي باحة الصحن الشريف وتلك الازقة والطرق الضيقة من المدينة يوم كنا نروح ونجيء .

لقد مرّ هذا كلمح البصر ولكنه تحول الى فيض من الدموع ، وادركت جنازته في النجف ومشيت مع المشيعين الى قبره ، وهنالك ، وفي تلك الحفرة التي دفن فيها ، دفنت كل ما كان يعمر قلبي من ذكريات عزيزة وملذات روحية ، وسكبت كل ما كنت ادخرت من الدموع ، وعدت الى بغداد كأنني لم اعش هذا العمر الطويل ، فقد لفه الموت بردائه وراح .



الشيخ علي الشرقي



كيف عرفت
الشيخ علي الشرقي

يوم بدأت أدرك - وانا صبي - كان هناك في مدينة النجف الأشرف عدد من الشبان الذين لفتوا اليهم انظار شيوخ الأدب فادخلوا في اذهان الجميع - بما كتبوا ونظموا ونشروا - انهم سيكونون هم شيوخ الأدب وزعماءه في المستقبل ، وكان الشيخ محمد رضا الشبيبي والشيخ علي الشرقي في طليعة أولئك النفر من أدباء الشباب ، وقد اتسعت دائرة افكارهم - وهم لا يزالون في اول مراحل الشباب - فاتصلوا بالعالم الخارجي وتتبعوا حركته الثقافية وعرفوا اخباره ، فيوم غرقت الباخرة (تيتانيك) سنة ١٩١٢ على اثر اصطدامها بجبل الثلج في المحيط الاطلنطيقي كان الشبيبي والشرقي من اوائل شعراء العرب ان لم يكونا اول شاعرين تحمساً بهذه النكبة وعمقها فراحا يصورانها في الشعر تصويراً غاية في الروعة ويعرضان للهلع والفجيعة الواحاً تستفز المشاعر ، وتتدفق بالعظات والأمثال ، فهذا الشبيبي يقول في بعض ما يقول عن عبر الحياة وقد نشرت مجلة لغة العرب قصيدته في حينها وهو يخاطب الباخرة تيتانيك :

أمليكة البحر اسمعي لك اسوةٌ ... في الأرض كم ثُلّت عروش ملوك
أنّى ينجّيك الحديد وما نجوا ... باشدّ من فولاذك المسبوك

ولم يتم الشرقي العقد الثاني من العمر يوم نشرت له مجلة العرفان القصيدة

التي يرثي بها (تيتانيك) فيقول فيها :

فيا جبلَ الجليدِ ولستَ أرسى فتكتَ وكيف في جبل الحديدِ
وما اصطدمتْ جسومٌ في جسومٍ بل اصطدمت جدودٌ في جدودِ

وكان على الباخرة المستر ستيد وهو احد كبار العلماء ومن دعاة المحبة والسلام والمؤمنين بخلود الروح ، وحين احس (ستيد) هذا بالفاجعة وكان نائماً خرج من غرفته والباخرة على وشك ان تغيب في البحر نهائياً ، واخرج من جيبه سيكارة واولعها وجذب منها بعض الأنفاس وهو ينظر الى هذه النهاية بعينه ثم دخل القُمرة ، واغلق عليه الباب وبعد قليل كان الجزء الأخير من الباخرة قد غاص بمن فيه في اعماق البحر وهنا يخاطب (الشرقي) المستر (ستيد) ويرثيه قائلاً :

أداعيةَ السلام وقد تداعى عليكَ سلامُ ارواح الجنودِ
رقدتَ فايقظتكَ صروفُ خطب ولم تعبأ فعدتَ الى الرقودِ
شديدَ العزم كنتَ وانتَ حيٌّ فمتَّ وانت في عزم شديدِ

وان مثل هذا الشعر المتدفق بالحيوية والمعرب عن عمق الصلات بما يجدّ في العالم لشابٍ لم يبلغ العشرين بعد كان لابد ان يستلفت اليه الأنظار .

وللشرقي شعر ينعى فيه الجمود والقيود ، ويبكي الحرية ويستنهض البلاد وينفخ في الشباب روح الفتوة وهو لم يزل فتى لا يزيد عمره على بضع عشرة سنة مما يدل على سرعة نضجه ورهافة حسه يقول :

بنودُ البلاد قلوبُ الشباب ترفّ فترمز عنها البنود
وان الحدودَ رؤوس الرجال اذا عمرت لا البراري الحدود
ألا تتحركُ هذي القلوب ؟ فما أخرَ الشرقَ الاَ الجمود
لقد قيدونا بعاداتهم ضلالاً فعضّت علينا القيود

ومن اوائل نظمه قصيدة يثور فيها على التقاليد وعزوف البلاد عن الأخذ بالجديد وذلك قبل الحرب العظمى الأولى بعد سنين وهو في سن تدل على

نبوغ الشاعر بسبب عمق تأثره بالعالم الخارجي اذ يقول :

وما بلدٌ ضمني سجنهُ ولكنه قفصُ البلبل
ترفٌ جناحاه لم يستطعْ مطارا فيفحص بالارجل
لقد اقفلوا باب آماله فحام على بابه المقفل

كما كان الشرقي من اوائل الشعراء الذين تحسسوا بفجيعة طرابلس الغرب حين غزتها ايطاليا فعبر عن تلك الفجيعة بأبدع الشعر واوجعه .

والحق ان هذا النفر من الشباب هو الذي نقل النضج الفكري والوعي السياسي ، والاراء الحديثة الى النجف ان لم يكن الى العراق كله اذ لم يسبق لجماعة كبيرة في اية مدينة من مدن العراق التي تجاوبت مع الحضارة الحديثة والأفكار الجديدة مثل هذا التجاوب في مثل تلك الأيام العصيبة التي أناخ الاستعمار العثماني بكلكله على العراق فابعده عن فهم نفسه وفهم معنى الحرية ومضامين الثقافة .

ولم يكن الشعر وحده ولا الكتابة وحدها كل عنوان تلك اليقظة عند اولئك الشباب وانما اندفعوا الى تأسيس جمعية منهم عهدوا لها العناية بجمع المخطوطات والمؤلفات والدواوين ، والتفكير في كيفية الحصول على رأس المال لطبعها واخراجها والاستمرار في مواصلة النشر اذ لم يكن لاحد منهم ما يستعين به على نفقاته الضرورية في المعيشة اليومية فكيف بالحصول على رأس مال لمشروع كهذا .

وشرعوا يجمعون الكتب ، ويشرحونها ويبوبونها فجمعوا ديوان مهيار الديلمي ، وديوان السيد محمد سعيد حبوبي ، و (العقد المفصل) للسيد حيدر ، وديوان السيد ابراهيم الطباطبائي ، وكتبا ودواوين أخرى . وكان اول ما شرعوا به هو ديوان السيد ابراهيم الطباطبائي وقد بعثوا به الى صيدا حيث طبع بمطبعة العرفان ، اما نفقاته فقد حصلوا عليها من احد اعضائهم الذي رهن داره ودفع لهم المبلغ المطلوب . وكان قد شاع بين الناس خبر جمع الكتب وشرائها

من قبل هؤلاء الأدباء فراح البعض يعرض عليهم بيع ما يملك وما كان قد ورث من الكتب التي لم يعرف قدرها ، وقص عليّ (الشرقي) انه اشترى ذات يوم هو والشيخ محمد رضا الشبيبي بضعة كتب كان بينها كتب خطية قديمة تعود تواريخها الى القرن الرابع الهجري وما قبله وقال انه لم يستطع ان يدبر الثمن على رغم قلته الا بشق الانفس حتّى استعان بعدد من النسوة في تدبيره ، وكان القنصل الروسي بكربلا مولعاً بشراء الكتب القديمة وحار الشرقي والشبيبي في كيفية الوصول اليه وعرض هذه الصفقة عليه للافادة منها واتخاذها رأس مال للعمل على احياء الكتب وهما لا يملكان أجور الطريق بين النجف وكربلا ، وأخيراً وبطريقة من الطرق الغريبة تم لهما الحصول على أجرة الطريق ووصلا الى كربلا وليس في جيبيهما ما يستطيعان ان يشتريا به طعاماً فقال لي الشرقي وقد اشار الى هذه القصة في كتاب (الأحلام) قال لي لقد رحنا انا والشبيبي نستعين على جوعنا في كربلا بورق البرتقال والرارنج نقطعه من الشجر ونأكله سداً للرمق !

وقد كلف جمع ديوان السيد محمد سعيد حبوبي الشبيبي . وجماعته جهداً كبيراً ذلك لأن السيد محمد سعيد حبوبي كان قد ترك قول الشعر وانصرف عنه انصرافاً كلياً على اثر قضية حدثت له مع الشيخ ملا كاظم الخراساني المعروف (بالآخوند) على ما ذكروا فقد قيل ان السيد الحبوبي كان قد ناقش الشيخ الآخوند في مسألة اصولية ذات علاقة جذرية بعلم الأصول ، والشيخ (الآخوند) يعتبر حجة في هذا العلم وله فيه كتاب باسم (الكفاية) لا يزال حتّى اليوم مرجعاً مهما ، وقد الح السيد الحبوبي في مناقشته حتّى حمل الشيخ على ان يقول له على ما اشتهر يومذاك : — انك رجل شاعر فما انت والمسائل الأصولية ؟

ومنذ ذلك اليوم والسيد الحبوبي يطلّق الشعر ويهمله ولا يسأل عنه ، الأمر الذي سبب الكثير من المتاعب لجامعي شعره من هنا وهناك وقرائنه فقد كانت القصائد والأبيات مكتوبة بخطوط مختلفة للناس . ولكن البعض

لا يعترف بهذه القصة ويعتبرها ملفقة .

وعلى ذكر (الآخوند) الخراساني اذكر انه كان اكبر مرجع في عصره لا من حيث عدد فحول العلماء الذين تخرجوا عليه ، ولا فيما عرف به من وطنية وحرية رأي وانما لسعة عقله وحسن تصويره الأمور وتقريبها للذهن فقد كان لبحوثه قيمة كبيرة ومن ذلك ما روي عنه مرة وهو يعالج ما ينبغي ان يميّز المشبّه به عن المشبّه في ضرب المثل قائلاً ان المشبّه به يجب ان يكون آخر ما يُلتجأ اليه في التوضيح وهنا اشار الى تلميذه وهو العالم الشيخ جعفر البديري وكان قصير القامة نحيفاً تعلو رأسه عمامة كبيرة لا تتناسب ونحافته وقصر قامته ووضع منه مثلاً لبحثه وقال :

قال الآخوند – مثلاً ان الشيخ جعفر البديري يشبه (الاستكان)[1] حين تقلب صحنه فوقه :

فقال الشيخ البديري لاستاذه ألم تجد مثلاً آخر للمشبّه والمشبّه به غيري والله ان مثل (الاستكان وفوقه قعبه) سيرافقني حتى الموت

وكان كما قال ، ولعمامة الشيخ البديري قصة رواها عن ايام الحرب التي عزّ فيها الحصول على القماش وصار التموين بالخام والقماش والأغذية يجري عن طريق البطاقات ، قال الشيخ : وقد خرجت بعد منتصف الليل ذات ليلة من داري قاصداً زيارة الحرم وكانت الطرق خالية حتى من الحراس والخفراء وكانت الأضوية خافتة لا يكاد الانسان يتبين طريقه لبعد الأضواء بعضها عن بعض ، واذا بشخص يستوقفني في عرض الطريق ويمسك بيدي ويقبّلها ثم يقول :

– احسب انك ستؤيدني اذا قلت لك ان الاسراف في اللباس في مثل هذه الأيام شائن اذا لم يكن حراماً ...

---

(١) الاستكان هو كأس الشاي الصغير

قال ــ فقلت له : ربما كان ذلك ...

وقبل ان أتم كلامي ــ يقول الشيخ ــ مدّ الرجل يده الى عمامتي وتناولها ثم فلّها وقسمها الى نصفين وقال :

ــ هذا النصف لك وهو يكفيك لتعمم به رأسك وزيادة ، اما النصف الثاني فهو يكفيني لاخيط لي منه ثوبا وسروالاً .

يقول الشيخ البديري ــ وانا بين البهت والدهشة والاعتراف بالواقع قلت للرجل وكررت القول :

ــ وهو كذلك ... وهو كذلك ... وكان لصاً شريفاً ومنصفاً .

* * *

وانقلب الشيخ عبد العزيز الجواهري وهو شقيق محمد مهدي الجواهري الاكبر ــ وكان من هذه الزمرة ــ لقد انقلب عليهم فسعى الى ان يظفر بطبع ديوان الحبوبي وحده ويفاجأ تلك الجماعة من المتصدين لجمع الديوان ونشره فلا يجعلهم يحسون الا والديوان قد طبع فيسد بذلك عليهم الطريق ، وكان قد وقع بين تلك الجماعة والشيخ عبد العزيز شيء من النفور ، فرويتْ عن طريقة حصول الجواهري على مجموعة من قصائد الحبوبي وطبعها روايتان احداهما ان الشيخ عبد العزيز الجواهري قد رجا من ناجي السويدي وكان يومها قائمقاماً للنجف بأن يلتمس من الشيخ محمد رضا الشبيبي بان يعيره مجموعة قصائد الحبوبي المخطوطة ليلة واحدة فقط بالنظر لما كان بين آل الشبيبي وناجي السويدي من صلات صداقة ومحبة ، فاعار الشبيبي المجموعة للسويدي وهو لا يعلم ان السويدي انما استعارها فلكي يعطيها للجواهري ، وحين تسلم الجواهري النسخة دعا عدداً من اصدقائه الى بيته في تلك الليلة وفكّ ملازم المجموعة وحوّلها الى كراريس ودفع كل كراسة الى كاتب منهم نقلها في اقل من ساعة ثم خاط المجموعة من جديد ، وأعادها في صباح اليوم الثاني الى السويدي الذي دفعها للشبيبي كما هي ، بينما راح الجواهري

يفاوض الحاج محسن شلاش بطبع الديوان على نفقته ببيروت بصورة سرية ، حيث تم طبع الديوان كما اراد الجواهري ، وبقيت هنالك قصائد للحبوبي لم تنشر في الديوان بسبب استعجال الجواهري وعدم حصوله عليها .

والطريقة الثانية التي قيل انها هي التي مكنت الجواهري من الحصول على مجموعة الحبوبي الشعرية هي ان الجواهري قد اتفق سراً مع السيد علي الحبوبي ابن السيد محمد سعيد الحبوبي والحاج محسن شلاش على ان يسبقوا الآخرين في طبع الديوان فراح السيد علي الحبوبي يجمع لهم قصائد ابيه من هنا وهناك حتى كان من ذلك الجمع هذا الديوان الذي بين ايدينا اليوم .

* * *

والشرقي وليد أبوين لهما شأن غير قليل فيما اورثا ابنهما هذا من ملكات حسية وشعرية ، فابوه الشيخ جعفر الشروقي عالم وأديب وشاعر ، وأمه من آل الجواهري وهي أخت الشيخ عبد الحسين الجواهري ، والشيخ عبد الحسين هذا هو والد الشيخ عبد العزيز الجواهري ووالد محمد مهدي الجواهري الشاعر الكبير ووالد عبد الهادي الجواهري

والشروقي نسبة يطلقها الناس على قبائل الجنوب من الفرات ودجلة والجنوب الشرقي من العراق ، وقد حول الشيخ علي الشرقي هذا (الشروق) الى (الشرق) فعرف با (الشرقي) ليس بقصد التصحيح وحده وانما تنزيهاً عما كان يرافق مفهوم كلمة (الشروقي) عند النجفيين من بلادة وغباوة ، فقد زعم النجفيون بان اغلب طلاب العلم من الشروقيين وفضلائهم هم شواذ على زعم النجفيين ولا يجوز القياس عليهم ، وقد حملت الدعابة الشيخ محمد الشريعة ان يقول عن بعض الشروقيين بان الشروقي يحتاج الى مواصلة الدرس والتفاني في البحث والجد اربعين سنة كاملة لكي يستطيع ان يكون حماراً فذهبت هذه الدعابة مثلاً .

ولقد مات والد الشيخ علي الشرقي وهو لم يزل صبياً فكفله خاله الشيخ

عبد الحسين الجواهري وضمه الى ابنائه ، وكان الشرقي وابن خاله الشيخ عبد العزيز الجواهري في سن متقاربة ، وكان بيت الشيخ عبد الحسين عبارة عن ديوان ادب يحضره الكثير من رجالات الشعر والادب امثال الشيخ جواد الشبيبي والسيد باقر الهندي والشيخ هادي الشيخ عباس والسيد جعفر الحلي ، والشيخ عبد الكريم الجزائري ، وقد كان هذا الديوان بمثابة مدرسة كان لها شأن غير قليل في صقل ذهن الشرقي ، ونضجه اكثر مما حصل للشيخ عبد العزيز فكان ذلك مما يحز في نفس الشيخ عبد الحسين ان يكون ابن اخته ابرز من ابنه وارسخ قدماً في الأدب وهذا ما كان يثير شيئاً من الغيرة او الحسد في نفس الشيخ عبد العزيز على الشيخ علي الشرقي ، وهما لا يزالان صبيين ، وهذا ما كان يسبب للشرقي اليتيم نكداً وتنغيص عيش اذ كان هو الذي يقوم بخدمة بيت خاله ، وهو الذي يتلقى النهر والتوبيخ عن خطيئات الآخرين من الكبار والصغار ، وهذا ما جعل الشرقي يبكي في اعماق نفسه اذا لم يكن قد بكى جهاراً ، وهذا واكثر منه مما حدثني به الشرقي نفسه فيما بعد وحين تم اتصالي به .

* * *

وخطا الشرقي في السن والأدب وادراك الحرية خطوات جعلته من اوائل المعتنقين لفكرة استقلال العرب والدعوة الى العروبة فقد كان العثمانيون قد احسنوا استغلال الدعوة الاسلامية وبثها في جميع الأقوام المسلمة وافهام جميع المسلمين بان الدولة الوحيدة التي تذب عن الاسلام وتحمي حوزته انما هي الدولة العثمانية لذلك كان من الأمور غير اليسيرة ان يفهم المرء ان الخروج من ربقة العثمانيين لا يعني الخروج من الاسلام فكان عدد المدركين لهذا قليلين في ذلك اليوم وكان الشرقي من هذا القليل وكانت له هو وبعض الشباب من رواد السياسة الداعين للعروبة واستقلالها صلات بالسيد طالب النقيب ، وقد أحست السطات العثمانية بوجود هذه الزمرة فخاف الشيخ علي الشرقي وهرب الى الغرّاف وكانت له بالغرّاف صلات من الاعمام والأقارب

فحموه وحين علم السيد حسن والد السيد عبد المهدي المنتفكي به نقله من بيت اعمامه الى بيته ، وهناك قويت اواصر المحبة بين الشرقي وبين السيد عبد المهدي وتحولت الى اخوة ولكن الأقدار لم تدعها تستمر فقد زار الشيخ حسين الشروقي وهو ابن عم الشرقي بيت السيد عبد المهدي ذات يوم وكانت بيد السيد عيسى – وهو والد السيد عزيز والسيد رفيق السيد عيسى وابن عم السيد عبد المهدي – بندقية انكليزية يقلبها بين يديه ولم يعرف انها محشوة فانطلقت منها رصاصة وقرت في صدر الشيخ حسين الشروقي فخرج الشرقي بجنازة ابن عمه الى النجف ولم يدخل بعد ذلك بيت السيد عبد المهدي ، في حين لم ينقطع عن الغراف بعد ذلك التاريخ فقد صار له بالاضافة الى اعمامه اصدقاء واحباب في الناصرية والشطرة وسائر جهات الغراف وصار له هناك شأن ومنزلة وقد اتصل بآل السعدون اتصالا وثيقاً وعلى هذا الاساس تحكمت الصداقة بينه وبين عبد المحسن السعدون رئيس وزراء العراق ، كما تم له الاتصال بخيون العبيد وظلت هذه الصداقة عامرة بين الاثنين نحو خمسين سنة الى ان فرق بينهما الموت ، ولكن الشرقي قد اصاب من هذه الصداقة اذى بقدر ما اصاب من اللذة وزيادة ، وذلك انه حين ثار الفرات في وجه السلطات الانكليزية من سنة ١٩٢٠ وقف الغراف ، والاصح وقف خيون العبيد موقف المشكك بنجاح الثورة والمناقش لدعاتها متذرعاً بأمور اوردتها انا في كتاب (على هامش الثورة العراقية) ، وكان الشرقي قد ارسل الى الغراف للتمهيد للثورة ، فعزا الكثير وقوف خيون آل عبيد السلبي من الثورة العراقية الى الشرقي ، ودوّت هذه التهمة في جميع الاذهان فلم يفد معها دليل النفي ولم تفد معها سوابق الشرقي الوطنية ، وكان قد حدث بينه وبين الشيخ محمد رضا الشبيبي شيء من سوء التفاهم الذي ادى الى القطيعة فزاد ذلك من رسوخ التهم في الأذهان لأن الشبيبي كان من الوطنيين الصلبين فلم يميز الناس بين الاختلافات المزاجية والأدبية والاختلافات السياسية والا فليس هنالك أي دليل ولا شبه دليل يقوم على عدول الشرقي عن آرائه السياسية التي شب عليها والتي يدل عليها شعره .

* * *

ثم خطا الشرقي في الأدب خطوات جريئة اذ احتوى شعره على جانب كبير من الوخز بالشعائر والتقاليد والنقد والاستهجان خصوصاً بعد ان خرج من بيت خاله الى زاوية في احدى المدارس الدينية شعر فيها لأول مرة بنسيم الحرية والاستقلال وكان قد ألمّ وهو في هذه المدرسة ومن قبلها عند احد الكتاب الايرانيين باللغة الفارسية فطعّمت الفارسية شعره بالكثير من المعاني والاخيلة وحببت له نظم الرباعيات ، وعُرف الشرقي بطراز نظمه وصيده المعاني وطريقة النسج بكونه من اوائل المجددين في الشعر لا بل لم يكن قد سبقه شاعر في نسج الفكرة على ذلك النمط الذي حببه للأدباء والمتذوقين وكرّهه للمجتمع الذي حارب تقاليده ولا سيما رجال الدين الذين كثيراً ما اشبعهم في رباعياته وخزا واستهانة بتقاليدهم ، وكثيراً ما حدث له ما يشبه الصخب واللعن كلما ظهرت له رباعية جديدة تفيض بهذا الوخز والاستهانة ومن هذه الرباعيات المبتكرة المجددة قوله وهو يخاطب الزعيم الروحاني المرائي الذي يتظاهر بما ليس فيه ، ولا يصدع بما أمره به الله اذ يقول :

انظرْ الى سبحتـــــه ترَ الذي اقـولُ لكْ
شيطـانُــه كخيطهـا بين الثقـوب قـد سلكْ
يـا ذرةً مـن نفخنـا قـد ارتقتْ الى الفلكْ
مـا اسودّتْ السبحـةُ الا لترينـا عملكْ

أقول وخطا الشرقي خطوات في الأدب وبدأ نجمه يلمع ومع ذلك فلم اكن اعرفه الا عن طريق ما كنت اسمع من شعر ينشد به في بعض المناسبات من رثاء صديق او تهنئة قريب او استشهاد متأدب اذ لم تكن سني لتساعد على التعرف به عن كثب فقد كان الفرق بين سنينا كبيراً .

وحدث للشرقي حادث جعل ــ الجميع ــ من كان قد سمع به ومن لم يسمع باسمه ، ومن كان قد عرف الشعر ومن لم يعرفه ــ ان يسأل عن الشيخ علي الشرقي وهويته ومسكنه ومزاجه ، وشاعريته الفياضة . فلقد استقل الشرقي في بيته وبدأت معالم استقلاله هذا تظهر في مجلسه . واحاديثه وشخصيته .

وأقدم على الزواج ، وللشرقي الشاعر عدد من الأصدقاء ومن حق الشاعر في ذلك اليوم على الشعراء ان يزفّوا له التهاني بالقصائد وان يعدّوا له سوقاً يتبارى فيه الادباء بشعرهم ، وهكذا كان ، وكانت مقدمات العرس بمثابة ثورة في عالم الشعر والأدب ولا سيما والفصل كان ربيعاً والنفوس تبتهج في الربيع وزفت العروس وما كادت تدخل الحجلة حتى شكت ، لقد شكت من عارض مفاجىء قالت اني احس باني احترق . احترق ، وفي اقل من لحظات اسلمت الروح الى باريها فكانت فجيعة كبيرة دوّى صداها في البلد بان عروساً تسلم الروح في ليلة زفافها ، فمن تكون هذه العروس ؟ ومن يكون هذا العريس ؟ وما هي صفاتهما ؟ وكيف حدثت هذه الفاجعة ؟ وبين عشية وضحاها يتردد اسم الشرقي على كل فم بصفته الزوج المفجوع ثم لا تلبث ان تنتشر قصيدته الرائعة (شمعة العرس) التي يصف فيها اللوعة . فتتناقلها الالسن فماً عن فمٍ قبل ان تنتشر على صفحات الجرائد وهي ما نشرتها مجلة العرفان فيما بعد فلم يبق في النجف من المتأدبين والأدباء من لم يستظهر (شمعة العرس) التي يقول فيها :

شمعةَ العرس ما اجدت التأسّي ... انتِ مشبوبةٌ ويطفأ عُرسي
انتِ مثلي مشعولةُ القلبِ لكنْ ... من سناكِ المشؤوم ظلمةُ نفسي

ثم يقول في عروسه :

رفرفتْ حولها البلابلُ خرساً ... وبكاها نزعُ الحليّ بجرسِ
أسفاً يخرج الربيعُ الرياحينَ ... من الترب ِ وهي في الترب تُمسي

ولم اكن انا باقل من هؤلاء الذين بدأوا يسألون عن الشرقي ويروون ويتناشدون مرثيته لا سيما وكنت قد دخلت مرحلة الشباب ، وبدأت الج دواوين النجف ومجالسها الشعرية ، ومع كل ذلك ومع معرفتي بما كان بين أبي وأبي الشرقي وبين أخي عباس وبين الشرقي نفسه من صلة فلم احاول التقرب الى الشرقي فقد كنت وان لم ادرك بعد الأسباب والعلل ، لقد كنت ممن

يميل لزمرة الشبيبي وممن يرى في الشرقي سحنة من الكبرياء والعنجهية وهي سحنة لن تزول من عيون الرائين حتى يتم لهم الاتصال به عن قرب ، وحتى يعرفوا ان هذه السحنة الكاذبة كثيراً ما ضللت الناس فلم يعرفوا الشرقي بحقيقته ، ولطفه ، وبعده عن كل ما يسمى كبرياء او عنجهية بعد السماء عن الأرض ، ومع ذلك فلم اجهل قيمة التجديد في شعر الشرقي ، ولم انكر على نفسي لهفتها لتلقف ما تسمع به من شعره وافكاره شأن جميع الشبان من امثالي في ذلك اليوم حتى لقد تلقيت خبر فاجعة عرسه بشيء كثير من التأثر الذي لم ازل اتصوره للآن واتمثل ما أحدث من دوي في المدينة وأنا صبي بعد .

أقول لقد دخلت مرحلة الشباب وعلى رغم تعلقي بالشرقي الشاعر فقد كنت عازفاً عنه غير ميال اليه حتى جاء ذات يوم التاجر محمد رؤوف الجوهر من بغداد الى النجف ونزل في بيتنا ، وكان بين آل الجوهر واسرتنا سابق معرفة وصداقة ، وكان آل الجوهر من مقلدي المرجع الديني الحاج ميرزا حسين الخليلي عمي الكبير وحين قصد الحاج ميرزا حسين الخليلي بغداد بقصد معالجة عينيه عند الطبيب الذي ارسلته الحكومة العثمانيةمن اسطنبول الى بغداد خصيصاً لمعالجته ببغداد أصرّ آل الجوهر على نزوله عندهم فتحولت كل دورهم الى دور ضيافة لكثرة مرافقي الشيخ الخليلي ، وكثرة زواره ، وتحولت دارهم الكبرى الى مسجد كان يقيم فيها الشيخ الصلواة الخمس فيأتم به المصلون .

أقول لقد نزل محمد رؤوف الجوهر ضيفاً علينا في النجف وكانت لي به بالاضافة الى ما مرّ معرفة حديثة جاءت عن طريق الشيخ عمران الحاج سعدون رئيس قبائل بني حسن والذي نمتُّ إليه بصلة رحمية من امهاتنا ، فطلب مني ان أهيء له زيارة الشيخ علي الشرقي في بيته وكان محمد رؤوف الجوهر على رغم كونه يعمل في التجارة فقد كان شخصية فذة من ناحية وطنيته وحبه للتجديد ، واقباله على تتبع اخبار الثقافة الحديثة وقراءة الكتب العصرية ، فخجلت ان اخبر (الجوهر) بالحقيقة ، واعترف له بعدم وجود معرفة سابقة بيننا وعدم ميلي للاتصال بالشرقي بناء على ما مر ، ومضيت معه الى

بيت الشرقي وكنت اعرف انه كان يقعد للناس في غرفة تقع في الطابق الثاني فيقصده هناك الكثير من المعجبين بشعره وشخصيته وكلامه ، فإذا ما انتهى مجلسه قصد ديوان الشيخ جواد الجواهري على الغالب ثم ديوان السيد محمد علي بحر العلوم ويكون الشرقي هنالك في الديوانين وجهَ المجلس وقطبَ الرحى مما يدور في ذينك المجلسين اللذين يمتدان الى ساعة متأخرة من الليل .

وهناك في بيت الشرقي قدمت له نفسي بنفسي ، فقال :

— « شمد خلّ الاخيار في بيوت الاشرار » .

اما المثل المعروف فهو « شمد خلّ الجني في الجامع » .

ثم راح يسأل عن حالي بعد ان رحّب بالجوهر ترحيباً حاراً ، وقد شعرت بالخجل يغمر كل وجودي فقد كانت العبارة على ما فيها من لطف فانها لتحوي شيئاً من الوخز يشعر السامعين وفيهم ضيفي الجوهر باني قد دخلت بيت الرجل لاول مرة ولربما تشير الى اني من الزمرة التي تقدس الشبيبي وان مثل تلك الزمرة لا تحب الشرقي ان لم تكن تكرهه .

* * *

رأيت الشرقي بعد ذلك عن كثب ، رأيته مرة ثانية وعشرا واكثر ، وسمعت كلامه ، وتحسست بنبرات صوته ، ولست ادري كيف تحولت تلك السحنة التي طالما استدل منها الكثير ومنهم انا على العنجهية والكبرياء الى سحنة جذابة تسحرك منها العينان الواسعتان المشعتان بالذكاء والنفوذ الى الاعماق هما كل ما يميز البدوي الاصيل عن الحضري ، وسمرة حبيبة الى النفس في وجه ينم عن اتزان الشخصية لحد كبير ، وكلام لا يكاد يخرج من بين الشفتين حتى يدخل القلب ، فقد وُهب الشرقي الى جانب ملكته الشعرية ملكة حسن التحدث فلا احسب ان مستمعاً للشرقي ملّ حديثه او سئم امثلته التي ينتزعها من الحوادث الواقعية فيأتي بها شواهد لما يقول في قصص طلية وحكايات تجعل من المستمع — من أي طبقة كان — آذاناً صاغية ،

والى هذه الملكات يعود انجذاب الكثير من مختلف الطبقات به وقد كان له من الاصدقاء الاوفياء ما قد يحسد الشرقي عليهم ، ومن هؤلاء كان عبد المحسن السعدون رئيس الوزراء وقد رشحه نائباً عن المنتفك ولكنه لم ينجح في منافسة الشيخ باقر الشبيبي ، وغضب عبد المحسن السعدون من اجله ، وعزّ غضبه على الملك فيصل فعين الشيخ علي الشرقي قاضياً وبراتب ممتاز يومذاك ، فلم يلق هذا التعيين صدى استحسان عند بعض رجال الدين الذين كانوا لا يبرئون الشرقي من الكفر بسبب نقده اللاذع للتقاليد حتى لقد صرح البعض بخوفه على الاحكام الشرعية من التحريف ، اذا ما ولي الشرقي منصب القضاء ، ولكن الشرقي كان من اروع الامثال لصحة الاحكام ونقاوة الضمير ، ونزاهة الحكم .

وكان من اصدقائه الاوفياء الذين احبوه واصفوا له الود : حميد خان ، وعبد الله القصاب ، والحاج عباس الرحيم ، والشيخ خيون آل عبيد ، والدكتور ضياء جعفر ، والحاج مصطفى الصراف ، والمحامي سلمان بيات ، والشاعر الحاج عبد الحسين الازري ، والحاج رايح العطية ورشدي الجلبي والمحامي عبود الشالجي وقد ظلوا اوفياء له حتى فرق بينه وبينهم الموت . ولست ادري ايحق لي ان احشر نفسي بين هؤلاء وانعتها بالوفاء .

وكان له اصدقاء آخرون كادوا يكونون كأولئك المتقدمين لو لم تفرق بينه وبينهم السياسة فانتهى الامر بهم الى العداء والكره بعد ان قامت صداقتهم على ارسخ ما تكون الصداقة ومن هؤلاء كان صالح جبر وكان سعد صالح ، وكان السيد عبد المهدي المنتفكي ، والسيد سعيد كمال الدين الذي آلت به الخصومة الى نظم طائفة من الهجاء الملوّن في الشيخ علي الشرقي مما لم ينشر في الصحف .

والشرقي عف اللسان وهو مؤدب فيما يقول وما يكتب وما ينظم وقد تعلمت منه مخاطبة من هو في عمري واكبر مني سناً ومن اريد احترامه بيا سيدي في الكلام وفي الكتابة ، وهي في لسانه كلمة حلوة عذبة تشعرك

بانه لا يقصد التواضع حين يخاطبك (بيا سيدي) ، وانما يقصد به احترامك واجلالك لا غير ...

ولقد تناوله مرة الخطيب الشيخ محمد علي اليعقوبي فنال منه في جريدة النجف ولست اذكر ما قاله اليعقوبي في الشرقي وماكانت دواعي القضية ، ولكن الذي يغلب على ظني ان الموضوع لم يكن خارجاً عن حدود جرأة الشرقي في انتقاد بعض رجال الدين الذين كثيراً ما كان الشرقي ينعتهم بالاجربة المنفوخة كقوله مثلاً :

في رمال التأريخ آثارُ اقدام رفاقٍ تخطّتِ التاريخا
نفختْ في الجراب دهراً وولّت فورثنا جرابَها المنفوخا
واذا بي ما بين أجربةٍ تمشي على الارضِ سادةً وشيوخا

الامر الذي دعا اليعقوبي ان ينال من الشرقي في هجائه ، فرد الشرقي على اليعقوبي بهذه الرباعية التي لا تعني اليعقوبي بمقدار ما تعني الاخلاق العامة وتعني الناس جميعاً فذهبت هذه الرباعية مثلاً :

يا راميَ الشجر العالي بأكرتِه هلاّ تعلمتَ اخلاقاً من الشجرِ
ترميه بالحجر القاسي لترجمه وانه دائماً يرميك بالثمرِ
قُدّستَ من بشر لو لا مجاملة لقلتُ في حقه قُدّست من بقرِ
قل للجئآذر : ظلماً انت من بقر ان ينسبوك ، وهذا الوحش من بشر

ولقد حضرت مرة مأتماً للحسين عليه السلام في بيت العالم الشيخ محمد رضا فرج الله وكان خطيب المجلس من تلاميذ اليعقوبي وجرّه موضوع الخطبة الى الاخلاق فاستشهد بعدد من الامثال والابيات ومنها الرباعية المذكورة للشرقي وحين انتهى من خطبته باركتُ له وقلتُ على سبيلِ المداعبة ، لقد كان عليك ان تستأذن استاذك اليعقوبي في ضربك المثل بهذه الرباعية لان هذه الرباعية تخصه بالذات وربما كان من الراجح عنده إغفالها جرياً على

قاعدة (عفا الله عما سلف) فضحك المجلس واستعاد البعض ذكرى الواقعة .

ولم يكن اليعقوبي وحده من تصدى للشرقي ونال منه بسبب اندفاعه في نقد العادات والاخلاق ورجال الدين والمتشدقين بالاصلاح ، فلقد هاجت بعض الرباعيات الخاصة جماعة خاصة وألّبتهم عليه بالسباب والشتم والنقد اللاذع ، وكان من رباعيات الشرقي التي هاجت البعض هذه الرباعية :

تحلل ايها الحاطب   من حبل ومن فاس
وخذ عن حطب الغابات   حزمات من الناس
تلفّ الهينَ اللينَ   باليابس والقاسي
فمن حبرٍ لحاخامٍ   ومن قسٍ لشمّاس

والرباعيات التي عج بها البرمون الساخطون كثيرة فسكت الشرقي بعض الوقت وتلقى الحملات كعادته بالحلم والاناة ثم خرج بطائفة من الرباعيات كردود عامة لما أخذ عليه ومن هذه الردود كانت هذه الرباعية التي حفظها الكثير من المصلحين والادباء في حينها واتخذوا منها شواهد حين يجابهون بالنقمة عليهم ، يقول الشرقي :

ذممتُ التعصبَ من قبل ذا   وها انا في ذمّهِ لاهجُ
دعونا نوسع آفاقنا   ليقبلنَا المزجُ والمازجُ
اقول وقد سألتني الرفاق   أأنت على وضعنا خارج ؟
أبى الثمرُ الفجّ عن جذعه   فصالا وينفصل الناضج

ومثل هذه الرباعية رباعية اخرى نشرها كرد على الذين أسمعوه الكثير من القذع والشتم بسبب شعره المحفز والمستنهض للاصلاح فقال الشرقي :

ان قومي شعارُها النقدُ لكن   أنا قد جئتُ ناقداً للشعار
انتم تقرعون في خشب الباب   ولكنْ قرعي على المسمار
واذا البحرُ جفّ تبدو لئاليه   فان متُّ تعرفوا آثاري
قل لقوم شمّوا قتار شواء   إشتبهتمْ بريح كيّ حمار

ونشرت له جريدة النجف وهي الجريدة التي كان يصدرها يوسف رجيب في النجف الشيء الكثير من الشعر الذي ملاءه بالنقد للتقاليد والزراية بالحكومة وما تنتهج من سياسة مستهجنة ، ويوسف رجيب نفسه كان من الشبان الوطنين الجريئين ، والشرقي وان كان قد سكت عن التعرض للتقاليد والاعلان عن عدم ايمانه بالنهج الذي يسير عليه رجال الدين بسبب تعيينه قاضياً شرعياً يتنافى عمله الشرعي مع آرائه وافكاره فانه ظل على نهجه في شجب السياسة والسياسيين الذين أساؤوا للبلد وخربوه ومن هذا الشعر يتألف ديوان كبير لو تصدى جامع لجمعه ، واعتقد ان الشرقي ممن لم يضع شيء من شعره ، ولكنه اضطرَ لان يعزل طائفة من شعره السياسي حين تصدى لطبع (عواطف وعواصف) الذي قال عنه انه (ديوان لعلي الشرقي) لكي يبقى الباب مفتوحاً لنشر ديوان آخر حين يجد الوقت مناسباً وذلك لما كان يتضمنه شعره السياسي من قوارص الكلم التي قد لا تتناسب مع الوقت ، وقد لقي شعره السياسيَ حتى من الذين نقموا على جرأته في جرح رجال الدين اقبالا كبيراً ربما اعتبره البعض خير كفارة عن ذنوبه ، وهو شعر طافح بالاحساس اكتنزته الصدور وحفظه الحفاظ في اذهانهم وأطّروه باطار من الاعجاب بالشاعرية والفكرة اكثر مما عملت الصحف والمجلات ، ومن هذا الشعر قوله

يا رب يشمُلُ كل	الورى واني صاح
ان يَفسُد الناس طرا	فهل يفيد صلاحي ؟
بغداد غنّت ولكن	عراقها في نياح
وكيف عاصمة تبتنى	بهدم النواحــي ؟

ونظير هذه الرباعية قصائد ورباعيات كثيرة اترك للباحثين ولمؤرخي الشرقي المجال ليشبعوها درسا فليست هذه الكلمة الاخاطرة مما احتفظت به الذكرى وكيفية معرفتي للشرقي .

ومما لهج به الناس من شعر الشرقي السياسي قوله :

ايتها العيرُ أرى يوسفا ومصرَه من عندكم مستريبْ
ستلسع استقلالنا عصبةُ قد ملأت كلَّ الزوايا دبيبْ
انا تقارعنا واوراقنا لا بد ان تسحب عما قريب
نصيب هذا القطر (للمومةُ) على الكراسي لعبت يانصيب

ومن اشهر شعره السياسي الذي لم يزل يتردد على الافواه على سبيل المثل قوله :

هذي الرؤوسُ ولكن كلها وجعٌ وذي العيونُ ولكن كلها رمدُ
كم من صدور بهذا الجيل فارغة جوفاء ليس بها قلبٌ ولا كبدُ
اصنام اندية في شحمها انتفخت شوهاء بوهاء لا هرٌّ ولا اسدُ
من الشراك قد اختارت لامتنا هذي السياسة ثوباً كله عقد

* * *

والى جانب ما وجه للشرقي من نقد لنقده المجتمع فقد لقي شعره من اهتمام كبار الشعراء شيئاً كثيراً حتى لقد باراه كبار الشعراء واتخذوا منه امثلة في حياته ولم يزل حتى اليوم موضع استشهاد في شعرهم بعد مماته ، ولقد بارى الشاعر محمد مهدي الجواهري قصيدتيه في وصف (الغراف ونهر الغراف) المشهورة التي يقول فيها الشرقي :

زهوُ القصور ونزهةُ الارياف غرفٌ مطلاتٌ على الغراف
تلقى الحضارة والبداوةَ عندها بازاء فرعٍ او بجنب طراف
نهضت على حمراءَ دجلةَ زانها صافي الأديم على الأديم الصافي
معمورةُ الأطراف كم من ليلةٍ بجوارها معمورة الأطراف
يا ماءُ اهلُك مجحفون فانَ تطفْ طهرْ قلوبهم من الأجحاف
في ذمة الأشراف ضيعةُ امةٍ لم تدر غيرَ عبادةِ الأشراف ..الخ

وقد عارضا الجواهري بقصيدة رائعة جاء فيها :

نسجَ الربيع لها الرداءَ الضافي وهمتْ بها كفَّ الحيا الوكاف

فضّت بها عذراء كل سحابةٍ خطرتْ فنبّهت الهزار الغافي
الروضة الغناء مفرش لذتيّ حيث الخيال مطرز الأفواف .الخ

وبارى كثير من الشعراء قصائده ونسجوا على منوالها واستشهدوا بابياته وجالت بعض امثلته ومنها هذا البيت :

بـلدي رؤوسٌ كلهـا أرأيتَ مزرعـة البصل ؟

لقد جالت في هذه الأيام امثلته في ربوع فرنسا واميركا بين الشاعر جورج صيدح والشاعر نبيه سلامة وكان صيدح قد هاجته محنة فلسطين وأقضت مضجعه فنظم في هذه المحنة قصائد اذاب فيها كبده وكان منها هذه المقطوعة التي تضمنت بيت الشيخ علي الشرقي (مزرعة البصل) التي يقول فيها جورج صيدح :

مزرعة البصل

ان الكـلام بـلا عمـلْ احـلى مذاقـاً مـن عسلْ
قـولٌ قـديمٌ سار في اسمـاعنـا سيرَ المثـلْ
اخذتْ به دول العروبـة دون مختلـف الـدولْ
فاستكملـت عـدد الكتابة والخطـابةِ والجـدل
حتى اذا حُمَّ الكفـاحُ نبا السلاحُ المُبتـذلْ
وتكسّرت فـوقَ الصخور قرونُ اكبـاش الـدجلْ
لم يبق من حُمم البيـان سوى الدخـان على المُقَلْ
وكرامةٍ اشلاؤهـا درجتْ يكفّنهـا الخجـلْ
امـا البطولة .. فهي في افواهنـا .. لمـا تزلْ
« قـومي رؤوس كلهـا أرأيت مزرعـة البصـلْ »

ويقرأ الشاعر نبيه سلامة بسان باولو (البرازيل) مقطوعة صيدح ويأخذ عليه غضبته وتفجعه ويجيبه بهذه المقطوعة :

يـامن أراش بلا كلل لومـاً أحدَّ مـن الاسلْ
أبليت في قتل القتيـل وما اكترثتَ بمـن قتلْ

انا نحاربُ دُميةً صغرى وحشوتها دولْ
فارجعْ الى طروادةٍ لترى لنكبتنا مثلْ
قومٌ كقطعان الذئابِ أتوا بجلباب الحملْ
حذقوا الخديعةَ في الحروب فاوقعونا بالحيلْ
ومشوا على المجدِ الجريحَ وأشرعوا علمَ الخجلْ
فتعال نحتضنِ الطعينَ ونسقِه جُرعَ الأملْ
ونبثَّ في ايمانه فلربما نُقل الجبلْ
اوليس يكفي صلبه لنُعلّه صاباً وخلْ

ولم تنته (مزرعة البصل) عند هذا الحد بل يرد صيدح من باريس على سلامة بالبرازيل ويقول :

سأل الغريقُ ولم تسلْ اين الطريقُ الى الأملْ ؟
عللّته ووكلته لقضاءِ ربّكَ فاتكلْ
ان الغريقَ أبى السباحةَ هالك مهما ابتهلْ
ما مُدّت الأيدي اليه كأنها تخشى البللْ
اما اللسانات الطوالُ فحبلها فيه اتصلْ
هبّت الى طعن الهواء بسيف (كيخوت) البطلْ
فجنتْ على روح الشهيد ولم تقاتلْ من قتلْ
إن كنتَ ترضاها سلاحاً للدفاع عن القبلْ
عن ارضنا عن عرضنا عن اهلنا في المعتقلْ
ان كنتَ تهوى ان تخدّرنا جمالات الجمل
فتلوم من هزّ النيامَ وجزّ اعناقَ الخبل
من ثار في وجه الجبانةِ والخيانةِ والدجل
وأحسَّ في دمِه الدم المهدور كالنّار اشتعل
فاهاب بالأقوام والأرحام : هبوا للعمل
ان كنتَ تعذرُ في القيادات الغباوةَ والخطلْ

اوكنتَ في الجلّى تفلسف راضيـاً عما حصل
فليحيَ روّادُ الهزيمـةِ وليعش رسل الفشل
« قومي رؤوس كلهم أرأيتَ مزرعةَ البصل »

رحم الله الشرقي فكم من مرة تحولت امثلته قصائد واغاني واناشيد طافت العالم العربي وتجاوزت حدوده ولم تزل تطوف وستظل على هذا المنوال تطوف لأن شعر الشرقي نابض بالحياة ، معبر عن الواقع الجميل الذي لا يحسن التعبير عنه الا العباقرة .

* * *

وقد عبر الشرقي في كل شعره عن المدى البعيد للحرية الفكرية وصلاح المجتمع في صياغة اختص بها وحده وفي جزالة وايجاز عجيب بحيث قل الذين يستطيعون ان يحمّلوا الالفاظ من المعاني كما كان يحمّلها ، وان ايجازه وقد اخذ جانباً كبيراً منه من الفارسية فيما قرأ لسعدي ، وحافظ ، والمثنوي والخيام هو احد ملكاته التي قلّ من يستطيع مجاراته فيه ، ويظهر هذا الايجاز والجزالة واضحاً في شعره ونثره ، وكلامه ، ولقد طغت هذه الظواهر الادبية على جميع آثاره حتى مقالاته التاريخية فهو المؤرخ الوحيد الذي يمشي في تاريخه مشيته في ادبه فيأتي بالمقالة التاريخية قطعاً أدبية رائعة فيها كل الوان البراعة من الجزالة والانسجام والايجاز ، وكان كتاب (الاحلام) الذي اصدره قبل وفاته ببضعة شهور خير دليل على مقدرته الرائعة في جمع الادب والتاريخ في صعيد واحد .

ومن ألوان ايجازه النثرية مجموعة من رسائله التي كتبها لي ومن بينها رسالة تعزية لي بابني (هاتف) وهي تحوي من المعاني اكثر بكثير مما تستوعب مقالة ذات طول وعرض ، اذ يقول :

وهب الدهر نفيساً واسترد ربما جاد بخيل وحسد

سيدي الاخ المحترم

ان من اوجع ما يخطه القلم هو تعزية شجرة بثمرتها ، او سراج بضوئه

ومن افجع به يفوه به البليغ تضميد قلب من والد حنون جرح بفقد الولد الغالي ، ولكن حياتك النافعة ، والبقيا عليها أثمن ، وأغلى .

كن المعزّى لا المعزّى به ان كان لا بد من الواحد

وارجو ان يبارك الله لك في اولاد واحفاد أبقى وامتع .

علي الشرقي

* * *

وعلى انه من الصعب ان يكون احد صديقاً لشخصين متنافرين متباعدين فاني استطعت لمدة طويلة ان ارتاد مجلس آل الشبيبي ومجلس الشرقي واحتفظ بولائي ومحبتي لكليهما واعرف اموراً من هذه المكارهة او ما قد سببته المكارهة لا اظن من اللائق ايرادها هنا ، كذلك احتفظت بصداقتي للشرقي وللسيد سعد صالح والسيد سعيد كمال الدين مدة طويلة حين انقطعت علاقة الصديقين الاخيرين بالشرقي .

وكلما خطوت في العمر اكثر اقتربت من الشرقي اكثر وشدني اليه ادبه العالي ، وشعره المبتكر ،وحلاوة حديثه ، وحين اصدرت انا جريدة الهاتف في النجف اتخذ منها الشرقي منبراً لشعره بعد ان كانت مجلة العرفان ومجلة لغة العرب ، وجريدة النجف ومجلة الاعتدال اهم دواوين شعره ونثره ، وقد ضم (الهاتف) بين دفتيه جانباً جد كبير من شعره وعلى الاخص شعره الحديث ، وحين انتقل الهاتف الى بغداد كان ذلك ادعى لمواصلته قول الشعر ونشره فقد لازمته في كثير من الايام بالاضافة الى ايام (القبول) التي كان يقعد فيها للناس كل اسبوع مرة فيمتلىء ديوانه بطبقات من خيرة المثقفين اللامعين وتتحول جميع الاحاديث الى مواضيع اجتماعية تاريخية مسبوكة في قوالب سياسية حينا وفي قوالب شعرية اخرى كثيرا ما كانت تهيج الخواطر الشعرية وتبعث اللذة في النفوس ، وكثيراً ما كان يستمد منها هو خواطره الشعرية حين تهيج القريحة فيدفع بها قصائد ورباعيات الى الهاتف

هي بنت ليلة او ساعات ، وانا اعرف غالباً دواعي نفثاته الشعرية واسباب نظمه القصيدة فانشر له شعره مصحوباً بمقدمة يستنير بها القارىء في معرفة دواعي نظمه ، وعلى رغم تواضعه وسمو خلقه فقد كان لا يخفي علي سروره بعض الاحيان عن تصرفاتي وانا اقدمه للقراء مشيرا الى نقاط معينة ، ومن ذلك ما اتخذت من حيطة في اخفاء اسمه حين نشر مقاله الذي رد فيه على كتاب فريق المزهر (الحقائق الناصعة) فقد نشرت له المقال في كتابي (على هامش الثورة العراقية) واحدثت فيه من تغيير في الضمائر ، والكلمات التي من شأنها ابعاد اسم الشرقي عن ذهن القراء ، وكان الشرقي حريصاً على ذلك ونسبت المقال لمجهول من الخبراء الفضلاء من اهل الشطرة وخفي الامر على القراء جميعاً ولاول مرة اميط اللثام عن ذلك هنا .

ويقع الشرقي بعض الاحيان في السهو من حيث اللغة والصرف والنحو والاملاء فاشير له بذلك وعلى رغم ان اشارتي لذلك السهو ليست بذات اهمية فان الشرقي كان يبالغ باهميتها ولا يمتنع ان يشير اليها في بعض المناسبات كما يبالغ في اثر جريدة الهاتف على نفسه ، فلقد صدر له (ديوان عواطف وعواصف) وصدر له كتاب باسم (الاحلام) وكتاب باسم (العرب والعروبة) وقد زين صدر كل كتاب مما اهداه لي بكلمة عبر فيها عن تلك المغالاة في تقديري .

ومما جاء في اهدائه لي ديوان (عواطف وعواصف) قوله :

الى الهاتف الاغر ، او الى تلك السماء التي اوحت الكثير من هذا الديوان الذي ارفعه وانا مردد قول الشاعر :

كالبحر يمطره السحاب وماله ... منّ عليه لانه من مائه

مع تحيات الناظم المخلص ... علي الشرقي

ومما اورد في صدر (الاحلام) متفضلاً به علي قوله :

« استاذي المحترم السيد جعفر الخليلي ، هذه ذكراي عندك وفي طيها

اعتراف بفضلك وتثمين لادبك » علي الشرقي

اما العرب والعروبة فقد جاء في تقديمه ما يلي :

سيدي الاستاذ المبدع المجدد السيد جعفر (خليلي)

هذه وريقات تسلية عساها تسد وقتاً من فراغك ودم للمخلص »

علي الشرقي

ورأيه الادبي عني قد تجلى في المقدمة التي وضعها لكتابي (عندما كنت قاضياً) ولمجموعتي الشعرية التي قامت الجامعة اللبنانية بطبعها ببيروت تحت اشراف الدكتور محمد محمدي ، ولمبالغته في تثمين ملكاتي الادبية ، أقرأني ديوانه ، وكتابَ الاحلام ، وكتابَ العرب والعروبة قبل تمثيلها للطبع ، والشرقي على عظمته الادبية ونبوغه الشعري لهو من الخلق بحيث يمكنك بان تقول في حضرته كل شيء أصبت ام اخطأت ، ولقد قلت له وانا اتصفح (الاحلام) قلت له :

ان نبوغ الاديب في احد فنون الادب كالشعر او النثر لا يستلزم ان يكون نابغاً في فن التأليف فقد يعرض عليك البزاز اجود انواع الاقمشة ولكنه لا يستطيع ان يَخيط لك منها بذلة بيده ، وقد آمن الشرقي بهذا وقال انه اذا وُجد شيء جدير بالقراءة في (الاحلام) فلا يستلزم ان تكون حلقاته جيدة الحبك .

وكان من التواضع ان يقول عن الاحلام ، (اذا وجد شيء مقرؤ فيه) فالحقيقة ان في كتاب الاحلام من الصور الادبية الرائعة ما لا تقل روعتها عن شعره الآخذ بمجامع القلوب ، ذلك لان الشرقي من الادباء الافذاذ الذين قل من يجاريهم في صوغ الفكرة شعرا ونثرا وكلاماً .

* * *

القى مرة الشيخ محمد رضا الشبيبي محاضرة قيمة في القاهرة عن الشعر

العراقي الحديث وشعرائه وقد اورد عدداً من اسماء الشعراء لا على سبيل الحصر وانما على سبيل المثل ولم يتطرق الى ذكر الشيخ علي الشرقي والحاج عبد الحسين الازري ، وبالنظر لكثرة عدد ما اورد من اسماء الشعراء فقد تبادر الى الذهن انه كان يريد بذلك الحصر لا المثل ، وبالنظر لما كان بينه وبين الشرقي والازري من فتور فقد ظُن ان الشبيبي قد تجاهلهما متعمداً ، فاعترض الشبيبيّ البعض وكان منهم ابراهيم الوائلي الذي نشر اعتراضه هذا في مجلة الرسالة للزيات على ما أذكر .

وضمني في تلك الايام مجلس (بدار الهاتف) مع الشرقي والازري وجاء ذكر محاضرة الشبيبي واقسم ان الشرقي لم يقل شيئاً ، اما الازري فقد كان غاضباً وعبثاً رحت اوكد ان ما اورده الشبيبي من اسماء الشعراء وان كان كبيراً فانه لم يكن على سبيل الحصر وهذا ما كنت اعتقده انا ، فقال الازري ان لي عندك حاجة .

قلت ــ وانا في الخدمة ....

قال ــ ان تنقل هذه الحكاية على لساني للشيخ الشبيبي وتقول له : ان الازري قد حملّني هذه الامانة .

قلت ــ ولكنني محروم من زيارة الشبيبي منذ زمن .

قال ــ اذن فاسمع الحكاية على سبيل الظرف والتندر وقال :

اعتاد السيد عبد الرحمن الكيلاني النقيب رئيس الوزراء السابق ان يولم في كل ليلة من ليالي رمضان وليمة افطار يدعو اليها وجوه البلد واعيانه ، وكان الحاج حسين الصراف من اصدقاء النقيب فناط النقيب به دعوة وجوه مدينة الكاظمين بصفته كاظمياً يعرف من يجب ان يدعى الى مائدة النقيب ، وفي يوم الدعوة المعيّن دعا الحاج حسين عدداً ممن هبّ ودبّ من البقال المجاور لبيته ، والاسكافي الذي يصلح حذاءه عنده ، وبائع الطرشي في محلته والّف منهم رهطاً سعى الى ان يخرجه في لباس نظيف و (كشائد) متقنة

واحذية لماعة وساربه الى بيت النقيب وجلس هو في صدر المجلس وجلس الاخرون تحت يده ، حتى اذا تم تناول الافطار ودّعهم النقيب بالرحاب كما استقبلهم وبقي الحاج حسين الصراف هناك .

وسأل النقيب الحاج حسين كيف لم يحضر احد من آل الشيخ ياسين ، اوآل الصدر ، او آل عطيفة ، اوآل الحلي او آل الحيدري او آل الاسترابادي ولِمَ لم أعرف احداً من هؤلاء الذين دعوتهم ؟

قال الحاج حسين : – ياسيدي النقيب ان الذي كان يجلس هنا كان خبازاً والذي كان هناك كان (كبابياً) ، والذي . . الخ

قال النقيب – ولم فعلت هذا ؟

قال – لقد اتيتك بجمع استطيع معه ان اتصدّر انا المجلس ، ولو اردت ان اجيء بمن ذكرتَ لكان مقامي منهم في آخر المجلس . وقال الازري هنا من لي بمن يوصل تعليقي هذا للشبيبي على عدم ذكره لنا وذكره تلك الطبقة التي اورد اسماءها .

وهنا انتقل الحديث الى ظرف الحاج حسين الصراف فروى الشرقي عنه كثيراً من النوادر .

* * *

والشرقي مرهف الحس رقيق الحاشية : قوي العاطفة تجاه اخوانه وارحامه واولاده ، وكثيراً ما دعته عاطفته الى التفكير في امر بعض محبيه وفيما يهمهم دون علمهم ودون اخبارهم به . ولقد قام مرة بزيارة صديقه السيد عباس شبر والشرقي يومذاك قاض بمحكمة البصرة الشرعية وساءه ان يرى المياه الآسنة تحيط بتلك الحارة وتمر في خندق يمتد على طول الشارع ويحوط بيت السيد عباس شبر ، فاسر الامر في نفسه ودون ان يسأل ودون ان يعرف اهمية هذا الخندق الذي يعود اليه الفضل في حفظ تلك البيوت من الغرق في موسم الامطار وحمله حسه ورقة عواطفه على ان يحمل متصرف

اللواء باصدار امره بدفن ذلك الخندق فدفن الخندق فوراً وفي بحر اسبوعين .

وعلم السيد عباس شبر ان الشرقي انما فعل ما فعل فبتأثير احساسه فضحك ... حتى اذا حان موسم الامطار وتجمعت المياه ولم تجد لها مسرباً تدفقت الى بيوت المحلة وكان بيت السيد عباس شبر من البيوت التي طافت على الماء كما تطوف السفينة وهنا كتب السيد عباس الى الشرقي يقول :

قل لي اذا كانت لديك رسالة فلقد نوت داري على الابحار

* * *

اقول ان الشرقي مرهف الحس رقيق الحاشية قوي العاطفة ، وهو تجاه اولاده لا يستطيع ان يمسك نفسه لشدة ذوبانه فيهم فلا يطيق ان يرى احدهم غاضباً او شاكياً او غير مسرور ، وحين رزقه الله بابنته السيدة فاطمة كاد ان يطير من الفرح وحار بماذا ينعتها من الاوصاف واسماء الدلال وكان يناديها (برعمسيس) ولست ادري ما علاقة رعمسيس بها وكان كل شيء لفاطمة جائزاً وهي صغيرة تدب في البيت فتلمؤه مرحا وصخباً اذ ليس هناك من يشكو ويعترض .

وفي سنة ١٩٣٩ كان الشرقي يصطاف بسوق الغرب وكنت انا بضهور الشوير وقد دعا الشرقي الشاعر احمد الصافي ليقضي بضعة ايام عنده ، فجاء الصافي وهو في اشد الشوق لرؤية الشرقي وقضاء اطول مدة معه وكان لفاطمة طبل صغير وقد ولعت بالدق عليه طول النهار والصافي لا يتحمل الصخب والضجيج والضوضاء ولكنه قضى يومه ذاك بشيء كثير من العذاب ، وفي اليوم الثاني ابتدأ الدق على الطبل منذ الصباح الباكر فخرج الصافي دون ان يحس به الشرقي من البيت هارباً وجاء الينا بضهور الشوير ، ونزل ضيفاً كريماً علينا ولم يخبرنا بشيء مما جرى ومما كدّر له عيشه .

وكنت قد دعوت الشرقي لقضاء يوم عندنا بضهور الشوير فجاء وألفى الصافي عندنا هناك ، وقد علم ان الذي حمل الصافي على الهروب انما هو رقة

عواطف الشرقي نحو اولاده تلك الرقة التي تمنعه من ان يقول لاطفاله كفى ضربا على الطبل ، وقال الصافي على سبيل الدعابة للشرقي ما مضمونه :

ـ لا شك ان الامر لا يخلو من وجهين فاما ان يكون شعرك الجديد هذا ليس جديداً وانما هو منظوم قبل ولادة فاطمة ، او ان تكونَ قد سرقتَ شعر الناس وانتحلته لنفسك ، والا فأرني واحدا يستطيع ان يعرف طريقه في وسط الضوضاء فضلاً عن ان يعرف طريق نظم الشعر وطبل رعمسيس يملأ الرأس صداعاً .

وحين ولدت للشرقي السيدة امل ، وابنه احسان ، كان الشرقي قد قسم نفسه بين هؤلاء تقسيماً حرمه الله ـ في الكثير من الاحوال ـ النوم والراحة ، والاستقرار بسبب رهافة حسه ورقة عواطفه نحو اولاده ، وان تفانيه لاولاده لم يقتصر على ما يبديه نحوهم من رقة ولطف وعناية وتحمل لجميع الوان الشقاء في سبيلهم ، وانما كان يفاديهم بالزكاة والمبرات والخيرات التي كان يدفعها للفقراء والمعوزين ، فحين ولد ابنه احسان ترك شعر رأسه سنة وسنتين واكثر دون ان يجعل مقص الحلاق يقرب منه حتى تكاثر هذا الشعر في فروة كبيرة بعد عدة سنوات وحينذاك مضى به الى مرقد الامام علي (ع) في النجف وقص له الشعر هناك وعادله بالذهب وزنا ودفع ثمنه للفقراء...

* * *

ولم تنقطع علاقة الشرقي بالنجف كما لم تنقطع علاقاته بالاصدقاء القدامى وكان وهو عضو في مجلس الاعيان ثم وهو وزير كما كان وهو رئيس لمجلس التميز الشرعي او وهو قاض ، او وهو لا شيء من حيث الوظيفة كان يذكر ايام الضنك والضيق بشيء كثير من اللذة ، ولا يمنعه مانع من ان يستعرض تلك الصور امام جميع الناس كما لو كانت من الذكريات العزيزة بل انها لذكريات عزيزة عنده لذلك ما جاء النجف مرة الا وتفقد اصدقاء شبابه ، وايام محنته وجلس عندهم واطال الجلوس .

وجاء ذات يوم الى النجف معزياً آل الجواهري وكان لا بد له من الرجوع الى بغداد مساء جرياً على عادته فهو من دون اهله واولاده لا يستطيب أكلاً ولا شرباً ولا مناماً ولكن عاصفة رملية قد داهمت النجف فاذا بالظلام يغشى المدينة فيتعذر على الناس الخروج من بيوتهم في غير المهمة الضرورية ، اما السفر بين مدينة واخرى فقد تعذّر تماماً ، وانتظر الشرقي ساعة وثانية وثالثة فلم يتحسن الجو ، وحار ماذا يعمل واين ينام فقد كان يشكو يومها ازمة ضيق في جهاز التنفس فقيل له : ليس لك غير غير بيت الخليلي ، فان لديه من السراديب ما يضمن لك مبيت ليلة هادئة مريحة .

وأحسسنا بباب الدار يضرب بالعصا فقد كان الشرقي يحمل عصا حينذاك تكاد لا تفارقه ، وفتحنا الباب فاذا به الشرقي ، وقبل ان نبدي استغرابنا من وجوده قال : اين هو السرداب ؟ ونزلت به الى السرداب (البراني) كما نسميه ، ونحن في الصيف ننقل فرشنا والموبيلات من الغرف الى السراديب ونستقبل في اغلب الاحوال ضيوفنا هناك ثم ننام ليلاً حين لا تكون سطوح المنازل صالحة للنوم كما حدث في مثل هذه الليلة ، وقال الشرقي :

ــ انها ضيافة مبيت لا غير ذلك لانني تناولت عشائي عند آل الجواهري، ثم قال :

ــ لم يخطىء البازي حين قال : « بيت القصيد ــ الخليلي »

وكان يشير الى تاريخ للشيخ علي البازي الذي ارخ بناء بيتي هذا وكانت قد نشرته جريدة الهاتف قبل ايام قليلة ، وهو

ذا بيتُ عزٍّ تسامى عُلاً بمجدٍ أثيلِ
يا قاصدَ البيتِ ارخْ « بيت القصيدَ ــ الخليلي »

وقضى ليلة مريحة على رغم قلقه بسبب عدم امكان اتصاله باهله تلفونياً لتقطع الاسلاك وعطبها .

* * *

وفي سنة ١٩٥٦ كانت النجف تغلي بسبب قضية السويس ، وكانت المدينة قد تمردت على الحكومة وبلغ الغضب والهيجان منها مبلغاً اضاع فهم المقصود ، فقد اختلفت شعارات المتظاهرين وهتافاتهم وطلباتهم من الحكومة ، ومرت ايام اضاعت الحكومة فيها رشدها فلم تدر ماذا الذي يجب ان تعمل ومع من تدخل في المذاكرة ، وفي ذلك اليوم دق جرس التلفون في نحو الساعة الحادية عشرة ليلاً في بيتي ببغداد واذا بالشرقي يطلبني ويقول انه سيرسل لي سيارته لأستقلها الى بيته على وجه السرعة وحين سألته الخبر قال ليس بينك وبين ذلك غير دقائق لتفهم الخبر ، وحين وصلت البيت الفيت عدداً من الشخصيات السياسية وكان منهم عبد الوهاب مرجان وعبد الله القصاب ورشدي الجلبي وقد ضاقت بهم غرفة الضيوف ، فقال الشرقي :

ــ انت تعرف ماذا يجري الان في النجف وتعرف كم هو عزيز علينا ان تسود البلبلة والاضطراب بسبب اختلاف الافكار وقد اتخذت العناصر المتطرفة قضية السويس حجة فلم تترك مجالا للعناصر الوطنية ان تُسمع الحكومة صوتها لتفهمها مطالبها ، وقد اخذ التطرف من القوم مأخذا بحيث صار لكل جماعة رؤساء ، وقد أدى الامر بان اعتدت فئة على فئة أخرى ومنذ ايام والمظاهرات لا تنقطع ...

قلت ــ وبعد ؟

قال ــ لقد رأى الجمع بان يوفد بعض الاشخاص الى النجف فيخولوا حق مواجهة زعماء الحركة والمذاكرة معهم في حصر المطالب التي تجول في أذهانهم ، وقد أخذت الحكومة بهذا الرأي واقترحت ان يكون الوفد مؤلفاً من عبد الهادي الجلبي وعبد الوهاب مرجان وان تكون أنت معهما لتدرسوا هناك وضع النجف وتقوموا بما يترتب عليكم كوسطاء وغير وسطاء .

قلت ــ اما انا فلا اوافق على الذهاب

وهبّ هنا الجمع الحاشد بين مستغرب من موقفي وبين محتج على رفضي ، وطال الجدل وتنوع الاعتراض وقفزت استفهامات في صور مختلفة من شفاههم ، فقلت لهم :

– انا مؤمن كل الايمان بان ايفاد وفد محترم كعبدالهادي الجلبي وعبدالوهاب مرجان امر لا بد منه لتفهّم اغراض هذه الفئات التي تضاربت افكارها وآراؤها ، والسعي من قبل اللجنة لاصلاح الامر واعادة السكينة بالطريقة التي تجمع بين تحقيق الطلبات المعقولة واستتباب الامن ، ولكني انا غير العضوين المحترمين ولن آمن على نفسي من الشتائم والسباب التي ستطلقها الفوغائية المتطرفة العنيفة علي وعلى آبائي وكل أسرتي دون ان استطيع ان اعمل شيئاً ، وانا لم اربح – كما قد تعلمون – من دنياي شيئاً سوى اني لم اجلب لا هل بيتي ولا سرتي ما يشينهم ، فما هو الداعي الذي يدعوني لهذه المغامرة وانا اعلم علم اليقين باني لن استطيع ان اسكّن متحركاً او احرّك ساكناً أرافقت هذا الوفد ام لم ارافقه ، فقال الشرقي :

– ولكن الا تحس ما دمت تؤمن بصحة المبدأ بانك تجافي مبادىء الوطنية ان انت قعدت عن بذل مجهودك في هذا السبيل ؟

قلت – أأنا وحدي الذي يجب ان اصدع بالامر ؟ ولماذا لا تقوم انت بالمهمة ولك من مقامك الادبي وشخصيتك وجاهك ما يضمن لك النجاح ؟

لقد ابتسم الشرقي وقال :

– تكفيني تلك الاهزوجة من الهوسة التي استقبلت بها انا والمرحوم الحاج عبد الحسين الجلبي فان صداها لا يزال ملء اذني ... سواء أكنت انا المقصود بها او الجلبي او كلانا معاً او غيرنا

والاهزوجة التي اشار اليها الشرقي يرجع تاريخها الى سنة ١٩٣٤ او سنة ١٩٣٥ على ما اظن يوم تجمعت بعض قبائل الفرات في النجف وتمردت

على حكومة علي جودة الايوبي في قيادة الشيخ محمد الحسين آل كاشف الغطاء والشيخ عبد الكريم الجزائري ، وكان الحاج عبد الواحد الحاج سكر يمثل اولئك الزعماء المحتجين ، فرأت الحكومة ان توفد الحاج عبد الحسين الجلبي والشيخ علي الشرقي الى النجف لمواجهة الشيخ محمد الحسين كاشف الغطاء ومواجهة زعماء النجف ورؤساء القبائل ، وحين دخلا النجف هزج احدهم (بالهوسة) التي ظل صداها يرن حتى اليوم وهو يخاطب بها الحاج عبد الواحد بتصغير اسمه قائلاً :

(يوحيّد َطبْ ثور الشيعه)

أي لتعلم ايها الشيخ عبد الواحد بان ثور الشيعة قد دخل النجف ، وبذلك دخلت هذه الهوسة التاريخ . وقال الشرقي : أتريد لي اهزوجة اخرى مثل تلك الاهزوجة .

* * *

وحالة الشرقي الصحية دائما لم تكن على ما يرام وقد كانت سبب وعكته في اغلب الاحيان واذا مرض فلا يحجب نفسه عن زائريه وهو على رغم خوفه الشديد من الطوارىء ، والامراض ، ومن كل شيء آخر ، فانه يستطيع ان يتناسى هذا الخوف من الحوادث والطوارىء فيعطيك الرأي الصائب ان جئته مستشيراً ، وكثيراً ما تجد عنده اصوب ما تأمله من الاراء ، فهو رجل متزن ، حصيف الرأي ، عميق التفكير ، ويستطيع كل شخص ان يراه ويسترشد برأيه ويزوره دون اي تكلف وهو عين بمجلس الأعيان ، وهو وزير بمجلس الوزراء ، لا بل انه كثيراً ما يخفي شكواه من حالته الصحية او قلقه الروحي فيدفن همه في نفسه لئلا ينغّض على احد من اهل بيته او زائريه مزاجه ، وقد بثني في السنتين الاخيرتين شيئاً غير قليل من همومه النفسية الخاصة والعامة ، فقد اعتاد ان يشرفني بزيارته في كثير من الاحيان في مكتبي وفي بيتي كما كنت انا أكثر من زيارته في بيته .

وداهم الشرقي في اواخر سنة ١٩٦٣ عارض مفاجيء في طريق الكُلْية دلّ على انه مصاب بالسرطان فسافر الى لندن واجريت له هنالك العملية اللازمة وعاد بعد ثلاثة شهور وهو متمتع بالصحة ، وعاد مجلسه الادبي يضفي الادب والمرح والمتع الروحية على زواره .

وقبل ازماعي السفر الى القاهرة لقضاء شهور الصيف باسبوع وكان في ابهج ساعة من اوقاته فقال لي انه يغبطني على هـذه الزيارة لانه يحب مصر كثيراً وقد حبّبها اليه شوقي وحافظ اكثر .

وفي احدى ليالي شهور تموز وانا في القاهرة حلمت في المنام بان الشرقي قد توفي فاستيقظت من النوم فزعاً وحمدت الله على انه لم يكن الاحلمـا ، ولم يمر اسبوعان او ثلاثة وفي منتصف شهر اغسطوس حتى وقعت عيني على حين بغتة على احدى الصحف العراقية وهي تنعـاه ببضع كلمات كما لو كان شخصاً (عادياً) ، ومرت صور الشرقي تتعاقب صورة بعد صورة امام عيني وانا اضع رأسي على المخدة وقد سال دمعي منها مدراراً ، وقد حدثني بعد ذلك صديق بان الشرقي قد تلقى الموت بشجاعة نادرة فقد حضره صديقه المحامي سلمان بيات في ساعته الاخيرة وكان ساكناً هادئاً ، ثم التفت الى سلمان بيات وقال له :

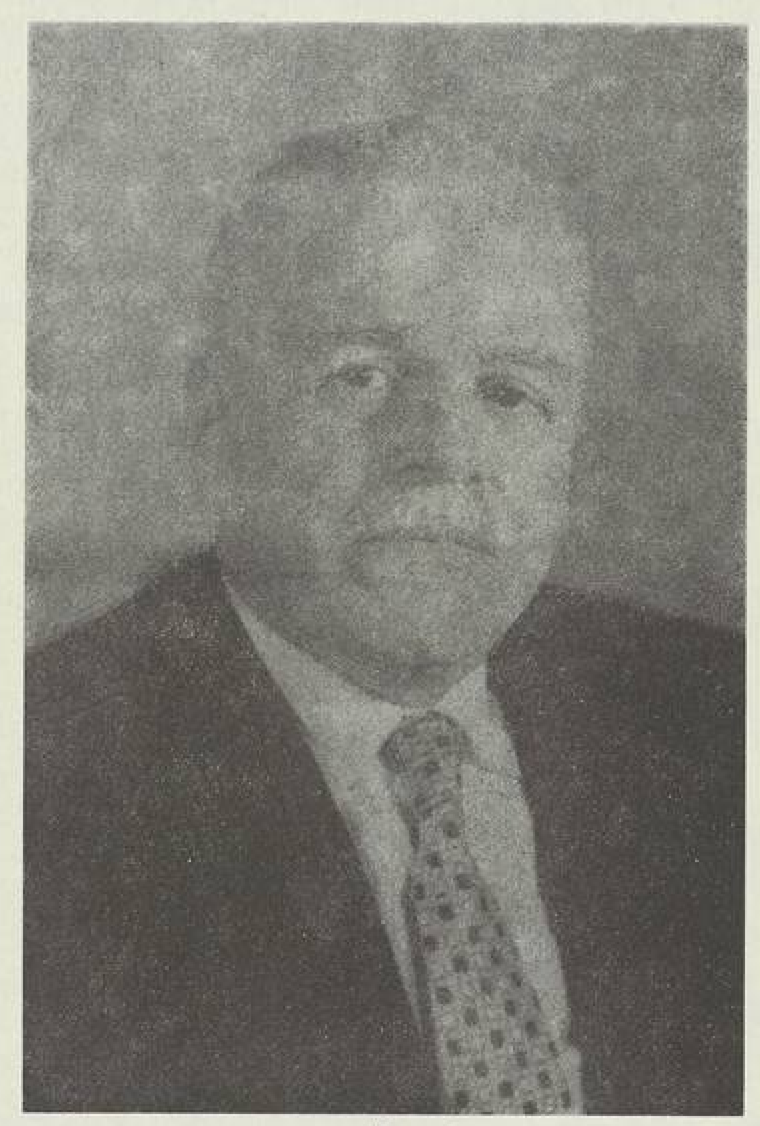
– لم يبق الا نصف ساعة ، نصف ساعة فقط .

ويقول الاستاذ البيات : فلم تمر غـير عشرين دقيقة حتى انطفأ ذلك السراج الوهاج .

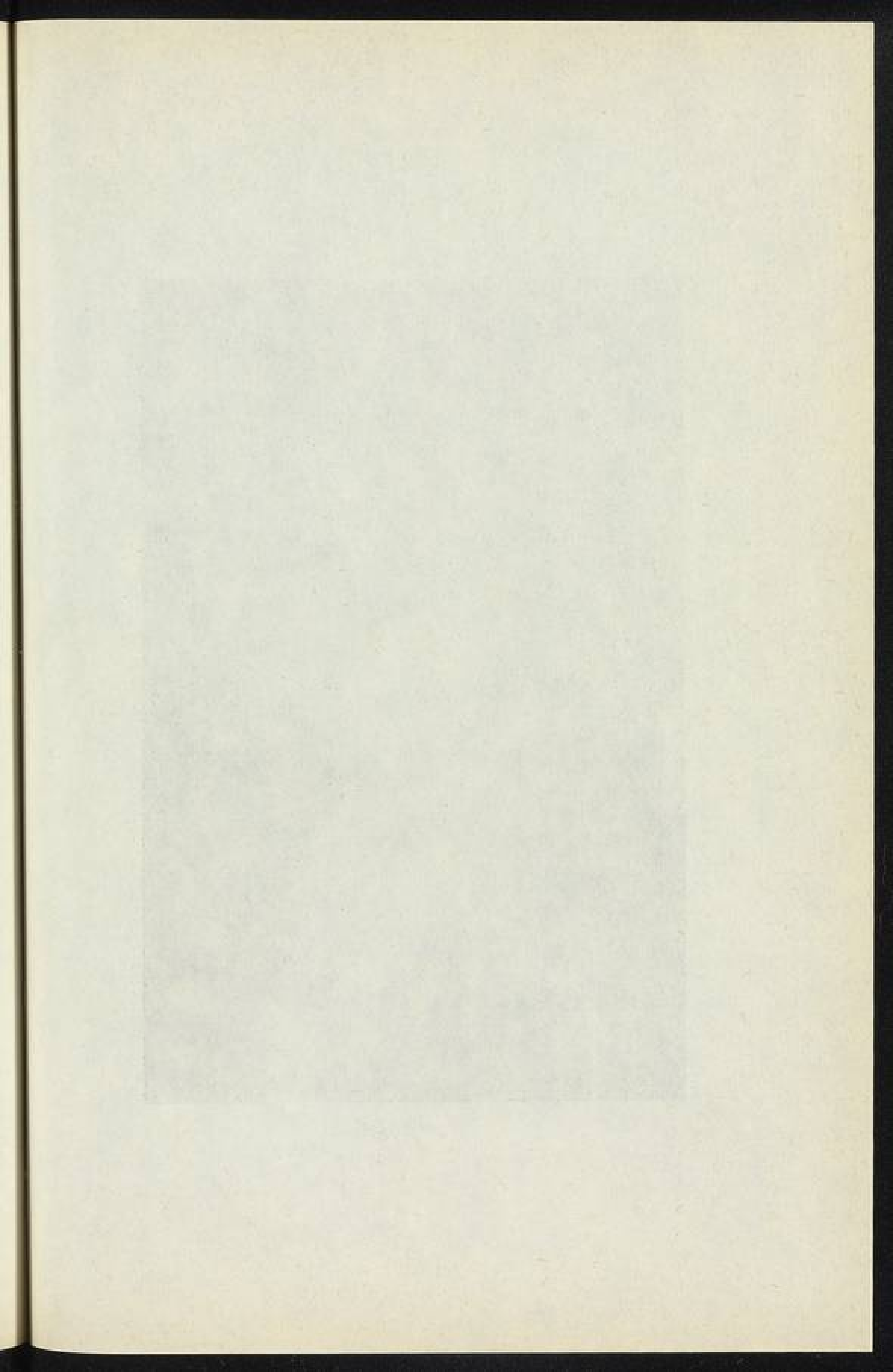
لقد بكيت الشرقي ليالي طويلة لانني لم استطع ابعاد هذه الصور المشرقة عن ذهني ولا اكتم القارىء فقد بكيت من جانب آخر لقد بكيت الاخلاق الضائعة والمقاييس المفقودة بسبب السياسة التي تدع الصحف تبخل بقطرات من الدموع على الشرقي الذي آمن بالعرب وبالعروبة قبل ان يفهم الناس معنى

العرب والعروبة ، والذي دعا الى الاصلاح ، والذي ملاء دنيا الشعر بالتجديد والابتكار .

لقد بكيت الشرقي كثيراً وبكيت الاخلاق الضائعة التي تبخل بان تذرف دمعة على جدث الشرقي وكان اقل الفروض هو أن تقيم له تمثالاً باعتباره اول مجدد في الشعر العراقي الحديث .



امین خالص



كيف عرفت

امـــين خالص

عرفته قبل قيام الحرب الثانية بسنوات قليلة وكان (متصرف لواء) اما هو فيقول انه قد عرفني منذ اول عهدي بالصحافة أي منذ صدور جريدة (الفجر الصادق) يوم كان هو (مدير ناحية)، وكان اول التقائنا هو اول عهد صداقتنا فان لأمين خالص جاذبية مرسومة على وجهه، مسبوكة في سلسلة عباراته، ظاهرة في الامثلة والشواهد من خيار الشعر والنثر والنوادر التي يرصع بها كلامه ويدعم بها حججه اذا ما تناقش في امر، او فكرة، او عمـــل، وهو بعد ذلك على شدة مرحه وظرفه سريع الغضب وجريء وقد رافقته الجرأة من صغره واذا كانت سرعة غضبه او جرأته قد سببت له الندم في كثير من الاحوال وربما باعدت بينه وبين البعض من اخوانه فانها كثيراً ما كانت مبعث رضاه وهدؤ نفسه الثائرة حينما تجيء هذه الجرأة في محلها ....

لقد كان مديراً لناحية الاعظمية وكان هنالك جداول يفتحها الزراع من النهر فتقطع طريق السابلة وتمنع العبور والمرور فاحضر امين خالص (سراكيل) تلك المزارع ومسؤوليهم وحتّم على كل واحد منهم ان يقيم قنطرة على الجدول الذي يخص مزرعته في مواصفات محدودة وعيّن

لانتهاء العمل يوماً قال انه سيجعل من ظهر (السركال) المسؤول من الزراع قنطرة فوق الجدول اذا لم يجده يباشر العمل منذ نهار الغد واذا لم يُتم العمل في الموعد المعين، فانتفض احد السراكيل وقال : ان هذه الارض تخص السيد حكمة سليمان وكـان حكمة سليمان يومذاك وزيراً للداخلية وهو الآمر الأعلى للموظفين الاداريين

وهنا غضب امين خالص وقال للسركال لقد قلت لك واقولها للمرة الثانية :

انني ساجعل من ظهر اي سركال يتوانى عن العمل قنطرة ادع الناس يمرون عليها بمواشيهم غادين رائحين ... اذا لم يتم العمل في الموعد المعين ، ومعنى ذلك انه قد تحدى وزير الداخلية وهو أصغر موظف يومذاك في وزارة الداخلية .

وفي الصباح الباكر من اليوم الثـاني وقفت سيارة حكمة سليمان وزير الداخلية عند خطوط تلك الجداول وقد طلب حضور مدير الناحية وقال له حكمة :

ــ أأنت القائل بأنك ستجعل من ظهر (سركالي) هذه قنطرة يعبر عليها المارة بمواشيهم اذا امتنع من ان يقيم قنطرة على هذا الجدول ؟

واحمرّ وجه امين وكان هذا الاحمرار نذير الانفجار وقلما رأيت شخصاً يصطبغ وجهه بالحمرة القانية عند الغضب كما يصطبغ وجه امين اذا ما غضب وقال :

ــ نعم انا الذي قلت ذلك ...

قال وزير الداخلية : ــ أرني كيف تجعل ظهر (سركالي) قنطرة

قال امين ــ لقد ضربت لهؤلاء (السراكيل) موعداً فاذا ما حان الموعد ولم يقم القنطرة على هـــذا الجدول فسأقيم هنالك من ظهره قنطرة اذا لم تحضرها انت وتراها بعينك فسيأتيك خبرها ...!!

وحكمة سليمان هو الآخر غضوب لكنه سكت ورجع من حيث اتى وبعد ايام اقام سركاله القنطرة المطلوبة وكانت غضبة امين خالص مفتاحاً لصلات ما لبثت ان قويت بين حكمة سليمان وامين خالص حتى فرق بينهما الموت .

وافاد أمين من جرأته هذه الشيء الكثير في اعماله الادارية حتى صارت وزارة الداخلية تعهد اليه اصعب الوية العراق ادارة في اصعب واحرج الاوقات لذلك فهو الاداري الوحيد الذي يكاد يكون قد عمل متصرفاً في جميع الوية العراق من شماله الى جنوبه كما عمل مديراً للداخلية العام والى جانب جرأته في امور الناس وادارة اللواء ومناقشة وزارة الداخلية ووزارة المالية - اللتين كثيراً ما كان يحرجهما بهذه المناقشة حين يختلف معهما فيما يرى من وجوه حل القضايا - كان يعتمد شيئاً آخر في بناء شخصيته الادارية والاجتماعية الا وهو الملكة الأدبية والظرف والمرح الذي كان يفرض احترامه على جميع من يعرفه عن قرب وعن بعد فلقد كان غنياً جداً بما يختزن من ذخائر الشعر والنثر والامثال والفكاهة والحكايات ، وان مزاجاً كهذا لا يستقر ولا يهدأ دون ان يجمع حوله ما يتجانس معه روحاً وفكراً وادباً لذلك ما دخل لواء من الوية العراق الا وكانت له بكل اديب وشاعر وظريف علاقة مودة وصحبة فكانت هذه وسائل اخرى تساعده على معرفة النواقص فبادر الى معالجتها وكان مجلسه من المجالس النادرة التي يختلف روادها من حيث السن والفكرة والهدف ولكن الأدب كان يطغى عليه لكثرة من يرتاد هذا المجلس من المتفكهين والمتندرين والشعراء والادباء فتجيء النكت في مجلسه عفو الخاطر ويجيء الشعر على سجيته وترد الأمثال على طبيعتها وكثيراً ما انبعثت هذه النكت والاشعار والامثال من بيته وتلقتها الألسن وشاعت عن طريقه بين الناس .

كان حسين الصراف مرة يحدث امين خالص في ديوانه عن حمار قال عنه انه جاء به صاحبه الى الميدان فتقدم اليه رجل ليفحص اسنانه فصاح صاحبه بالرجل :

– حذارِ فانه حمار عضّاض وانا اخشى عليك من اسنانه !!!

وحين تقدم الرجل ليفحص حافري قدميه صاح به :

– تمهّل فهورفاس ركّال لا احسبك ناجياً منه اذا تقربت من رجليه ..!!

وحين اراد ان يمتطيه ليرى جريه صاح به صاحبه :

– انك لن تستطيع ان تعلو ظهره فما من احد فعل ذلك الا والقى به الحمار من على ظهره محطماً ، مكسور الذراعين والرجلين ..!!

قال الرجل – ولم اذن جئت به الى ميدان الحمير وعرضته للبيع ؟

قال – اني لم اجيء به لأبيعه وانما جئت به ليرى الناس ماذا اعاني انا من هذا الحمار ؟

وفي هذه الاثناء دخل المجلس السيد جعفر عطيفة فقال حسن الصراف :

– لقد والله كنا مشغولين بذكرك في هذه الساعة يا سيدي ... فضحك من في المجلس وقامت لضحكهم ضجة استدعت وجوم السيد جعفر عطيفة ولكن امين خالص – وامين خالص في مثل هذه المواضيع لا يجعل للسر حرمة – اسرع وقص عليه القصة فضحك السيد جعفر وقال :

– صحيح ان حسين الصراف مزّاح ماجن ولكن لا احسبني كنت سأغتفر له هذه الجرأة لو كان قد حدث ذلك في مجلس غير مجلسك .

وكان امين خالص شديد الولاء للام علي بن ابي طالب ، كثير التعلق به اكثر من ولاء من يعده رابع الخلفاء واشد من تعلق من يؤمن به خليفة للمسلمين لذلك كان يحفظ الشيء الكثير من خطب الامام واقواله ويكثر من المباهاة به كقدوة عقمت الامهات ان يلدن نظيراً له وقال لي مرة ان لعلي ابن ابي طالب مكاناً آخر في نفسي فله وحده يرجع فضل حياتي هذه والا فقد كنت في عداد الاموات وانا في ريعان الشباب فقد كنت ضابطاً في الحملة العثمانية التي دخلت ايران من طريق خانقين لتصدّ الجيش الروسي الذي

دخل ايران من الشمال وقد لقينا مقاومة من سكان مدينة (كرند) وهم من الغلاة الذين يؤلهون الامام علي بن ابي طالب فرأى قائد الحملة التركية ان يبالغ في التنكيل بهم ليجعلهم عبرة للآخرين اذا ما استطاع ان يتقدم ويتغلغل اكثر في البلاد الايرانية التي كانت حكومتها يومذاك من الضعف بحيث لم تستطع حتى ان تحتج على توغل الجيش العثماني فضلاً عن ان ترده، ونكلت الحملة بسكان (كرند) واستباحت حريمها واحتلت رؤوس الجبال المشرفة على الوادي وكنت انا – يقول امين – في احد هذه الجبال المحتلة وقبل الفجر هجم علينا سكان هذه المدينة المشردين وتسلقوا بعض هذه الجبال وذبحوا حامياتها عن بكرة ابيها وكدت اقع انا في يد واحد من هؤلاء فانتهزتها فرصة والقيت بنفسي عليه صائحاً بأنني : (دخيل علي بن ابي طالب) وكلمة الدخيل مفهومة عند القبائل العربية والفارسية بأنها طلب نجدة واستغاثة وسعى الرجل ان ينحيني عنه بعيداً ليبقر بطني بخنجره فازددت تمسكاً به وصياحاً بأنني (دخيل على علي بن ابي طالب) حتى لقد صاح به من قومه رجل يبدو ان له جاهاً بين قومه لقد صاح به بشيء من الاستنكار قائلاً :

– الا تسمع ايها الكلب ما يقول لك هذا الضابط ؟ ايلوذ بالمولى علي وانت تتجاهله ؟

وحينذاك خلى سبيلي فكنت الوحيد الذي نجا من تلك الحامية في ذلك الجبل الذي نيط بنا الدفاع عنه واعطيت عمراً جديداً بفضل الامام علي .

وكان يحفظ من ارجوزة احمد شوقي عن الامام علي هذه الأبيات ويرددها وقد عرضها ذات مرة على بعض اعضاء جمعية الرابطة الأدبية في النجف فشطروها وخمسوها له ولا يجيء ذكر الامام علي الا وتراه ينشدها وهي :

العُمران يأخذان عنه	والقمران نسختان منه
اصلُ النبي المصطفى وفرعهُ	ودِينُه من بعده وشرعهُ
يا جبلاً تأبى الجبال ما حملْ	ماذا رمتْ عليكَ ربةُ الجملْ ؟
مالكَ والناس أبا ترابِ	ليس الذئابُ لك بالاتراب

وكنت قد نسيت تمسك امين خالص بهذه الأبيات حتى اوردها جورج صيدح في احدى المناسبات فذكرتها وذكرت امينا ، وامين ليس شيعياً ولكنه يعشق علياً ولا يفوّت على نفسه موسماً من مواسم زيارة الامام (ع) الا ويقصده من اي مكان مهما بعد ، قادماً اليه من الموصل ، او البصرة ، او الحلة وينزل في بيت الحاج عبد الرزاق شمسه ولما كانت تشده الى الشيخ محمد الحسين كاشف الغطاء علاقة اعجاب وتجلة فان اول ما يفعل بعد زيارته مرقد الامام والدعاء تحت القبة هو ان يتصل بي تلفونياً ليخبرني بمجيئه فنمضي معاً الى بيت كاشف الغطاء ونقضي وقتاً طيباً متمتعين بمجلس الشيخ وسمو ادبه ونبوغه المعروف او انه كان يفاجئني بزيارته لي في مكتب (جريدة الهاتف) .

وجاء مرة الى الهاتف فألفى باب غرفتي مفتوحاً والفراش والعمال في الجانب المقابل مشغولون في العمل فترك لي هناك ورقة يعرب فيها عن اعجابه بشجاعتي وعدم خوفي من اللصوص بحيث اترك باب غرفتي مفتوحاً على مصراعيه دون حذر ، ثم يعتذر لي عن اضطراره للعودة سريعاً ، وقد كتبت له يومذاك آسفاً لزيارته الخاطفة التي حرمتني من رؤيته وقلت له : اما بشأن شجاعتي وهنا سردت عليه القصة التالية وقلت : دخل رجل سوق النخاسين ليشتري له عبداً وقد اعجبه من بين اولئك العبيد والاماء عبد مفتول الذراعين قوي البنية وآثار النشاط على وجهه ظاهرة ولكن ثمنه الزهيد لم يكن متناسباً مع ما رأى فيه من استعداد ونشاط ، وحين سأل عن سبب زهادة ثمنه قيل له ان فيه عيباً لا يوجد في العبيد الآخرين وهو انه يبول في فراشه ليلاً ...

لقد ضحك الرجل وقال : – اني اشتريه وان وجد فراشاً فليبل عليه راشدا .

وقلت لأمين خالص لقد كان عليك ان ترى محتويات غرفتي ثم تعجب من شجاعتي بعد ذلك فأي شيء كان يستطيع اللص ان يحمل من هذه الغرفة لو دخلها على غفلة من محاسب الجريدة او الفراش او العمال ؟

وتوثقت الصلات بيني وبينه حتى لقد كان يتصل بي تلفونياً من خارج النجف وفي اثناء الحرب بعث لي مرة (بكوبونه) وهو بطاقة حصته من القماش وهو متصرف في الحلة لأشتري به بذلة لي من الحلة حين علم بأن (كوبونات) حصص القماش في النجف قد تأخر توزيعها .

وحين انتقلت الى بغداد زاد اتصالي به خصوصاً حين عهدت اليه رياسة التفتيش الاداري وصار يزورني في مكتب جريدتي في اغلب الايام وقد نشرت له في (الهاتف) خواطر شيقة حلوة عن اهم ما احتفظت به الذاكرة وكان مكتبه في وزارة الداخلية وهو رئيس للتفتيش الاداري قد تحول الى مجلس عام كثيراً ما قصدته انا في اوقات الفراغ واذكر انه يوم تسلم رئاسة التفتيش الاداري مستبدلاً بالرئيس الانكليزي دخل احد الاصدقاء عليه مهنئاً فضحك امين وقال :

– اتدري كم بقي من عدد المفتشين الاداريين الكبير اليوم معي ؟ انه لم يبق منهم غير عبد الرزاق شكارة فكلهم اما مجازون او محالون على التقاعد او اسماء بلا مسميات ففيم اذاً تهنيني ؟ وعلى اي شيء ؟ وهنا سرد علينا القصة التالية :

قال – لقد كان مصطفى الانكورلي قبل ان يلتحق بكلية الحقوق : شيخ دين ، وكان اماماً في احد جوامع الكرخ وكان بالقرب منه امام جامع آخر حسن الصوت ولما جاء رمضان انقلب المصلون كلهم الى ذلك ولم يبق من يصلي خلف مصطفى الانكورلي غير المؤذن (اشكح) وحين اتم الانكورلي الصلاة صعد المنبر وحمد واثنى وصلى على النبي ثم صاح : عباد الله ، (وقبل ان يستمر في خطبته رفع اشكح رأسه) وقال :

– اين هم عباد الله الذين تعنيهم ؟ انه ليس هنا غيري انا ، وانا يكفيني ان تقول لي : (يا اشكح صير خوش آدمي) اي كن يا اشكح رجلاً صالحاً .

وقال امين خالص : وليس هنا في التفتيش غيري وغير عبد الرزاق

شكاره فأية رياسة هي التي جئت تهنيني بها ؟

وكان كثير الدعابة والمزح فاذا مر عليه بائع الصحف والمجلات او صباغ الأحذية او من شابههما وقد عرف انه شيعي توجه اليه بالسؤال التالي قائلاً :

ـ أأنت مسلم ام سنيّ ؟

فيجيب الرجل بكل سذاجة :

ـ انا مسلم ... ! !

ومرة سأل في اثناء قيامه بتفتيش لواء الناصرية مدير ناحية (البو صالح) لقد سأله : ما اذا كانت قبيلة آل عمر اسلاماً ام من السنّة . فقال المدير وقد سبق لسانه ذهنه :

ـ لا بل انهم اسلام

ثم التفت المدير بسرعة واعتذر ولكن امين خالص ظل عدة سنوات يروي عن هذا المدير هذه الرواية ولم يفد معه اعتذار الرجل .

ومر بي ذات مرة بمكتبي وهو في طريقه الى البتاويين لزيارة ابراهيم الواعظ فقلت له بل ستوصلني سيارتك الى بيتي بكرادة مريم ، قبل مواصلتك السير لزيارة الواعظ فقال لي : انت مثل ذلك الذي سأل صاحب السيارة : قل لي اين هو اتجاهك ؟ فقال الى (سلمان باك)

فقال : خذني في طريقك الى (سامراء) رحم الله امك واباك ... قال امين : وانت تعرف كم هو الفرق بين سامراء الواقعة شمالاً وسلمان باك الواقعة جنوباً .

وظل دائماً يروي عني بأني كلفته ذات مرة تكليف ذلك الرجل الذي اراد ان يذهب الى سامراء مستقلاً السيارة المتجهة الى (سلمان باك) .

واخذته ذات يوم وهو شبه مرغم لزيارة صديق لي لم يكن على وفاق مع امين خالص ، وحين بلغنا البيت لم نجد صاحبه فقال امين خالص :

عنّف قوم رجلاً لتركه الصلاة وما زالوا به حتى قصد ذات يوم المسجد

ليصلي فيه فألفى بابه مغلقاً فرفع رأسه الى السماء وهو يخاطب ربه قائلاً :

الحمد لله ان يقع الامر منك ولم يقع مني ، فقد جئتك ولم أجدك .

* * *

وفي بغداد اصبح مكتبه بوزارة الداخلية ندوة عامرة بجميع الذين يردون بغداد من مختلف الألوية وفي هذه الندوة تعرفت انا بالكثير ممن لم يسبق لي التعرف بهم امثال حكمة سليمان من رجالات السياسة وامثال الشيخ سالم الخيون من زعماء القبائل وعدد من ادباء الالوية والأقضية .

ولتعرفي بسالم الخيون في مكتب امين خالص مناسبة لم تقتصر على المكان فحسب فقد رفعت يدي ذات مرة الى عيني لأرى كم هي الساعة فلم اجد الساعة في معصمي فادركت ان احدى حلقات سلسلتها المعدنية قد انفصمت من حيث لا ادري وسقطت الساعة في الطريق او في اي مكان آخر فلم اقل شيئاً وحين هممت بالقيام من مجلس امين خالص قال سالم الخيون

ـ ان لك عندي حاجة وانت جدّ وجل عليها .

قلت ـ انها ساعتي وانا كما قلت شديد الوجل من اجلها لا لأنها من الساعات الذهبية الجيدة النادرة وان كان فقدان مثلها غير يسير على مثلي وانما لأنها هدية عزيزة من صديق عزيز هو الشيخ عبد الله الشيخ خزعل وانا معتز بها لهذا السبب .

قال سالم الخيون ـ لن اعطيكها الا اذا نسيت ذكر الشيخ عبد الله الشيخ خزعل منذ هذه الساعة وذكرتني انا وأقنعت نفسك بأن لسالم الخيون عندك بعد اليوم ذكرى حسنة تذكرك بها هذه الساعة .

قلت ـ وما الضرر لو ذكرت الاثنين معاً كلما جاء حديث الساعة؟ وكان كما كان ومنذ ذلك اليوم اشتدت اواصر الصداقة بيني وبين سالم الخيون .

ومن حسنات امين خالص انه كثير التفقد لاخوانه وكثير التسآل عنهم

اذا ما تغيبوا ثم انه يحب ان يبتدئهم بمعروفه ويسبقهم باحسانه فقلما سبقته في التهنئة بالأعياد بل طالما صبحني في يوم العيد كما يصبّح اخوانه الآخرين ولا يدخل البيت الا ومعه نكتة ولا يخرج من البيت الا ومعه نكتة ويوم يحضر جلسة (الاحد) في مكتبي بدار التعارف تتحول الجلسة يومذاك الى لون بهيج من ألوان الأدب والظرف على رغم عدم مكوثه طويلاً وعلى رغم مغادرته الجلسة مبكراً ..

امتطينا مرة الطيارة معاً إلى طهران ، وفي منتصف الطريق قدموا لنا مع الفطور قثاء باعتباره فاكهة فلم أحس الا وامين خالص يقذف بالقثاء فيرمي به سقف الطائرة قائلاً :

ـ أتظل تلاحقني حتى منتصف طريق طهران ؟

زرت معه مرة السيد (ميرزه القزويني) في الحلة ونحن في طريقنا الى النجف فجيء لنا بعصير البرتقال وكانت تغلب عليه حمرة داكنة لشدة غليانه فقال امين خالص يخاطب السيد ميرزه : قال له : لا بد وان يكون في هذا العصير شيء ما فقد زرتك قبل شهر وكان هذا العصير هو هو كما اراه الآن ولا يبعد ان يكون زوارك قد عافوه ورغبوا عنه فلم تجد غيري وغير الخليلي مَنْ تجرعهما اياه حتى اصبحت قصة عصيرك هذا قصة الدبس الذي قدّمته احدى الاعرابيات لضيفها في وعاء كبير طافح به ومعه رغيف خبز فقال الضيف لابن الاعرابية وهو صبي ساعد امه في نقل الوعاء قال له ـ لقد كان يكفيني من هذا الدبس شيء قليل في آنية صغيرة فعلام كل هذا العناء في نقل هذا الوعاء الكبير لي ؟

قال الصبي ـ لقد سقط اليوم جرذ في وعاء الدبس ومات فيه فقالت امي : لنقدم هذا الدبس الى الضيف افضل من ان نسكبه على الارض ويذهب ضياعاً ، ولذلك قدمناه لك كله .

لقد كان امين خالص من المعجبين بي والمغالين بمحبتي وطالما ذكرني بشيء كثير من الاطراء في مجالسه وانا من الذين يخجلهم الاطراء اذا لم يكن يُربكهم ولا

احب ان اسمع اطرائي باذني بل كثيراً ما سعيت عندما اجد العاطفة تطغى عند بعضهم في ذكري الى تغيير مجرى الحديث الى ناحية اخرى وحين بنى امين خالص بيته الجديد في الوزيرية سألته عما ينبغي ان اقدم له كرمز للتهنئة في تدشين هذا البيت اذ خشيت ان تكون الهدية المقدمـــة من جانبي متجانسة ومكررة لهدية سبق ان قدمها احد الاصدقاء قبلي بل الصحيح ان احد اصدقائي هو الذي اشار علي باستشارة صاحب البيت حين وجدني حائراً افكر فيما ينبغي ان اهديه اليه وقال لي هذا الصديق ان كثيراً من الاصدقاء لا يمتنعون اليوم عن السؤال من الأشخاص الذين يريدون مهاداتهم عما يحبون .

ودفع به اعجابه وغلوّه بي ان يقول : ـ اريد ان تعمل لبيتي الجديد تأريخاً شعرياً ..!!

قلت ـ فلنسلم جدلاً انني اديب بارع على حد تعبيرك فكيف تريدني ان اسلم بأنني شاعر ثم مؤرخ !!..

والتاريخ فن قائم بنفسه فان من يعرفني لا يصدق بأن هذا التاريخ الذي وضعته أنا كان تأريخاً فلقد عرف عني في الاوساط الأدبية انني كثيراً مـــا خلطت الجد بالهزل واتيت بجملة حسبوها تأريخاً وهي ابعد ما تكون عن التاريخ . وهنا رويت له عن السيد محمد جمال الهاشمي وكان (امين خالص) يحبه كثيراً ـ وكان قد ولد للهاشمي ولد بعد محل فسماه (حسناً) ولما كان للسيد الهاشمي مقام عند كثير من الأدباء والشعراء وارباب الفضل فقد هنأه الكثير منهم بالشعر وارخ الكثير لميلاد ابنه (حسن) تواريخ ادبية رائعة كان منهم الشيخ محمد رضا المظفر والشيخ محمد جواد الشيخ راضي وغيرهما ، وفي الدعوة التي اقمتها له بهذه المناسبة قرأت عليه ونحن حول المائدة في ميلاد ابنـــه (حسن) :

يا ابن خير الانام كلّهمُ	من بعلياه يفخر الـــزمن
قل لمن رام ان يؤرخكم	كل ما تنتجونه (حسنُ)

فاستحسن الجميع هذا التاريخ وفضلوه على جميع التواريخ السابقة وبعد ايام جاءني السيد محمد جمال الهاشمي يقول لي :

ـ ان تاريخك هذا ينقصه نحو خمسماية عدد ليصح ان يكون تأريخاً لسنة ميلاد حسن فعلى اية قاعدة بنيت هذا التاريخ ؟

ـ قلت ومن قال لك انني قصدت بذلك تأريخاً فلقد قرأ القوم لك ابياتاً وقرأت انا بيتين فمن الذي قال لك انني قصدت بهما تاريخ ميلاد ابنك ؟

ولقد شاعت هذه القصة حتى حملت (السيد ميرزا حسن البجنوردي) على ان يضع لميلاد حسن الهاشمي تاريخاً يزيد اكثر من خمسماية ولما سئل عن ذلك قال :

ـ اني اردت ان ارتق به الفتق الذي احدثه الخليلي واسد بهذه الزيادة ما حدث في تاريخه من نقصان ثم قلت لأمين خالص :

وولدت لصديق لي ابنة سماها (هيفاء) وحينما ذكر لي ذلك قلت له :

كلٌ يسمي بنتَه ما شاء ارّختُ سميتُ ابنتي (هيفاء)

فاستحسن ذلك التاريخ ودفع به الى خطاط فخطه في قالب فني جميل وبعد ايام قليلة سألني :

ـ أأنت متأكد من صحة تاريخك هذا ؟ فلقد حسبت الحروف فوجدت التاريخ ينقصه اعداد كثيرة ليصح ان يكون تاريخاً .

وسرعان ما اجبته بما اجبت به السيد محمد الهاشمي وقلت له : لا اظنني قد قلت لك اني ارسلت البيت على سبيل التاريخ وكل ما في الأمر انك اخبرتني بمولودتك فجرى على لساني البيت المذكور .

ورحت اقول لأمين خالص وولدت للسيد هادي العظيمي قاضي النجف السابق ابنة ثالثة وكان يومذاك يقيم في (طويريج) فكانت لي في بناته ابيات جاء آخرها بهذه الصيغة :

« بناتك قد ارخت خيرَ بناتِ » .

وبعـد ايام كتب السيد العظيمي الى صديقي الشيخ محمد كاظم الشيخ راضي آخذاً علي ما وقعت فيه من سهو فقد قال انه وجد ان التاريخ الذي وضعته انا لابنته ينقصه مائة لكي يصبح تاريخاً لميلادها فكتب له الشيخ محمد كاظم قائلاً — ان تواريخ الخليلي لا يركن اليها وان حكمه في وضع التواريخ حكم بعض المحدثين والرواة المشكوك بصحة احاديثهم الدينية والذين لا ياخذ المسلمون بأحاديثهم ورواياتهم .

وقلت لامين خالص — فهل قنعت الآن ؟

ولكن امين خالص أصرّ والح على ان تكون هديتي لبيته الجديد تأريخاً اصنعه كيفما كان .

فاشتريت له مصباح مطالعة من متحف الهدايا ، واضطررت ان اعصر دماغي واعصره اياماً حتى ركّبتُ له تاريخاً وجدته بعد الحساب يزيد واحداً على العدد المطلوب فضمّنتُ هذه الزيادة باشارة توجب سحب الواحد الزائد من المجموع عند حساب التاريخ فجاء التاريخ على هذا النحو :

إن راح (فردٌ) من شوائب ما يشين النفس خالـصْ
وزها به تاريخـه « قل حُجَّ بيتَ امين خالصْ »

وتشبه حالي وانا اعصر دماغي هذا العصر حال الشاعر العبقري المجدد الياس فرحات الذي اضطرته ظروف كظروفي لوضع تاريخ لميلاد (زهير) ابن صديقه رامز مكارم فراح يصفّ الاوراق في غرفته هنا وهناك ويسطر عليها حروفاً وارقاماً اثارت الدهشة عند اهل بيته الذين اعتقدوا بأن الرجل قد بدأ يمارس علم الرمل ويعمل على حل الطلاسم وهو دائب يمحو هذا الحرف ويثبت هذا الحرف ويحذف هذا الرقم ويجيء برقم اكبر او اصغر حتى استهلك عدة دفاتر من الأوراق وبعد عمل اسبوع كامل جاء تاريخه على هذا النحو :

قال لي (رامزُ) قد جاء (زهير) غامراً بيتي كنهر فاض خيرا
قلت يا (رامز) ارخ « بان جدي يغمر الرحمن بالمجد زهيرا »

وعلى رغم ان إلياس فرحات عجز عن ايجاد توجيه لقوله (بان جدي) فان ما وضعه من تاريخ (لزهير) هو احسن واجود مما وضعت انا من التاريخ لبيت امين خالص الذي يزيد واحداً في الحساب .

* * *

وقلما شاهدت اسماً انطبق على مسماه كاسم امين خالص واخيه محمود خالص ولقد كان لكل منهما صيته الحسن هذا من حيث شخصيته القانونية وعدله واستقامته وذاك من حيث مقدرته الادارية وامانته وادبه .

لقد زاره مرة السيد سعيد كمال الدين في مكتبه فلم يجده فترك له البيتين التاليين ومضى :

لقد زرتكم والشوق ملء جوانحي لاطفىء شوقاً في الفؤاد دفينـــا
اردتُ (أمينا) كي أبثّ لواعجي لديه ولكن ما وجدتُ (امينـــا)

والحق انه كما قال السيد سعيد ، فقد قل الامناء حتى كادت تخلو منهم الديار وكان هذا ما يقوله امين خالص دائماً ويستشهد عليه بطائفة من الأمثال والشعر وهو يحفظ من اقوال الشاعر الحاج عبد الحسين الازري في هـــذه المضامين شيئاً غير قليل وكثيراً ما كان يردد ويستشهد بقول الأزري في ندرة الرجال وكثرة النفاق حين يقول :

عبث الختل بالطباع وكانت كنبات ثماره الأخـــلاق
صاح لولا النفاق لم يعش الناس ولولاهم لمات النفـــاق

بل ان امين خالص لا يستطيع ان ينسى قول الحاج عبد الحسين الازري وقد اخذته انا عن امين خالص وليس عن الازري حين يقول الأزري عن اولاده :

ممن تحدّر من صلبي (غسلتُ) يدي فكيف ارجو الوفا ممن اصاحبه ؟

وغسل اليد اصطلاح احسبه معروفاً عند العراقيين وحدهم وهو يعني عيف الشيء وتركه واليأس منه وكان امين خالص يحب الحاج عبد الحسين الازري ويفضله على كبار الشعراء وقد كانت له به صلة وثيقة ولربما سمع الشيء الكثير من امثلة شعر الازري على لسان امين خالص قبل ان يسمع على السنة الآخرين لشدة تتبعه له ولشعره .

وفي ضمن ما سمعت من امين خالص من شعر الازري في الموضوع المتقدم نفسه وقلة وجود الأطياب وتفشي الشرور قوله :

ليت السما تقوى فتنقذني حتى افوز بمدفن عطـر
فتراب هذي الأرض قاطبة قد دنسته جـرائم البشر

وامين خالص اديب ذواقة وقد زادته معرفته باللغة الفرنسية والفارسية والتركية عمقاً في المعاني وانتقاء لخيار الشعر والامثال والقصص من هذه اللغات وقد طلب مني مرة ان اترجم له رباعية فارسية كان شديد الاعجاب بمعناها وان انقلها الى العربية شعراً وقد نقلتها فعلاً ثم نشرتها الجامعة اللبنانية ببيروت ضمن ما نشرته لي من الشعر المعرب في (نفحات من خمائل الأدب الفارسي) واستظهر امين خالص الرباعية وراح يستشهد بها كلما عرضت له مناسبة اما الرباعية فهي :

نحن لا نعلم عن مبدأ هذا الكون شيئاً لا ولا نعلم شيئاً عن خفايا منتهاه
كيف ندري وكتاب الدهر هذا سقطت منه في الأول والآخر ـ قدماً ـ صفحتاه

* * *

والشهامة من اظهر مزايا امين خالص واخيه محمود خالص فلا يكاد يستنجد بهما احد حتى يخفا لنجدته ما دام في ذلك جانب من الخير ، وكثير ما اقرأني امين خالص قصائد ومقاطيع شعرية من القريض والعامية التي كان يبعث بها البعض كشكر له على معروفه .

ومن هذا النوع قصيدة للشاعر الشعبي الشهير (حسين قسام) الذي استعان

بي في حمل امين خالص على السعي في تخصيص معونة له من مديرية الأوقاف العامة وذهبنا معاً وكان المدير يومها السيد شفيق العاني فاستصدرنا له امراً بمعونة دائمية دفعت به الى نظم قصيدة شعبية طويلة جاء فيها :

نويت اعلى المجد اقصد أهاليّه   يم جعفر ويمّك صارت النيّـــه

* * *

(يبو معمّر) وحبكم دوم خلاني   متنومس وبيكم زاد ايمـــاني
(يبومعمّر) وحقك يصدق الساني   من اقول انتم كرامتكم إلاهيه

* * *

(يبومعمّر) افكاري اتحيّرت والبال   شمدح؟ والمدح مني ميطلع عال
بالطيبات والاحسان والافعال   واحدكم يسرّ القلب طاريــه

* * *

(يبومعمّر) شحجيلك بعدازيد   خلاني الوقت انزل فلا اصعد
بس انته وجعفر علي تتنشّد   حيث انتو نفسكم نفس قدسيه... الخ

وعلى رغم صرامة امين خالص في الامور الادارية وعدم تزحزحه عن رأيه فانه سريع التأثر في اموره الشخصية وكثيراً ما تغير التوافه رأيه وتحملـه الطيبة على تصديق من يعرف ومن لا يعرف الى حد بعيد وان سرعة تغيير رأيه هذه قد جعلتني كثير التوقي منه فأنا احاذر أن ابدي رأيي في غير مجالات الادب والافكار العامة فاذا ما سألني عن شيء يريد ان يشتريه مثلاً فـلا يسمع مني اي تعليق يعبر عن رأي اذ لا يبعد ان يلقي التبعة علي اذا ما تغير رأيه او حصل من يغير له رأيه واذكر انه اراد مرة ونحن في طهران ان يشتري قطعتي سجاد كرماني فاستعان بي فاعتذرت وقلت له ان لكل واحد ذوقه ولا شك اننا مختلفان في الذوق بنسبة مطردة مع اتفاقنا في المحبة والمودة واستعان اخيراً بالسيد مصطفى الطباطبائي وهو من اكابر رجال الثقافة ومن اصدقائه الذين تعرّف بهم يوم كان الطباطبائي مستشاراً ثقافياً للسفارات الايرانية في

الاقطار العربية واشترى له قطعتين فاخرتين من السجاد الكرماني وسافر امين خالص الى بغداد وبقيت انا اقضي بقية الصيف .

ومن بغداد اتصل بي تلفونياً وقال لي ان السجادتين قد وصلتا وهما الآن في الكمرك ويبدو لي ان السعر الذي اشتريناهما به كان غالياً ولا يستبعد ان تكونا مستبدلتين بغيرهما فاستمهلته حتى اعرف الخبر .

وفي اليوم الثاني ثبت عندي ان السجادتين المنقولتين هما هما لم تتبدلا وان القيمة التي بيعت بهما كانت اقل من ثمنهما وقد بيعتا اكراماً للطباطبائي بذلك السعر وان تاجر الفرش مستعد لرد المبلغ واستعادة السجادتين .

وبعد ايام كنت انا في بغداد وكانت السجادتان في الكمرك وقد صحبني الى الكمرك لأتأكد منهما لأنني كنت قد رأيتهما بطهران فاذا بهما هما هما كما قد رأيتهما هناك ولما سألته عن سبب تشكيكه في اصل السجادتين سمى لي شخصاً أعرفه وقال لي أنه هو الذي اوحى له بأن السجادتين لا بد وان تكونا مستبدلتين لأن ثمنهما باهظ جداً ومن حسن الحظ ان حضر في تلك الساعة احد تجار السجاد ووقف على الخبر فأوصى السيد عبد الهادي باقر وكيل الاخراج بأن يشتري له السجادتين اذا رغب امين خالص بالبيع وهو مستعد ان يدفع له ربحاً يتراوح بين الدينار والدينارين لكل متر منهما وهناك فقط عدل امين خالص عن رأيه السابق ولم يوافق على البيع واستغفر من السيد الطباطبائي .

ولم تقتصر صداقة امين خالص الثمينة علي وحدي وانما شملت اخي الأكبر عباس الخليلي وتحولت الى نوع من التفاني ففي احدى السنين عزمنا انا وامين خالص على قضاء الصيف في ايران وحين نزلنا في مطار طهران كان اخي ينتظرنا لنقلنا بسيارته الى البيت ولأول مرة يلتقي الاثنان وأصرّ اخي على نزول امين خالص في بيته ولكن امين خالص ابى واصر مقسماً بأنه لا يستطيع ان يرتاح في غير الفندق وراحت سيارة اخي تطوف به على

الفنادق المحترمة فلم يجد له مأوى فيها فقد كانت فنادق طهران يومها مكتظة بالسواح والمسافرين فاضطر للرجوع الى بيت اخي واراه اخي هناك احدى غرف بيته التي تضمن له الراحة والحرية ان هو تفضل ورضي ان ينزل في ضيافته وبات في تلك الليلة في بيت اخي وتنوع الحديث وتلمع وسرّ امين خالص في تلك الليلة سروراً ما بعده سرور وكان يوم ذاك قد اوفدت مجلة الهلال الاستاذ (قدري القلعجي) في مهمة صحافية لايران فكتب في المصور نقداً لاذعاً لسفراء الدول العربية اللاهين بلذائذهم في السفارات وقال فيما قال :

ان عباس الخليلي هو السفير الواقعي الذي يمثل الاقطار العربية في أدبه ونزعاته وخدماته التي يؤديها للعرب والعروبة هناك ، فتمسك امين خالص بما قرأ في المصور وراح ينعت اخي في رسائله بسفير العرب الكبير وعلى انه انتقل في اليوم الثاني الى احد الفنادق التي فرغت له فيه احدى الغرف فقد ظل طوال اقامته بطهران شديد الصلة بأخي وطالما جمعتنا مناسبة الغداء او العشاء معه ومع جمع من العراقيين في بيت اخي وكان من اولئك محمد القشطيني رئيس محكمة الحلة يومذاك وسامي خونده وغيرهما .

وحين عدنا الى بغداد كان لأخي عباس الخليلي في قلب امين خالص ونفسه محل قلما شغله غيره واستمرت المكاتبة بينهما طوال السنوات .

وكانت لكتب اخي عباس في نفسه وقع كبير حتى لقد كان يحفظ الكثير من نصوصها فيتلوها على الاصدقاء حين لا تكون تلك الرسائل في جيبه ، وكلما وصلت رسالة قرأها على زواره في صباح كل يوم جمعة من الايام التي اعتاد ان يقعد فيها امين خالص للناس ، على شريطة ان يكون هناك من يصلح ان تقرأ عليهم رسائل ادبية مليئة بالامثال والبدائع ، ذلك لأن مجلس

امين خالص اشبه ما يكون بالبحر ، يجمع من كل فصيلة انواعاً ، وقد نؤمّه فنجده غاصاً بالأدباء والشعراء في هذا اليوم من الاسبوع ، وغاصاً بطبقة لا تتكلم الا التركية ولا تفهم شيئاً من العربية الفصيحة في اليوم الآخر ، وقد تطغى فيه بعض الاحيان رجالات من القبائل والوجوه من مختلف الجهات لما كان قد خلف — في كل لواء من الوية العراق التي عمل فيها (متصرفاً) — من الاصدقاء والمحبين ، ومع ذلك فلم يعدم الداخل الى مجلسه في كثير من الأحيان وجود عدد يكثر ويقل بين اولئك من الأدباء والمتأدبين .

* * *

وفي السنة الأخيرة كان امين خالص يعاني من مرض السكر الأمرّين وكان هذا من اسباب انقطاع مكاتبته لأخي وكان اخي يكتب لي ويسأل عن امين بلهفة وشوق وكنت اطمنه واوجد لانقطاع رسائله عنه الأعذار ولكنه ما لبث ان شعر بأن اميناً مريض وانني اصبحت قليل الاتصال به الا عن طريق التلفون الذي يردّ به علي اهله فيطمنونني مرة ويحمدون الله مرة على انه احسن حالاً من ذي قبل .

* * *

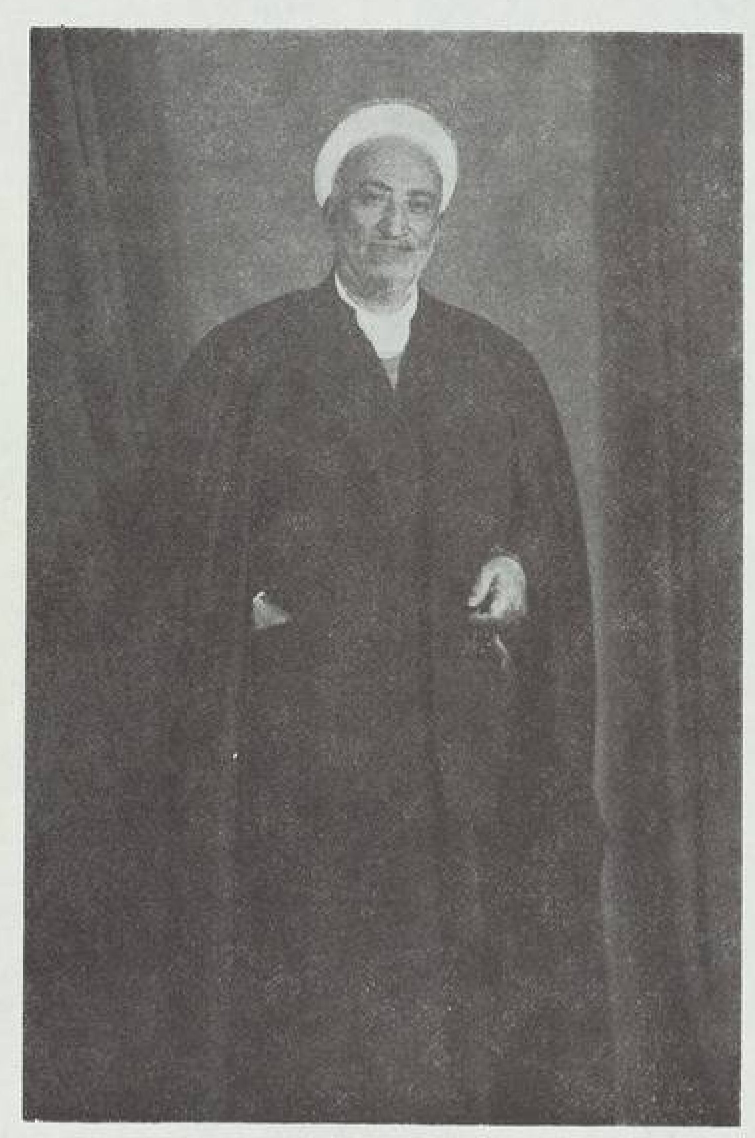
وقبل سفري الى لبنان من هذا الصيف اتصلت ببيته وكان الجواب كالسابق لا يخلو من الحمد والرجاء فقد كانت زيارته في الشهور الأخيرة غير ميسورة .

وفي بيروت وانا خارج من مكتبة الأرز وقاصد احد المطاعم لتناول الغداء التقاني صديقه السيد عبد الرزاق الحسني ودون تمهيد او مقدمة قال لي :

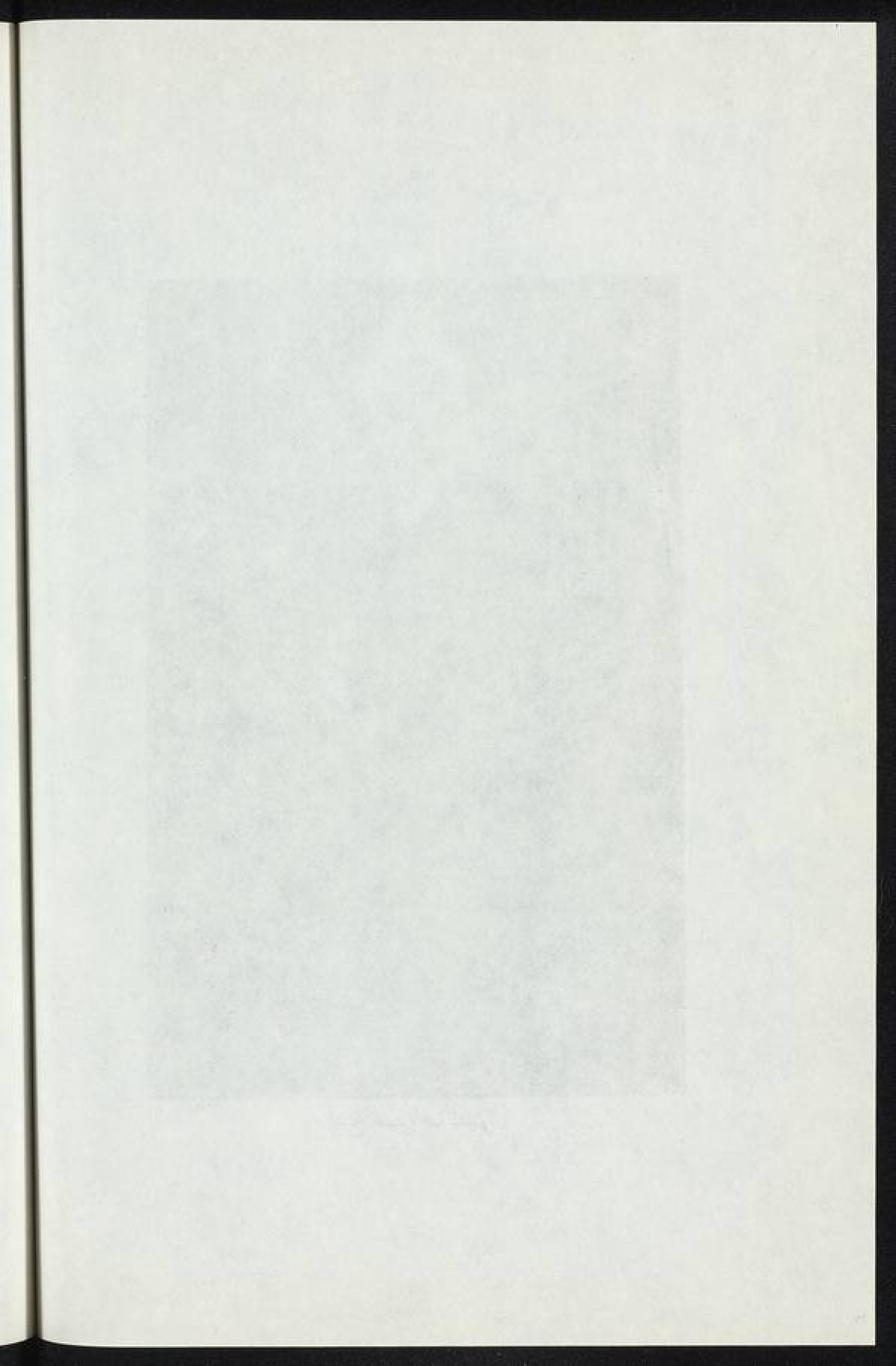
— أعلمت بأن امين خالص قد مات ...؟

لا استطيع ان اصف هذه الرجة التي احدثها الخبر في نفسي فقد شعرت

بأن قلبي يكاد ينفجر وانعدمت في تلك الساعة شهية الطعام عندي وجف ريقي فعدلت عن الذهاب الى المطعم ويممت احد المقاهي ولكني ما كدت اجلس حتى قمت فلم ادر لِمَ ارتدت المقهى ولماذا خرجت منه ؟ وعدت في ذلك المساء الى الجبل وهناك في غرفتي بسوق الغرب كانت الدموع هي التي تطفيء شيئاً من حرارة حزني عليه وعلى ايامه العامرة بالأدب وحلاوة النكتة والشهامة .



الشيخ محمد رضا الشبيبي



كيف عرفت
الشيخ محمد رضا الشبيبي

ربما كنت ابن عشر سنوات او اكثر قليلاً حين سمعت اخي يقول لامي ان لديه ضيفاً سيتناول عشاءه عندنا ويغلب على ظني انه قد سمى ضيفه هذا ولكني لا اتذكر اني كنت مسبوقاً حينذاك بهذا الاسم وكل ما عرفت هو ان اخي يريد العناية بضيفه لأن ضيفه شاعر معروف ، والعناية عندنا لم تزد يومها على صنفين من الطعام اذا اجهدنا انفسنا ، فنحن اذا لم نكن من الفقراء فلم نكن من الأغنياء وكثيراً ما كان اخي يدعو اصدقاءه في بيتنا او في المدرسة التي يقيم بها فأتعرف عن هذه الطريقة باصدقائه .

وجاء الضيف فاذا به شيخ نحيف البدن خفيف اللحية يحتذي حذاء اصفر اللون ودون (جوارب) كما كان عليه اغلبنا يومذاك ويلبس قباء بلون داكن وعباءة سوداء ، وهو لباس طلاب الدين ، والعلم ، وعلى رأسه عمامة بيضاء

هذا هو الشاعر المدعو الى العشاء عندنا ، قلت هذا في نفسي واحسست بهيبته وعظمته تملأ ذهني وبصري ومن عادة البيوت التي لا تملك مستخدمين يقومون بخدمتها ان تنيط خدمة البيت بأبنائها الصغار على قدر ما يملك هؤلاء الصغار من طاعة ، وكان بيتنا دون اغلب بيوت اسرتنا من البيوت التي يتعذر عليها استخدام احد ولما كنت انا اصغر افراد هذا البيت تحتم علي ان اقوم

بكل حاجات البيت فأنا الذي انقل كل اللوازم الى (البرّاني) والبراني هذا كما يصطلح عليه النجفيون هو غرفة الاستقبال ، وكثيراً ما يكون هذا البرّاني في الطابق الثاني يصعد اليه الصاعدون من سلالم تبدأ عند باب الدار ليكون بمعزل عن الحرم الذي يسمى (بالدخلاني) وفي الغالب يكون هذا البراني مطلاً على الشارع العام وخارجاً من سويّة جدار الدار من الأعلى بما يقرب من متر واحد وكانت تسمى مثل هذه الغرف (بالشناشيل) .

وهكذا بدأت انقل الابريق لغسل اليدين ثم الصينية ثم اواني الطعام آنية بعد آنية وانا احافظ عليهما محافظتي على روحي وكنت كلما صعدت بشيء من الأشياء الى البراني حدقت الى وجه هذا الشاعر وامعنت النظر في شخصه ولم اكن افهم ما كان يقوله وينطق به ولكن بيئتي ونشأتي كانت تجعل للشعر منزلة كبيرة في نفسي على الرغم من ان معرفتي بالشعر وحدوده لم تزد على معرفة صبي في مثل هذه السن .

وكنت انا طالباً في المدرسة العلوية ، وهي اول مدرسة عصرية حديثة انشئت لتدريس العلوم العصرية واللغات الحية ، وكان العلماء الروحانيون يحدبون عليها ويساعدونها ويجوزون انفاق الحقوق الشرعية عليها ، وكان من عادة هذه المدرسة ان تدعو رهطاً من وجوه اهل العلم والأدب لحضور امتحاناتها السنوية ، وقد رأيت ذات يوم هذا الضيف الشاعر وانا اؤدي امتحاني الشفهي امام احدى الخرائط وقد عرفته ، واغلب الظن انه لم يعرفني .

ثم رأيت هذا الشاعر نفسه بعد مدة ومعه السيد مير علي (ابو طبيخ) في ظهر احد الايام في غرفة اخي بمدرستنا الدينية المعروفة بمدرسة الخليلي الكبرى ، وقد جئت اليها من البيت بناء على وصية من اخي ببعض الأرغفة من الخبز ومقدار من التمر وكان اخي قد اصطاد عدداً من الحمام المعروف (بحمام الحضرة) والذي كان أكله محظوراً لقداسته او انه كان محرماً في شريعة العوام فلم يستطع احد ان يتجاهر بأكله وقد تم طبخ هذا الحمام في نفس غرفة اخي في المدرسة وتم اكله في خفية من العيون ، ويغلب على ظني

اني قد بدأت اعرف ان هذا الشاعر هو الشيخ محمد رضا الشبيبي ويغلب على ظني انني كنت قد عرفت الشيخ جواد الشبيبي مما كنت اسمع في بيوتنا قبل ان اعرف الشيخ محمد رضا الشبيبي معرفة كافية فقد كانت تربط بين الشيخ جواد الشبيبي والد الشيخ محمد رضاوبين اسرتي روابط جد وثيقة وكان للكثير من افراد اسرتي دواوين تجمع بين اهل العلم والفضل والأدب فكان اسم الشبيبي الوالد يملأ هذه الدواوين كما يملأ دواوين النجف الاخرى وكان لأبي بصورة خاصة اتصال ادبي وثيق بالشيخ جواد الشبيبي فكوّن كل هـــذا في نفسي معرفة اوسع بالشيخ محمد رضا الشبيبي يوم تم لي ان اعرفه معرفة تتناسب ومداركي واحاسيسي المحدودة .

وتدعوني مناسبة (حمام الحضرة) الى ان اذكر ايام الحرب العظمى الاولى فقد كانت اياماً مجدبة قاحلة ولا يبعد ان يكون قد ظهر نقص كبير في عدد الحمام لا بسبب الجدب والقحط وجوع الحمام وانما بسبب كثرة صيده ، كما ظهر هذا النقص في ضرب الحصار على النجف من قبل الانكليز في سنة ١٣٣٦ هجرية التي اضطر فيها السكان ان يصطادوا الحمام ويأكلوه خفية عن الناس واني اعرف رجلاً من اهل الفضل والوجاهة كانت له في بيته غرفتان تتصل احداهما بالاخرى بواسطة باب فكان يفتح باب احدى الغرفتين بعد ان يضع فيها شيئاً من الحبوب فاذا ما دخل الحمام هذه الغرفة اسرع الرجل فأغلق الباب عليه ثم فتح الباب الثاني من وسط الغرفة الثانية ليدخل الطير فيها فيحتفظ به ويذبحه في ذلك اليوم او في الايام التي تليه وبذلك كان يستغني عن شراء اللحوم ويسد الحاجة التي لم يكن يقوى على سدها بغير هذه الطريقة وقد اعتاد هذا الرجل مثل هذا العمل منذ ايام الحرب الاولى وبقي يمارسه حتى مات مع ان احواله قد تحسنت وقد اصبح من اهل الثراء وانا نفسي قد اكلت من هذه الطيور وقد بلغني ان شيخ الشريعة المرجع الروحاني الأعلى في الثورة العراقية الكبرى بعد الميرزا الشيرازي كان لا يكترث بالسواد والعوام وكان لا يتخفى في أكله الحمام وكثيراً ما دعاني ابنه الشيخ

محمد الشريعة وهو الآن اكبر العلماء الروحانيين في الباكستان اقول كثيراً ما دعاني الشيخ محمد على أكلات قوامها هذا الحمام الذي كان يصطاده هو بوسيلة السلة الكبيرة في بيته وفي خفية من الناس .

* * *

ومشت بي الأيام او مشيت بها فصرت اعرف الشبيبي من بعيد واراه عند العصر في بعض الأحيان متأبطاً طيتين او ثلاث طيات صغيرة من وسط الجانب الأيمن من عباءته حتى ليرتفع ذيل العباءة من هذا الجانب شبراً او شبرين عن الأرض وماسكاً حاشية الجانب الايسر من العباءة عند الصدر بين طرفي سبابته وابهامه وهي احدى طرق المشية عند طلاب العلم بل لعلها طريقة المتأنقين في مشيتهم المتزنة الوقرة واذا ما بدا شيء من الاختلاف بين مشية الشبيبي ومشية طبقته فان خطوات الشبيبي كانت اسرع قليلاً من خطوات طبقته بخلاف مشيته في منتصف عمره الأخير لأن هذه الطبقة قد تستطيع ان تتنازل عن كل شيء من امتيازاتها الا التأني في المشية فلو انقلبت الدنيا رأساً على عقب ولو صب الرصاص والقنابل على المدينة صباً فان اغلب هذه الطبقة تظل تحافظ على مشيتها غير آبهة بهذا الانقلاب وصب الرصاص ذلك لان للوقار عندها شأناً كبيراً لا يجوز التفريط فيه ، وعلى هذا الأساس شاعت النكتة المروية على لسان احد السائقين وقد تمرد عليه حماره في مشيته ولم يعد يسرع كما كان يفعل بل لزم جانب الجدار يمشي ببطء وتوئدة فلحقه صاحبه السقاء بعصاه وهو نازل عليه بالضرب مخاطباً اياه بلغته العامية صارخاً به :

– جنك مومن منتدى اي كأنك مؤمن من مؤمني (المنتدى) في هذه المشية الرتيبة المتئدة ، والمنتدى هذا هو جمعية منتدى النشر التي يخرج من كليتها في كل سنة عدد من طلاب العلم المؤمنين الموهوبين .

اقول : انني كنت ارى بعض الأحيان الشيخ محمد رضا عند العصر من بعض الأيام وهو سالك طريق الترمواي حيث مسلك الكثير من طلاب العلم والأدب والشباب الذين تنحصر كل متنزهاتهم في مثل هذا الوقت من العصر

في التمشي بين المقابر والخروج من حدود المدينة للتفسح والانشراح واستنشاق الهواء فقد كانت بادية النجف ومن ضمنها طريق الترامواي ذات بهجة بما كانت تغطيها الأزهـــار من مختلف الألوان ولا سيما في ايام الربيع والتي صوّحت بها الاقدار اليوم ولم يبق ما يدل على تلك البهجة شيء .

ولعل لهذه الفسحة التي يخلو فيها الشاعر بنفسه او يجتمع فيها ببعض اخوانه من اهل الذوق اثراً في هياج القريحة ، وباعثاً لقول الشعر ، ولعل الكثير من شعراء النجف قد استوحوا شعرهم من هذه المجالس فوق هذه البسط من ورد الشقايق والعصفر والبنفسج وتظل هذه الجماعات الى ما بعد الغروب ثم يعود المتفسحون فراداً وجماعات الى المدينة .

وعرفت الشبيبي مما كان يصل الى اخي من صحف ومجلات وعلى الأخص مجلة العرفان وكانت لديه منها مجاميع قديمة . واول ما حفظت للشبيبي من شعر كانت قصيدته القومية المردوفة بالهاء والتي يقول فيها :

اي دمع يفيض من اي مقله ... لوقوفي بين الفرات ودجله
لست ابكي على فراقي فردا ... انا ابكي على الجزيرة جمله

وحين شببت واصدرت جريدة الهاتف نشرت لعدد من الشعراء في الهاتف قصائد على هذا الروي والبحر والقافية مبارين فيها الشبيبي في مناسبة تتعلق (بدّلة) قهوة كانت قد اهديت لي وكان الشيخ عبد الحسين الحلي من المجودين فيها وجاء منها :

لك منّي تبدي التحايـــا هديّ ... لك زفت من بعد بطء ومهلــه
لست ادري ولا الهدية تدري ... ما الذي قد تكلفت لك حملــه

ثم حفظتُ القصيدة القافيّة التي يقول فيها الشبيبي :

لم يبق لي الا الشباب وانه ... ديباجة ضمن الاسا إخلاقها
نزلت بثهلان الهموم فلم يطق ... حتى نزلن بكاهلي فأطاقهــا

ولم تزل ذاكرتي تحتفظ بالشيء الكثير من ابيات هذه القصيدة ، ولم يستطع تباعد الزمان ومرور الايام ان يمحوها من ذهني ، بل انني لفرط تعلقي بهذه القصيدة خاصة نظمت قصيدة اهنيء بها ابن عمي محمد الخليلي بعرسه في اوائل نظمي الشعر جاءت من حيث لم التفت على رويها وقافيتها باستثناء اعرابها الذي جعل قافيتي مجرورة فكان منها ما يلي :

رغم الهموم ورغم ضيق نطاقها — فرّجت عن نفسي بكأس دهاقها
ام الشعور صفاؤنا بصفائها — وسلامة الأذواق في استذواقها
طافت علي بكأسها وكلاهما — مشتاقة تسعى الى مشتاقها

وحين تم لي ذات يوم ان اقص على الشبيبي تعلقي بقصيدته القافية ثم حين تم لي ان اقرأ عليه القصيدة قال لي وهو يثني علي :

ــ لست أدري لم لا تواظب على نظم الشعر

ولم اكن انا وحدي الذي تأثرت بشعر الشبيبي وتأثرت بهذه القصيدة خاصة بل ان كثيراً من الشعراء باروا قصائد الشبيبي وباروا هذه القصيدة بالذات وكان من اولئك محمد مهدي الجواهري الذي تقصد مباراتها في قصيدته التي يقول فيها :

طوت الخطوب من الشباب صحيفة — لم الق منها ما يعز فراقها
لحقت فلسطين بأندلس اسى — والشام ساوت مصرها وعراقها
مهضومة من ذا يردّ حقوقها — واسيرة من ذا يفكّ وثاقها

وقد تلقى الشبيبي دروس الشعر والادب في محيط النجف كما اعتاد ان يتلقاها كل الذين خصهم الله بالملكات الشعرية ، فالنجف كلها تكاد تكون مدرسة واسعة لصقل المواهب الأدبية وان لمجالسها وانديتها الخاصة والعامة ، ولمنابرها الحسينية التي يرقاها الخطباء باسم تأبين ابي عبد الله الحسين (ع) شأن كبير في صقل الاذهان وشحذها واخراج موهبة الموهوبين الى حيز الوجود خصوصاً وقد اصبح الشعر منذ اول تاريخ هذه المدينة هو المعبر عن

الشعور والأحاسيس بل صار طوال هذه القرون عنواناً للثقافة فكلمة الشاعر في هذه المدينة كلمة كبيرة تقاس اهميتها بمقياس شعره وشاعريته ، ولقد ذكر النجف وميزتها وقيمتها المكتسبة من مدفن الامام علي (ع) فيها عدد من فحول الشعراء العرب وهم بعيدون عنها فضلاً عن جميع المؤلفين والكتاب الذين تولوا كتابة تاريخ الشعر والأدب العربي ، وقد ترك الشعراء العرب في مختلف الادوار والعصور ما يدل على قيمة هـذا البلد وشأنه في تكييف النفوس وكان منهم البحتري ، وابن حماد ، والمتنبي ، وابو اسحاق الصابي ، والحسين بن الحجاج ، ودعبل الخزاعي ، والصاحب بن عباد ، والشريف الرضي ، وعلي بن عيسى ، والفرزدق ، والكميت ، ومئات من كبار الشعراء المتقدمين ، ومئات من كبار الشعراء المتأخرين لذلك لا غرابة ان تنشأ في النجف طبقات من الشعراء متسلسلة طبقة تروح وطبقة تأتي بعدها فتتمرس بنظم الشعر في زف التهاني وتتمرس بنظم الشعر في تقديم المراثي وتعبر عن احاسيس العامة والخاصة حتى غدت النجف سوقاً للشعر مفتوح الأبواب للشارين والبائعين والمتفرجين ليلاً ونهاراً .

وكانت الطبقة التي سبقت طبقة الشيخ محمد رضا الشبيبي واقرانه مؤلفة من كبار شعراء العربية وفحولها كان منهم السيد محمد سعيد الحبوبي والسيد جعفر الحلي والسيد ابراهيم الطباطبائي والشيخ جواد الشبيبي (والد الشيخ محمد رضا الشبيبي) والشيخ عبد الكريم الجزائري والشيخ محمد السماوي ، والسيد باقر الهندي ، ، والسيد رضا الهندي (والد السيد احمد الهندي) وآغا رضـا الاصفهاني ، والشيخ عبدالحسين الحياوي ، والشيخ عبدالحسين الحلي وكان الأخير اصغر تلك الطبقة سناً ، ولهؤلاء وغيرهم تاريخ حافل بأنصع وجوه الأدب واروع ضروب الشعر ولم يزل تاريخ الأدب العراقي مفتقراً الى مؤرخ يعنى بهذا العصر وهذه الطبقة ليصور لنا التيارات الفكرية والنوازع النفسية والحياة الاجتماعية لتلك الحقبة من السنين ثم ليرينا مدى بلوغ الشاعرية عند كبـار شعراء ذلك العصر .

في مثل هذا المحيط نشأت طبقة لتحتل مكان تلك الطبقة من الشعراء وكانت هذه الطبقة تتألف من الشيخ محمد رضا الشبيبي والشيخ علي الشرقي والشيخ محمد جواد الجزائري وعبد العزيز الجواهري والشيخ محمد رضـا الشيخ هادي ، وعباس الخليلي ، واحمد الصافي والسيد مير علي (ابو طبيخ) والشيخ باقر الشبيبي والشيخ حميد السماوي ، والشيخ مهدي الحجار والشيخ مهدي مطر ، والشيخ محمد طه الحويزي ومهدي الجواهري وغيرهم ولما كان بعض هؤلاء وعلى الاخص محمد مهدي الجواهري من المخضرمين الذين ادركوا طبقة الشيخ محمد رضا الشبيبي ثم كونوا الطبقة الجديدة الحاضرة من شعراء وادباء النجف فمن الصواب ذكر اسم صالح الجعفري ومحمود الحبوبي ضمن هؤلاء المخضرمين وان كانا من اعلام الطبقة الحاضرة مـن الشعراء .

ولقد تأثر الشيخ رضا الشبيبي بالطبقة التي تقدمته في صياغة اللفظ والتركيب وطريقة النظم وهي طريقة اكتسبتها النجف من العصر العباسي وظلت تحافظ عليها من حيث اللغة والسبك ، اما المعاني والتصوير والافكار فقد كان الشعر النجفي يستمدها من ظروفه وبيئته ومحيطه لذلك تأثرت كل طبقة من طبقات الشعراء ببيئتها من حيث المعنى بينما بقيت محافظة على السبك العربي الأصيل وقد حدث بسبب تغيير البيئة والافكار عند طبقة الشيخ رضا الشبيبي شبه ثورة في الشعر جعلت التباين بين شعر الطبقتين كبيراً جداً ، ولا ادل على ذلك من قول الشبيبي نفسه في مقدمة ديوانه التي يقول فيها : « تألفت هذه المجموعة الشعرية خلال مدة لا تقل عن الثلاثين سنة كان الشطر الأول منها حافلاً بالحوادث الجسيمة اتجه الناس فيه اتجاهاً جديداً لم يسبق له مثيل ، ومالوا الى الاهتمام بمظاهر التقدم والرقي على اختلافها ، وذلك بمجرد اعلان الدستور في بلاد الدولة العثمانية سنة ١٣٢٦ هـ ١٩٠٨ م .

وقد امتاز العصر المذكور بكونه عصر اليقظة في الفكر والشعور ، تفنن الخيال العربي فيه في التعبير عن هواجس النفوس الطامحة الى مجاراة الأمم الناهضة

الراغبة في التخلص من عوامل الضعف والانحلال وحاول الادب ان يمثل الحياة وذلك في مختلف صورها الضاحكة والباكية وشتّى مظاهرها المشرقة او الداجية » .

ثم يستمر بعد ذلك الشبيبي في تناوله اسباب تغيير الاتجاهات الشعرية في تلك الفترة فيقول :

« كنا في رهط من الشباب العراقيين وغيرهم نفكر تارة في رسم اهدافنا ، وطوراً في الوسائل التي توصلنا اليها ، ولم نكن نستهدف في الواقع الا الحياة في ظل نظام تحترم فيه الحقوق والحريات وتفلح في كنفه المساعي ويتيسر النهوض بالبلاد كما كان في مقدمة العقبات الشاقة التي تواجهنا دائماً استفحال الجمود ، وفقدان الشعور بالواجب ، خصوصاً لدى المسؤولين وعدم اكتراثهم او مبالاتهم بالاخطار ، فتضطرم النفوس ، وتثور الارواح المتمردة وتتضاعف الهواجس والآلام ثم تفيض بهذه الصور الشعرية كما يفيض القليب الملآن » .

وكثيرة هي الدواعي او الوسائل التي تقيم اود الشاعر في النجف ومن هذه الوسائل كانت التقفية اي معرفة القافية من البيت من قرائته بعد ان يكون السامع قد عرف رويها وقالبها ، وعلى هذا اللون من التسلي بالتقفية يتدرب الشعراء على معرفة مواطن الكلم وفهم الشعر ونظمه فحين يخلو المتأدبون او حين تواتيهم الفرص والعطل وكثيراً ما يقع هذا في شهر رمضان ليلاً وحين يكون السوقة لاهين بلعبة (المحيبس) يكون هؤلاء الطلاب والمتأدبون لاهين في احد البيوت والمجالس بالتقفية .

وذات ليلة وعدد من شعراء الشباب كانوا يسمرون في بيت الشيخ محمد رضا آل الشيخ هادي كاشف الغطاء وكان الشيخ محمد رضا الشبيبي بين السامرين وقد امسك احدهم بديوان مهيار وقرأ البيت الاول من احدى قصائد مهيار ثم امسك عن ذكر القافية بعد ذلك ليفسح المجال للسامرين بأن يهتدوا الى القافية كلما قرأ بيتاً ووقف عند القافية ، وكان لآل الشيخ هادي خادم اسمه « شعلان » وقد انهى وظيفته في تلك الليلة مبكراً ونام بالقرب من موقد

القهوة وهذا الجمع مشغول بالتقفيه ، ووصل المنشد لشعر مهيار في انشاده الى قافية استعصى امرها على السامرين ، وقد قلبوا القوافي على جميع وجوهها وقطعوها تقطيعاً فلم يهتدوا اليها واذذاك ند من شعلان الخادم وهو غارق في نومه صوت ريح أشد من عفطة العنز صدى وصريراً فقال الشبيبي :

ـ كفاكم التفكير في القافية فلقد قفّى عنكم شعلان وكفى بتقفيته حلاً للازمـــة .

ومن يومها شاعت تقفية (شعلان) في المجالس فاذا قفى احدهم ولم تكن قافيته مناسبة وملائمة للبيت قالوا له انها شبيهة بتقفية شعلان واذا تجاوز الحد في الخطأ وعدم المناسبة قالوا له « قفّى شعلان » منزلين تقفيته منزلة ذلك الصرير التاريخي في بيت آل الشيخ هادي .

وظهر التجديد في شعر هذه الطبقة من انداد الشيخ محمد رضا الشبيبي جلياً واضحاً وان التجديد في شعر الشيخ علي الشرقي ومهدي الجواهري واحمد الصافي اكثر وضوحاً وقد وجدت ابتكارات في شعر هذه الطبقة دلت على مدى تطور الثقافة وعمق الافكار ولم يعد الشعر موقوفاً على هند وليلى والحطيم وزمزم وفي هذه المقاييس يقول الشبيبي :

مالي اراك تقول انك شاعر والشعر عندك بانـــة واراك

وقد خرج الشعر هنا عن محيطه وقيوده اكثر من خروجه عند الطبقة التي سبقت طبقة رضا الشبيبي ولم يعد الشعر مقتصراً على حياة الشاعر الخاصة وانما عبر الى الآفاق الواسعة من عوالم الدنيا وتغلغل في أعماق الشعوب العربية وحرياتها وامانيها وما احسن وصف رضا الشبيبي لما جناه العراق من المتحكمين فيه وما عملت السياسة وأربابها من المسيطرين عليه في مقدراته اذ يقول :

تعسف قوم بالعراق وســـاوموا
على وطن ما سيم يوماً باثمان

هم احتقبوا الاوزار يقترفونها
وقالوا جنى عمداً وما هو بالجاني
هم استعجلوا اللذات ينتهبونها
وهم بدلوا بالجوهر العرض الفاني
وقد تنكر الحر العراقي ارضه
فينأى ليدنو منه من ليس بالداني

وهذا القول وان كان قد قاله الشبيبي قبل ما يقرب من خمسين سنة فانه قول يصحّ ان يقوله القائل في كثير من الادوار التي مرت بالعراق لعمق هذا الشعر وصدق تصويره .

ومن هذا الشعر الذي يصح قوله في العراق والذي قيل عنه في ان « للعراق نومة وقومة » فاذا نام تجاوز الحد المستساغ في نومه قول الشبيبي وهو من احسن ما قيل من نومة العراق يقول :

يسام العراق الذل وهي عزيزة ... ويخرس اهلوه وهن فصاح
اسكان اجواز العراقين هل لكم ... نزوع الى نيل العلا وطماح
فلا تضعفوا ان السعادة قوة ... ولا تجبنوا ان الحياة كفاح
ينام ولكن البطالة مرقد ... وشرب ولكن الجهالة راح
غفوا وعيوني للعراق طوامح ... وشابوا وودي للعراق صراح

* * *

اقول ورحت اتعقب كل شعر الشبيبي واقرؤه بلذة واردده بيني وبين نفسي بالطريقة النجفية لترديد الشعر وهي طريقة اختصت بها النجف وحدها في انشاد الشعر ثم قضت عليها اليوم القراءة المرسلة التي عادت الموسيقى وحاربت النغم ، وما لبثت حتى صرت أميّز الشعر واقارن بين ضروبه واقسامه على قدر ما تسمح به سني ونشأتي واحسست هنا بأن الشبيبي اقرب الشعراء الى العصر الاموي والعباسي الاول من حيث الصياغة والتركيب وانتقاء الألفاظ

ولعله من القلائل الذين يعجزك تبديل جملة اوكلمة او قافية من شعره بغيره، وقرات له ثم قرات.

ولاول مرة يدوّي اسم الشبيبي محمد رضا في الاوساط دوياً تهتز له الاندية والاوساط النجفية وكان ذلك يوم جمع الحاكم الانكليزي الكبير الرؤساء والزعماء من النجف والعشائر في (سراي) النجف لاستمالتهم واخذ موافقتهم على صورة الحكم الذي كان يريده الانكليز للعراق قبيل قيام الثورة العراقية الكبرى، وكان بين هؤلاء المدعوين شرذمة ممن عرفوا بممالئة الانكليز ومحبتهم وكان الانكليز يعولون على هذه الشرذمة ويعتمدونها في كسب القضية بأن يختاروا الانكليز حكومة لهم فاذا بمحمد رضا الشبيبي يقف في هذا المجمع تلك الوقفة الجريئة التي مثلت رغائب الامة في شجب حكومة الاحتلال وجورها والمطالبة بالاستقلال الناجز الامر الذي سبب شيئاً من القلق في نفوس القادة الانكليز الذين جاؤوا من بغداد ليخمدوا الثورة في مهدها قبل ان يتسع الحرق، وتشب نار الثورة ووجد هناك في ذلك المجلس من رد على الشبيبي بأنه لا يمثل النجف وان ليس من حقه ان يصرخ هذه الصرخة في وجه حكومة انقذت العراق من جور الاتراك ومنحته الحرية وهي صاحبة الفضل والرحمة، وعلى ان مثل هذا الرد على الشبيبي قد أثلج صدر الحاكم الانكليزي ومن حضر مجلسه من القادة ولكن هذه الفرحة لم تدم طويلاً فقد هاجت النجف وماجت واقتدت بها العشائر وكان وراء هذا الهياج من النجف الشيخ عبد الكريم الجزائري، والشيخ عبد الرضا الشيخ راضي، والشيخ جواد الجواهري، ومن رؤساء القبائل كان السيد علوان الياسري وكان الحاج عبد الواحد الحاج سكر وغيرهما الذين ايدوا الشبيبي واعتبروه ممثلاً عن النجف والعراق اجمع، وهذا ما حال بين السلطة المحتلة وبين اتخاذ الاجراءات في توقيف الشيخ محمد رضا او نفيه.

وكنت يومها من الناشئة التي تمور صدورها بالحماس الوطني فكان للشبيبي في اذني صوت، وكانت له في نفسي صورة، وفي قلبي اعزاز تجاوز حدود

اعزازي واكباري للشاعر ولربما حملتني هذه الصورة الوطنية على مضاعفة اهتمامي بشعر الشبيبي اكثر واكثر ولربما هي التي ساقتني الى تفلية قصائده قصيدة قصيدة وبيتاً بيتاً نشداناً عما يرضي حماس شاب في مثل سني ، وميوله الشعرية التي يستمدها ويستوحيها من بيئته ومحيطه .

* * *

والشبيبي اول من فكر هو وزمرة من انداده في النجف باحياء التراث الأدبي وتأسيس جمعية تقوم بدراسة المخطوطات وتحقيقها وتولي طبعها ونشرها على غرار لجنة التأليف والترجمة والنشر التي تأسست بعد ذلك بزمن في مصر ، وقد باشر الشبيبي وجماعته حضور بيع الكتب بالمزاد الذي كان يجري في كل اسبوع في النجف وقد عرف الشيخ صادق الكتبي يومذاك بأنه هو الذي يروج لهذه الكتب ويساعد طلاب العلم على الشراء ويمهلهم اذا صعب عليهم دفع الثمن في نفس الوقت وكان يتولى المزاد بصوت جهوري عذب واشعار يتلوها منغمة بالعربية والفارسية ظل منها هذا الصوت يرن في اذني للآن :

كجا رفتند أقايـــان همه بارسفر بستند ورفتند

اي اين ذهب السادة الذين يعرفون قدر الكتب ؟ لقد رحلوا وأسفاه ولن يعودوا ، ثم يطوح بعد ذلك بصوته صارخاً :

ـ اول مزاد ... اول مزاد ...

وكان يوم الخميس ويوم الجمعة من كل اسبوع ـ وهما اليومان اللذان تعطل فيهما الدروس ـ قد خصا (بمزاد) الكتب فيقبل العلماء والاساتذة والطلاب على شراء ما يهمهم من الكتب من هذا (المزاد) الذي كان يجري في (قيصرية علي آغا) وكثيراً ما يقع في المزاد من نفائس المدخرات ما لا يجري على بال ، وكثير من الحاضرين كان يتطلع الى المتخصصين بمعرفة الكتب واهميتها حتى اذا رأوهم يزيدون في ثمن كتاب علموا بأهميته وراحو يزيدون

هم عليه ليحتكروه ، لذلك كان الشيخ محمد السماوي وامثاله يتجنبون ان يزيدوا شيئاً على الكتاب الذي يريدونه حذراً من منافسة الآخرين لهم في شرائه ، وكان الشيخ محمد السماوي يأتي مكتبة الشيخ صادق الكتبي يوم الاربعاء ليلقي نظرة على ما سينزل غداً أو بعد غد الى سوق المزاد ويعين الكتب التي يريدها ثم يوعز الى بعض خاصته ان يحضر (المزاد) ويتولى (المزايدة) نيابة عنه متبعاً اشارة السماوي في استمرار الزيادة او الوقوف عند حد معين دون ان يلتفت الحاضرون الى هذه الاشارة .

وعرف الشيخ محمد رضا الشبيبي وجماعته ومن بينهم الشيخ علي الشرقي بما عرف به السماوي ولكن السماوي كانت له شهرة اوسع في معرفة خصائص الكتب واهميتها وقد كان حجة في هذه المعرفة فصار الشبيبي هو الآخر يحاذر من ان يجاهر بشراء ما كان يقع من المخطوطات والكتب القديمة ، وقد تجمعت لدى الشبيبي طائفة كبيرة من رسائل وكتب مخطوطة ولم تزل للآن عنده وقد اعتمدها فيما كتب من بحوث وما حقق من مسائل وكان له الفضل في الاحتفاظ بعدد من النسخ المنفردة وبالنتف التاريخية عن النجف بصورة خاصة وعن تاريخ ثلة من رجالات الأدب والعلم في العراق بصورة عامة حتى صار يعرف الكثير من الشؤون الخاصة اعتماداً على تتبعه للاسناد والمذكرات والحجج الشرعية بل حتى التوافه من الامور كان يلتقطها ويجلو بها الغوامض من الاحوال فقد نقل مرة وكان قد قرأ ذلك في مذكرات للسيد محمد الهندي والد السيد باقر والسيد رضا الهندي وكان الهندي هذا من المراجع الروحانية الكبرى نقل انه قرأ في خواطر السيد محمد الهندي انه حين انتقل من داره المستأجرة الاولى الى الدار المستأجرة الثانية كان قد ترك لاهل الدار حبّاً للماء وطاوة سمك لم ينقلها معه وهذا الخبر وان بدا تافهاً في اعين الناس لكنه يدل كما يستنتج الشبيبي على اهمية ثمن الحب والطاوة عند الناس حينذاك او اهميتهما عند السيد محمد الهندي لفقره بحيث يستوجب ذكرهما في دفتر خواطره وقد ظلت هذه النزعة نزعة التدقيق والتحقيق ترافق الشبيبي الى

ايامه الأخيرة مع ان فكرة جمعية النشر قد ماتت في مهدها وفشلت بعد ان صدر لها بعض الكتب فقد سعى كثيراً الى ان يحصل من السيد عباس شبر حين كان السيد عباس قاضياً في بغداد على دفتر مذكرات يومية كان جده السيد عبدالله شبر قد كتبه والسيد عبدالله شبر من اكابر علماء القرن الثاني والثالث عشر الهجري وقد جاء في هذا الدفتر انه اي السيد عبدالله كان قد اشترى عبداً مملوكاً بما يساوي ثلاثة دنانير بعملتنا اليوم واعتقه واشترى حماراً بما يساوي ربع دينار فركبه بقصد الزيارة من الكاظمين الى كربلاء حتى اذا انتهت الزيارة باعه. وحين لم يظفر الشبيبي بهذا الدفتر اكتفى بأن نقل منه بعض الفقرات بخط السيد عبد الله شبر.

وانشغل الناس بالثورة العراقية ولم يكن الشبيبي حينذاك موجوداً في العراق فقد قرّ الرأي بعد ذلك الاجتماع الذي جرى في مقر الحاكم الانكليزي في النجف ان ينقل الشبيبي الى الملك حسين آراء الناس وتمسكهم بالاستقلال ليوصل الملك حسين اصواتهم الى الخارج ويسندهم في موقفهم لان الشك كان قد تسرب الى جميع النفوس بأنه بات من اليقين عند الجميع بأن الانكليز سيحولون دون سماع اميركا ودون سماع العالم كله ودون سماع مؤتمر الصلح صوت العراق ورغبته وامانيه فرأوا ان يثبتوا هذه الأصوات والآراء والاماني في حجج وعهود يوقعونها بأختامهم وينيبون عنهم الشيخ محمد رضا الشبيبي ليقدمها الى الملك حسين في الحجاز بعد ان يوضح النقاط في تقرير عام يتضمن مطالب العراق في مواد وفقرات.

وهذه الوثيقة اليوم ذات قيمة تأريخية كبرى لأنها اول وثيقة في التاريخ تضمنت طلب الاستقلال وتحديد رغبة العراق في قيام دولته وضمان حريته دون وصاية ولا انتداب ولا اي شيء مما يخدش عزة الشعب ويستغل جهوده وقد وقعها عدد من كبار زعماء كربلاء والنجف من الوطنيين المعروفين باخلاصهم لهذه الدعوة من علماء روحانيين وسياسيين ووجوه كما وقعها كبار زعماء العشائر من لواء الديوانية، وبعض رجالات الحلة، وكانوا يبعثون بهذه

الوثيقة الى وكلائهم في مراكز الالوية للتوقيع عليها ويغلفونها داخل جلــود (المصاحف) الشريفة وداخل جلود كتب الادعيــة من (مفتاح الجنان) و (زاد المعاد) خوفاً من عثور حكومة الاحتلال التي كان موظفوها يتعرضون للمارة بالتفتيش الشديد عند مفترق الطرق بين المدن حينذاك فيفتحها أولئك الوكلاء ويدفعون بها للزعماء حتى اذا وقعوها وختموها اعادوها الى النجف بنفس الطريقة مخبوءة داخل جلود الكتب ومحمولة بأيد امينة اما الذي كان يقوم بتجليد هذه الوثائق فهو حميد زاهد ، وكان يومها من الشبان الوطنيين المتحمسين وكان عمله يومذاك يجمع بين بيع الكتب والتجليد، اما التقرير المربوط بالوثائق فقد كتبه الشيخ محمد رضا الشبيبي بنفسه بالمداولة مع الميرزا محمد رضا الشيرازي والشيخ عبد الكريم الجزائري ، ولم يعرف غيرهم من اسهم في وضع صيغة ذلك التقرير الى جانب الوثائق كما لم يعرف غير الشيخ محمد رضا الشبيبي من وضع هذا التقرير الضافي ودبجه وكتبه وصاغ ديباجته بقلمه وعلى هذا يكون الشبيبي اول من حدد رغبة العراق في استقلاله ، واول من صور امانيه في قيام هذه الدولة التي ننعم اليوم بها واول من سطرها على الورق في تقرير عام احسب ان نصوصه محفوظة في سجلات البروتوكولات من مؤتمر الصلح او لدى وزارة الاستعمار البريطاني ويقول السيد عبد الرزاق الحسني انه استطاع ان يستكتب الشبيبي مضمون ذلك التقرير وانه يحتفظ بنص هذا المضمون من التقرير المفقود . وتكملة للفائدة رأى الشبيبي أن يمر بالمنتفك فيحمل الرؤساء والوجوه على المشاركة في توقيع هذه الوثائق متحفظاً ، وهكذا كان وقد بالغ في نشره ولقي من الشيخ علي الشرقي وكان قد سبقه الى المنتفك ومن الحاج حسين الشعرباف في الشطرة ، ومن السيد عبد المهدي في ابي هاون وفي الشيخ محمود الخليلي الذي كان قد اوفد من قبل الميرزا الشيرازي مساعدة جد ثمينة في انجاز مشروعه ومن هناك دخل البادية يصحبه الشيخ ابراهيم اطيمش بعد ان اوشك ان يقع في الفخ وكانت الثورة قد قامت في العراق وحيل بين الشبيبي وعودته الى العراق ، ومن دمشق استطاع ان يبعث ببعض الاخبار وبصورة للعلم العربي

ضمن رسالة حملها رسول الى شيخ الشريعة ودخل هذا الرسول كربلا عن طريق الاخيضر فعهدت صورة العلم العربي الى السيد ضياء زيني وكان السيد ضياء من الشباب الوطنيين المتحمسين وكان يعمل خياطاً يومذاك في قيصرية (علي آغا) في النجف وذلك قبل انتقاله الى الديوانية فعمل منها علماً كبيراً نصب لأول مرة فوق سراي كربلا وكانت كربلا قد اعتبرت متصرفية وقد تعين لها السيد محسن (ابو طبيخ) متصرفاً من قبل مجلس الثورة، وكان هذا العلم الذي بعث بصورته الشيخ الشبيبي اول علم عراقي رفعه العراق.

كان هذا كل مسموعاتي عنه حينذاك ولم يعد احد يسمع باسم لآل الشبيبي في ميدان الثورة غير اسم الشيخ باقر الشبيبي الذي بدأ يدوي في الآذان وهو يصدر جريدة الفرات لسان حال الثورة العراقية ويلج مؤتمرات الثوار واجتماعاتهم كركن من اركان الثورة ثم يطوف بميادين المعركة بكل جرأة وشجاعة.

ولم اعد ارى الشيخ محمد رضا الشبيبي ولم اعد أسمع اسمه فقد انشغل الناس بالثورة وحل اسم اخيه محله ثم ان اخي (عباس) كان قد فرّ بعد فشل ثورة النجف ١٣٣٦ هجرية وحكم عليه من قبل المحكمة العسكرية الانكليزية بالاعدام غيابياً وانقطعت المجلات والصحف العربية عني ولم اعد اقرأ عن الشيخ محمد رضا الشبيبي شيئاً، ولأول مرة تتجدد ذكراي له وتقع عيناي عليه كان يوم دخل الملك فيصل الأول الى النجف والى جانبه كان يمشي الشيخ محمد رضا الشبيبي فعادت تلك الحلقات من ذاكرتي تتصل ببعضها من جديد في سلسلة اقوى واشد صلابة وفي هذه المرة كان اخوه محمد حسين الشبيبي هو الذي قرب بعضنا الى بعض اكثر حتى اغتدت تلك السلسلة سلسلة متراصة محكمة فقد اعلن الاستقلال وفتحت المدارس وكان لطلاب المدرسة العلوية وخريجيها شأن في هذا الدور فقد بدأ المسؤولون يسعون للبحث عنهم وتعيينهم معلمين في المدارس الاميرية وكنت انا من بعض هؤلاء، وكان محمد حسين الشبيبي طالباً بل انه كان اكثر من طالب لأنني كنت افضله

على بعض المعلمين الذين عملوا معاً في مدرسة النجف الاميرية وزاد محمد حسين من محبتي بآله وراح ينقل لي على سبيل الاستعارة بعض الكتب والمجلات كما كان يفعل الشيخ علي آل كاشف الغطاء الذي كانت تضمه نفس المدرسة طالباً فعلق قلبي بآل الشبيبي اكثر واكثر ولست اذكر بالضبط متى بدأت أدخل بيت الشبيبي ولكني اذكر اني كنت من المتتبعين لآثار الشيخ محمد رضا وآثار ابيه من قبله ثم اني كنت من المتحمسين لفكرته وجماعته تجاه الشيخ علي الشرقي وجماعته فقد باعد الزمان بينهما بعد ان كانا صديقين حميمين وانقسم الناس الى اكثرية كانت مع الشبيبي واقلية كانت مع الشرقي ، ولقد بلغ من غلوّي في الشبيبي ان حدث بيني وبين محمد مهدي الجواهري شيء من سوء التفاهم بسبب تعليقة علق بها الجواهري على بيت للشبيبي وكنت يومها شاباً سريع الغضب أحسب لكل شيء حساباً اكثر مما يتحمله الواقع ولو كنت في عقل هذا اليوم لما اعطيت الامر مثل تلك الأهمية ، فلقد كانت بيني وبين الجواهري صلة صداقة تربطني منذ الصغر ومنذ ان كنا نلعب في الشارع وقد شب الجواهري ونضج أدبه قبل غيره وصار وهو لم يزل بعد صغيراً موضع الاشارة من لدن الجميع .

وقد صارت له ثقة بنفسه جد كبيرة كسبها من كثرة التنويه باسمه في مجالس الادب ودفعته هذه الثقة الى ان يباري كبار الشعراء وينظم على روي قصائدهم فبارى لسان الدين الاندلسي في قصيدته (جادك الغيث اذا الغيث همى) وبارى ابن التعاويذي في قصيدته (قل للسحاب اذا مرته يد الجنائب فارجحن) وبارى الشيخ علي الشرقي في كثير من القصائد ، كما بارى الشبيبي في عدد من القصائد حتى اجتمعت لديه مجموعة من هذه القصائد التي بارى فيها كبار الشعراء وقال لي ذات يوم لو انك سعيت فحملت ضياء سعيد وكان من اصدقائي المقربين على الانفاق على هذه المجموعة واخراجها الى حيز الطبع باسم (حلبة الادب) باعتبارها حلبة سباق فقد جربت انا معه – يقول الجواهري– مختلف الحيل فلم انجح ، فكلمناه معاً وحصلنا منه على مبلغ أخذه الجواهري

وطار به الى بغداد ليطبع به تلك المجموعة.

وبعد مدة عاد الجواهري من بغداد ومعه المطبوع من حلبة الأدب وقد حشّى هذه القصائد بتعليقات لم تخل من وخز في الشرح وكان من بينها مباراته لقصيدة الشبيبي النونية التي يقول فيها الشبيبي :

فتنة الناس وقينا الفتنا باطل الحمد ومكذوب الثنا

حتى اذا وصل الشبيبي في قوله :

كلنا يطلب ما ليس له كلنا يطلب ذا حتى انا

هنا كان الجواهري قد علق باسم ضياء سعيد على هذا البيت بالآية القرآنية : « واعترفوا بذنبهم فسحقاً لأصحاب السعير » فثارت عندها ثائرتي ، وهاج غضبي لأني انا الذي اقنعت ضياء سعيد بدفع نفقات الكتاب فكيف أرضى لأحد ان يمس الشبيبي ؟ ولم اذكر شيئاً اكثر من ان الجواهري قد ارضاني بقوله انه قد قابل الشبيبي فوجده يضحك من هذه التعليقة وليس في ذهنه اي شيء وقد ثبت عندي صدق ذلك فيما بعد وعاد الصفاء بيني وبين الجواهري.

* * *

وعلى ان المسألة لم تكن من الأهمية كما كنت ارى حينذاك فقد علمت من متابعتي لسيرة الشبيبي ان الشبيبي قلما كان يعنى بالوخز واللمز والانتقاد الذي يوجه له حتى لقد يتعذر على القراء ان يجدوا رداً للشبيبي على مواخذيه ولامزيه في كتاب أو مقال ، او رسالة وهي حسنة تسجل له بالاعجاب ولكن هذا الاعراض منه قد تجاوز الحد حتى شمل السكوت عن النقد العلمي فصير من الشبيبي معرضاً عن الرد والاجابة حتى في معرض النقد العلمي والادبي وهو غير مرضيّ طبعاً ، ولقد وقع نظير هذا غير مرة وكان أهمّه النقد الذي وجهه الدكتور مصطفى جواد الى كتاب الشبيبي عن ابن الفوطي وقد كاد يبلغ المائتي صفحة من مجلة المجمع العلمي من العدد الخامس او السادس على اغلب الظن فلم يرد عليه الشبيبي على ما أعلم مع انه من المستحيل ان لا يكون له رأي فيه كله او في بعضه على الأقل.

وقويت صلاتي بآل الشبيبي وبالشيخ محمد رضا حتى راح البعض يتخذ مني وسيطاً في قضاء حاجاته عندهولم يكن الشبيبي عاطفياً اذ لم يعرف عنه انه توسط امرأبداعي العاطفة ولكن هذا لا يمنع من ان يستمع الى هذا والى ذاك ويصرّ الامور غير المعقولة في زاوية من اذنه دون تعليق او اشارة او قبول او رفض ، وقد حدثني مرة ونحن حول مائدة العشاء في احدى السفارات عن شخص متأنق كان يقف مقابل موقفي من المائدة قائلاً لي :

– اترى هذا الرجل الذي يتناول اللقمة باسلوب خاص من التأنق وقد زين رقبته بذلك الرباط الحريري الجميل ؟

قلت – بلى .. – وكنت أعرفه –

قال الشبيبي – لقد جاءني قبل ايام يطلب مساعدتي في ترشيحه نائباً للمجلس النيابي وقال لي : ولما كان موعد الانتخاب للمجلس النيابي بعيداً فاني ارجو ان تجد لي (متصرفية لواء) موقتة (اطقطق) بها بهذا النص (اي يلهو بها) حتى يحين موعد الانتخاب ... ! !

قلت للشيخ – وبماذا أجبته ؟

قال – بالذي اجيب على مثل هذه الامور المضحكة او غير المنطقية ... لقد اجبته بالسكوت ...

واصدرت جريدة (الفجر الصادق) ثم اصدرت جريدة (الراعي) و (الهاتف) من بعده فأحكمت هذه الجرائد الصلة بيني وبين آل الشبيبي وصار لي بالشيخ محمد رضا ارتباط اوثق فقد كانت جرائدي ادنى الى ان تكون جرائد عامة تتناول المواضيع من جميع اطرافها حتى لقد تناولت كثيراً من المواضيع السياسية بالرغم من كونها غير سياسية وقد اغلقت الحكومة جريدة (الراعي) وسحبت امتيازها لهذا السبب ، وقد كنت آخذ برأي الشيخ محمد رضا في كثير من الاحوال وكان الشيخ محمد رضا يخصها ببعض آثاره وكان قد اصفى مدة فلم ينظم شيئاً وحين عاوده الشعر بعد زمن طويل

من الاصفاء خص (الراعي) بالقصيدة الاولى التي يقول فيها :

عاودك الشعر ملماً وما عاود بعد القطع مشتاقا
عاودك الداء دوياً فبت يا قلب من دائك خفاقا

ثم لم ينظم بعد ذلك الا القليل من الشعر ومن هذا القليل او لعله آخر ما نظم الشبيبي كانت القصيدة التي تليت في مهرجان المتنبي بمدرج الجامعة السورية من صيف سنة ١٩٣٦ وقد حضرت هذا المهرجان انا وجعفر الشبيبي ومحمد حسين الشبيبي وشاهدت بنفسي وقع هذه القصيدة في نفوس المحتفلين وقد بدأها بقوله :

يا قلب عادك من دمشق عائد والذكريات من الحبيب تعاود
ايام ننشد في الجزيرة غاية يسمو بفكرته اليها الناشد
ما بيننا الا شباب طامح او ثائر او ناقم او واجد ... الخ .

وبلغ من اتصالي بالشيخ الشبيبي انني كنت اقضي الكثير من اوقاتي في بيته ببغداد حين يتم لي السفر الى بغداد ، واقضي الكثير من الاوقات في بيته في النجف حين يكون والده الشيخ جواد او يكون هو في النجف وفي سنة ١٩٣٠ كنت مدرساً في ثانوية النجف وكان الشبيبي وياسين الهاشمي وحزبهما قد وقفوا ضد ابرام المعاهدة بين العراق وبريطانيا تلك المعاهدة التي قُبِل بمقتضاها العراق عضواً في عصبة الامم وقد جاء الشبيبي الى النجف وهو يشتعل غضباً ولست ادري كيف تأخرت عن زيارته طوال خمسة ايام من قدومه وفي هذه الأثناء زار الملك فيصل الأول النجف فاستقبل استقبالاً رسمياً وكان بين المستقبلين مدرسة الثانوية ومدرسة الغري الأهلية وقد وقعت قبيل وصول الملك فيصل مشادة بين بعض طلاب الثانوية وطلاب مدرسة الغري بسبب الموقف والمكان ادت الى مشاركة بقية الطلاب في هذا الشجار وسار الهرج والمرج حتى ظن بأن الحركة كانت مقصودة ، وفسّرت من قبل الشرطة

تفسيراً كاذباً وكان مأمور المركز حينذاك السيد محمد الخارجي فقال في التقرير الذي كتبه بأن الشيخ محمد رضا الشبيبي الغاضب على المعاهدة لم يجيء الى النجف الا لغرض احداث هذا الشغب وانه هو الذي دفع بجعفر الخليلي بأن يثير في وجه الملك فيصل هذه الزوبعة وان جعفر الخليلي استطاع ان يستميل مدير الثانوية وكان المدير حينذاك ذنون ايوب فوقع ما وقع .

وفي ايام قليلة ودون استجواب او سؤال جرى نقلي الى سوق الشيوخ ونقل ذنون ايوب الى اربيل ، وانا لم ار الشبيبي منذ ان وصل النجف ولعله لم يعرف بنقلي الا بعد وقوعه .

* * *

وحدث بيني وبين الشيخ محمد رضا شيء من الفتور بسبب قضيتين احداهما تتعلق بالشيخ محمد الشريعة والثانية بالشيخ حسين مروة ، (حسين مروة اليوم) وكنت انتظر انجاز القضيتين على يديه على ما وعدني حتى اذا تحققتُ من عدم انجازها احسست بالخيبة والألم فانقطعت عن الشيخ محمد رضا دون عتاب ولا سؤال . ولا استفسار ، وتحاشيت منذ ذلك الوقت رؤية الشيخ محمد رضا واقتصرت زيارتي في النجف وبغداد على الشيخ جواد الوالد وعلى الشيخ باقر واخوانه .

وحين توفيت والدة الشيخ محمد رضا نظم الشيخ باقر الشبيبي قصيدة رثاء غاية في الروعة وفي مجلس الفاتحة الذي اقيم للأم خصني الشيخ باقر بهذه القصيدة لتنشر في (الهاتف) ، وكان (الهاتف) قد ألزم نفسه بأن لا ينشر المنشور من المقالات والقصائد ، وان ما يتلقاه من الشعر والنثر يجب ان يكون خاصاً به دون غيره ، وقد اخذ بهذا المبدأ طوال السنوات العشرين التي صدر فيها ، ولم ينشر في الغالب الا الجديد من الأدب والا ما كتب خصيصاً له وقد قدم (الهاتف) لقصيدة الشيخ باقر مقدمة ضافية اشار فيها الى مواطن الابداع من شاعريته وقيمة هذه القصيدة بالذات بصفتها صورة صادقة لاحساس

شاعر مرهف الحس مفجوع بأعز خلق الله اليه وهو الام وقد قال الهاتف في مقدمته ان شاعرها قد خصه بها وقد جرت العادة ان ينتهي الهاتف من طبعه عصر كل يوم اربعاء فيرسل الى البريد ليوزع يوم الجمعة في اغلب المدن العراقية .

وفي يوم الخميس وافت جريدة الجواهري واظنها (الفرات) وفيها قصيدة الشيخ باقر الشبيبي المذكورة فكأنها لم تأت الا لتقيم الدليل على تكذيب (الهاتف) حين زعم بأن القصيدة خاصة به ، وقد هاجني ذلك وانا عصبي المزاج فكتبت تحت تأثير هذا الهياج الى الشيخ باقر رسالة فيها شيء من مرارة العتاب والمؤاخذة وكان المنتظر على حد ما توقعت انا ان يكون الجواب من الشبيبي اعتذاراً عما يكون قد وقع بحيث استطاع الجواهري ان يأخذ القصيدة وينشرها في جريدته على اساس القاعدة المعروفة (لعل لها عذراً وانت تلوم) ولكن الشيخ باقر كان احد مزاجاً مني فرد على كتابي بعنف حوى الشيء الكثير من الايلام وتحقق بذلك المثل العامي المعروف « وقع الحديد على الحديد ورنّ » وبذلك انقطع بيننا حبل الاتصال ، واصبحت زيارتي مقتصرة على الأب الشيخ وحين توفي الاب الشيخ انقطعت زيارتي لهذا البيت ولكن محبتّي لم تنقطع وكل ما بقي في نفسي انما هو شيء من الزعل الذي ما لبث ان تبدد بفضل بقية الاخوة ولا سيما محمد جعفر الشبيبي ومحمد حسين الشبيبي .

واذا كانت العلاقة قد انقطعت بالشيخ محمد رضا الشبيبي بسبب انقطاع زيارتي له فانها لم تنقطع في الخارج فكثيراً ما كانت تجمعنا دعوة في حفلة عامة او وليمة عشاء في سفارة فاحسُّ بأنه يميل الى ان اكون بجانبه وألتذ بحديثه بل انه ليسألني عن اشياء كثيرة ربما لا يبتغي من ورائها الا ان يبدد تلك السحابة فهو حين عاد من طهران وقد كان عضواً في وفد العراق لمهرجان ابن سينا المؤلف منه ومن منير القاضي ، والدكتور مصطفى جواد وغيرهم رآني في حفلة السفارة اللبنانية واستوقفني كمن يريد ان يتخلص بسببي من مزاحمة الآخرين وقال لي :

– اتدري اني قد رددت لأخيك عباس الخليلي الفضل الذي كان له علي قبل اربعين سنة ؟

قلت – لا احسب ان لاخي ولا لغيره فضلاً عليك .

قال – لقد وقع ما يقارب الأربعين سنة بيني وبين احد اصدقائي شيء من الجفاء وسوء التفاهم وقد استعصى امره فتدخل اخوك وقد أزال ما وقع بيني وبين ذلك الصديق من سوء التفاهم ، وفي طهران اقام اخوك لي وللوفد العراقي وليمة . وفي هذا اليوم علمت بأن بين اخيك وبين رئيس مهرجان ابن سينا قد حدث شيء ربما اكثر مما كان قد حدث بيني وبين صديقي قبل اربعين سنة وقد سعيت ان آخذ رئيس لجنة المهرجان معي الى وليمة اخيك وان لم يكن مدعواً وهناك اصلحت بين الاثنين وكان لا بد لاخيك ان يوافق لان الصلح جرى في بيته اولاً ، ولانني اردت ان ارد له فضله واقابل احسانه باحسان ولو بعد اربعين سنة .

* * *

والشيخ محمد رضا سريع البديهة . حلو النكتة وقد ورث هذه الملكة عن ابيه الشيخ جواد الشبيبي الذي قل من كان يجاريه فيها شعراً ونثراً ، وهو يرسل النكتة دون محاباة من كبار المسؤولين في الدولة او غيرهم وحتى مع الروحانيين .

ولقد جمعت المائدة مرة بينه وبين نوري السعيد فانتحيا جانباً من احدى السفارات وهما يأكلان وكلاهما اعني الشيخ محمد رضا ونوري السعيد معروفان بتلذذهما بالمآكل فقال السعيد معرضاً بالشبيبي :

– على مهلك يا استاذنا فلا يبعد ان يكون هنالك من يرصدنا ليحصي على احدنا ما يلتهم من اللقم ...

فقال الشبيبي وهو يرد التعريض – لا يهمك يا باشا فقد يكون بيننا من يتعذر على المحصين احصاء لقمته (وهو يريد بذلك ان النهم قد بلغ بالسعيد

بحيث صار يزدرد اللقمة دون مضغ) .

مشينا مرة نخطب ابنة السيد حسن الرفيعي المهندس لابن السيد حسين النقيب وكان الشبيبي حاضراً ، وقد ضايقه وقت الصلاة في بيت آل الرفيعي فطلب سجادة ليصلي عليها وحين فرشت له السجادة تبادر الى ذهني وهماً بالنظر لموقع البيت الذي نحن فيه انهم قد مدوا السجادة بعكس القبلة فقلت للذي فرش السجادة : بل ان القبلة بعكس هذا الاتجاه واشرت الى الجهة التي توهمت خطأً انها القبلة فقال الشبيبي :

ـ انما تلك هي قبلتك ..

فضحك الجميع وضحكت انا وخشيت ان يظنني هازلاً حين اشرت الى الجهة المعاكسة للقبلة فقلت :

ـ ولكني قلت ذلك جاداً .

فقال الشبيبي وقد ادرك براءتي :

ـ اما انا فقد قلت ذلك مازحاً .

وتحدث الشبيبي في الآونة الأخيرة وهو قادم من اجتماع مجمع اللغـة الأخير في القاهرة بأن الدكتور طه حسين قال له : لقد طالعت تاريخ العراق منذ الفتح الاسلامي حتى السنين الاخيرة فلم اجد العراق الا ثائراً صاخباً هائجاً فما السبب ؟

قال الشبيبي فقلت له : ـ وانا الآخر قد سبرت تاريخ مصر منذ مبدأ التاريخ حتى اليوم الأخير فلم اجد مصر الا خاضعة خانعة ساكنة في جميع ادوارها فما السبب ؟

قال الشبيبي ـ فظن الدكتور طه حسين انني لم استسغ سؤاله او انني وجدت فيه مطعناً حملني على الرد عليه كمقابلة بالمثل فقال لي :

ـ والله لم يكن غرضي من سؤالي الا الوقوف على الحقيقة !

فقلت له – يقول الشبيبي – وانا والله ايضاً لم اقصد شيئاً غير معرفة الحقيقة .

والشبيبي مع النجفيين غيره مع غيرهم على ما اعتقد فالمعروف عن النجفيين انهم يصفقون للنكتة وان كانوا هم مغزاها بل ان الكثير منهم ليأتي بها وهو نفسه موضوعها الذي يثير ضحك الناس منه والتنكيت به وهذا ما يجعل هذا الجانب من الشبيبي الظريف السريع البديهة والنكتة وهو في بغداد غير جليّ تماماً كما لو كان في النجف .

لقد جاءه مرة الشيخ قاسم محي الدين عارضاً عليه مجموعة شعره المسماة بالشعر المقبول والتي تتضمن جانباً من اخبار الرسول ومدائح آل البيت ومراثيهم في شواهد من الاخبار والاشعار المروية طالباً من الشبيبي ان يقرضها له ببيت او بيتين من الشعر (ويرجع نسب آل محي الدين الى ابي جامع) فتناول الشبيبي هذه المجموعة وبعد تأمل دقائق كتب له عليها ثلاثة ابيات هذا نصها :

يا قاسم يا ابن ابي جامع يا ناظم الاشعار مروية
يا راثي الهادي وابناءه ذرية من بعد ذرية
احسن ما فيها على حسنها انك فيها حسن النية

والشيخ قاسم محي الدين يعرف الشعر جيداً ولم يخف عليه شيء ومع ذلك فقد استساغ الأبيات وطبعها في صدر ديوانه .

وبعد زمن سألت الشيخ قاسم كيف رضي بأبيات الشبيبي تقريظاً وثناء وهي الى الهجاء اقرب منها الى الثناء ، فقال لي :

يكفيني من طبع ابيات الشبيبي في صدر هذه المجموعة امران الأول اعتراف الشبيبي بحسن هذا النظم في قوله :

« احسن ما فيها على حسنها » .

والثاني كونها من الشبيبي تكفي لتكون تقريظاً جميلاً عند اكثر الناس اذا لم تكن عندك وعندي انا ... ! !

وقد سبق حفني ناصيف الشبيبي في مثل هذا التقريظ او مثل هذا التخلص الفني البديع حتى اضطره احد الشبان الى ان يقرظ له ديوانه فكتب حفني في صدر ديوانه الأبيات التالية :

شعر الفحول الاولين   اساسه شعر كهـذا
لكنهم حرصـوا على   كتمانـه الآ جـذاذ
لا بأس فالهطل الأجش   يكون اوله رذاذا
فاعكف على الشعر القديم   ولذ بكعبته لـواذا
وقل القليل فانـه   بين الورى امضى نفاذا

ولكن ميزة الشبيبي هنا كامنة في النكتة البارعة التي حكاها الشطر الأخير من ابياته حين قال :

« انك فيها حسن النية »

وهي من النكت التي تلازم الشبيبي فتلمسها في مجالسه كافة .

كنت قبل مدة قليلة من المدعوين للعشاء على مائدة السفير الاميركي ببغداد ولم يكن المدعوون غير افراد قلائل بينهم الدكتور مصطفى جواد ، واحمد حامد الصراف ، والدكتور علي الوردي وغيرهم وكان بعضهم لاهياً بالكأس ، ولما كنت لم اعتد تناول المشروب انتحيت في ركن من اركان الصالون وجلست وحدي فما لبث الشبيبي حتى توجه الى مكاني وجلسنا معاً وما كدنا ندخل في الحديث حتى جاءت السيدة عقيلة السفير فرحبت بنا ثم جاء السفير نفسه فجلس معنا ، وعلى قدر ما اعرف من كلمات الاتيكيت باللغة الانكليزية شكرت باسم الشبيبي واسمي السفير على دعوته ، وقد فهمت من السفير انه كثير الامتنان من قبول الشبيبي دعوته وانه ليود ان تساعده الفرص ليجتمع به اكثر ويستمع الى آرائه ونقلت ذلك للشبيبي على قدر فهمي لكلام السفير واحسب انه قد طار من حديثه اكثر من سبعين بالمائة ، فقال لي الشبيبي قل له : وانا كذلك اود كثيراً ان اقول لك اشياء كثيرة تخص فلسطين وتخص البلدان

العربية عامة وتخص العراق خاصة ، فقلت للشبيبي :

ـ لا احسبني قادراً على نقل افكارك والتعبير عنها الى السفير لأن معرفتي بالانكليزية لا تزيد على معرفة طالب مبتدىء عرف منها التحية ورد التحية والسؤال عن الكيف واداء الشكر وما يقتضيه الاتيكيت البسيط فقط .

قال الشبيبي وقد ظنني متواضعاً ـ قل له ذلك بأية صورة .

فسعيت ارتب الجمل بالعربية وانقلها الى الانكليزية بجهد وقد سرني ان فهمت ان السفير قد ألمّ بالمقصود فأضاف الى قوله بأنه يرحب بكل شيء يقوله له الشبيبي ، وسأل ما اذا كان يستطيع ان يزور الشبيبي في بيته . وكنت استعيد منه القول كلما غمض علي الامر ، فقال له الشبيبي كما تحب ، ومتى تحب ، فليس هناك من مانع يقف دون زيارتك او زيارة اي شخص يهمه ان يشرف او يهمه ان يتعرف بنا وقال غير ذلك مما لا اذكره واجاب السفير بما لم افهم اكثره .

وحضرت الشبيبي النكتة فقال لي ما احسب ان احداً ابتلي بمثل ما ابتليت انا بك ومثل ما ابتليت انت بي في هذه الليلة ، فلا انا كنت قادراً على السكوت امام مجاملة السفير ولا انت كنت قادراً على ترجمة اقوالي وترجمة اقواله ، والآن قل لي ـ قال الشبيبي ـ هل كنت تفهم ما كان يقوله السفير حقاً ؟ او الاصح هل كنت تفهم ما كنت اقوله لك انا ؟ (وهنا النكتة) .

قلت له مازحاً ـ لقد كنت افهم ما كان يقوله السفير جيداً ، اما الذي لم اكن افهم منه شيئاً فهو الذي كنت تقوله انت ...

فضحك وقال ـ أجاد .. أجاد ..

ثم ضحك قليلاً ومرة اخرى قال ـ أجاد .. أجاد

وحين انتهت الدعوة قال الشبيبي :

ـ ألديك واسطة توصلك الى البيت ؟

قلت ـ لا املك واسطة ولكني لا أعدمها وانا بين جمع من الاصدقاء

قال ـ تعال معي لاوصلك بسيارتي .

ولأول مرة يعرف الشبيبي موضع بيتي من بغداد لأن الجفوة التي اشرت اليها كانت قد طالت بيني وبين زيارتي بيته طوال هذه السنين فلم يعرف اين نزلت انا يوم تم لي الانتقال الى بغداد وقال ونحن في طريقنا الى البيت قال : انه من المؤسف ان لا يعرف موضع بيتي طوال هذه الأوقات فلم أحب أن أتعرض لماض كنت قد نسيته واردت ان اغيّر الحديث فقلت له ما قد كنت اقوله لغيره عن موضع بيتي ، قلت له :

ـ ان في بيتي علامة تجعل البيت معروفاً لدى الجميع وهي وجود شجرة تعتبر من اعلى الأشجار في بغداد اذا لم تكن اعلاها قاطبة ولو كانت شجرة مثمرة ذات نفع لما تم لها ان تقوم في بيتي ولكنها صفصافة ليس بها غير الورق .

* * *

والشبيبي من اكثر من عرفت من يربط الحوادث بأصحابها فاذا رأى شخصاً ولو بعد فراق طويل استعرض فيه كل ما مر من حوادث ذات ارتباط بالتاريخ او الادب او السياسة ولذلك حوى صدره العدد الكبير من الحوادث والوقائع ، فحفل ديوانه بما يطيب من القصص وبما يبهر من الأدب وما يفيد من وقائع السياسة ، ويكشف عن المعميات مما يكتنف تراجم الرجال ، والى مخطوطاته هذه يعود شيء غير قليل من سر عظمته وانك لتشعر وانت تحدثه بملء الحرية في تبادل الرأي بعيداً عن الغرور والكبرياء ، ثم هو لا يلتقي شخصاً الا ويحييه بتحية خاصة ويذكره بما يلذ ان يذكره به كأن يريد ان يقول له ، جداً ام هزلاً انه لا ينساه او لا ينسى براعته المعينة في اي موقف كان قد وقفه محدثه في الشعر او النثر او الخطبة او القصة او الحادثة مما يعرف بها الشبيبي عنه او عن اسرته الادنين او الابعدين .

كان الشبيبي يمثل العراق في مهرجان (جامعة القرويين) في المغرب

وجامعة القرويين تقع في سفح الجبل الذي تقوم عليه مدينة (فاس) وكان على الوفود ان يقصدوا (الجامعة) مشياً لتعذر استخدام الوسائط بسبب ضيق الطرق الموصلة الى الجامعة بين تلك البيوت القديمة المتصل بعضها ببعض. وكان النزول من الجامعة من الاعالي سهلاً جداً بسبب الانحدار ، وحين حاول الوفد العودة عاد الاقوياء منهم صاعدين من حيث جاؤوا نازلين وتخلف اربعة اعلنوا انهم قد ماتوا من التعب ، وانهم يعلنون الاضراب لأنهم لا يطيقون الصعود مشياً على الأقدام ، وكان هؤلاء الأربعة هم : الشيخ محمد رضا الشبيبي ، والشيخ محمد رضا المظفر ممثلين عن العراق ، ونائب الشيخ محمود شلتوت ، وعزيز اباظة ممثلين عن الجمهورية العربية المتحدة ، وقد مات الثلاثة اليوم ولم يبق غير عزيز اباظة مد الله في عمره وابقاه.

وكان المسؤولون عن ضيافة الوفود والذي يرأس التشريفات هو السيد عبد الهادي التازي سفير المغرب اليوم بليبيا ، وكان التازي هو الشخص الوحيد الذي يستطيع ان يفصم حلقات اضراب الشيوخ العجزة بتدبيره ولياقته خصوصاً وان الملك محمد الخامس كان ينتظر وصول هؤلاء الأربعة لحضور المائدة فليس هنالك مجال لتأخير التدبير ولهذا اتصل الاستاذ (التازي) بالتلفون بمدير الأمن العام وقال له بالفرنسية (موردي فاتيك) اي ان الاربعة من الوفود قد ماتوا من التعب وطلب من مدير الامن اتخاذ تدبير مستعجل فطمنه مدير الأمن بأنه لن تمر نصف ساعة حتى ويسوى كل شيء.

وبعد ما يقرب من ساعة جاء اربعة من الحمالين يحملون اربعة توابيت لكي ينقلوا فيها الأموات الأربعة لأن مدير الأمن العام قد فهم من كلمة (موردي فاتيك) انهم ماتوا حقيقة فاستفزت هذه التوابيت وهي تمر بين المساكن عواطف الناس ودهشتهم وراح يسأل بعضهم بعضاً عمن مات من هؤلاء الوفود ؟ وكيف مات الأربعة مرة واحدة ؟ وما كادت تصل هذه التوابيت الى مقر الوفد المتمرد على صعود الجبل حتى عرف السيد التازي سر وقوع هذا الخطأ الفظيع فصرخ بالحمالين ان يختفوا عن الأنظار حالاً ويدعوا الأرض

تبتلعهم قبل ان تقع عين الوفد عليهم ، ولكن الشبيبي كان قد رأى تلك التوابيت وعرف قصتها وضحك ملء شدقيه مما وقع . ثم تم لهؤلاء الأربعة ان يقطعوا نصف المسافة على ظهور الخيل والنصف الآخر بالسيارة الصغيرة الخاصة بالملك محمد الخامس التي كان قد طلبها التازي من الملك رأساً والتي كانت تستطيع ان تقطع في سيرها حداً معيناً من تلك الأزقة الضيقة .

وحين وصل الوفد الى مقره قال الشبيبي للملك محمد الخامس وهو يشير الى السيد عبد الهادي التازي .

ـ هذا الرجل يا جلالة الملك قد أنقذني من الموت .

ثم صار كلما رأى السيد التازي ببغداد في ايام سفارته خلط بين تحيته وقوله « هذا الرجل أنقذني من الموت » ثم يجري بعد ذلك في شؤون اخرى من الحديث .

* * *

وطلب مني رشاد بيبي مرة ان اتصل بالشبيبي لاحصل له على موعد يستطيع به ان يسجل للشبيبي حديثاً لمحطة الشرق الأدنى فاتصلت من مكتبي بجريدة الهاتف بالشبيبي وقلت له أن رشاد بيبي هنا ، وهو يطلب منك موعداً للمقابلة ، فقال مداعباً : سله اذا لم تكن تعرف انت عن كنه هذه النسبة ومعناها فما هي (البيبي) هذه ومن اين جاءته ؟

وسألت رشاد بيبي والتلفون لم يزل مفتوحاً عن هذه النسبة ـ ورشاد بيبي ذكي ولبق ومرح ـ فقال قل له ان هذه (البيبي) هي (الشبيبي) ناقصاً بعض الشيء ، او (الشبيبي) مزيدة بعض الشيء .

ومنذ ذلك اليوم والشبيبي كلما رأى (رشاد بيبي) قال له مداعباً كيف

حالك (يا مقطوع الرقبة) وبذلك يورّي بين (البيبي) المقتطعة من كلمة (الشبيبي) على حد قول رشاد بيبي وهي الشتيمة المألوفة على الألسن وعلى الأخص في لبنان .

* * *

وللشبيبي جوانب متعددة ، كل جانب منه يحكي دنيا مستقلة ليس من الهين اعطاؤها حقها من الدرس والتأمل ، فالشبيبي الشاعر وقد بدأ النظم وهو في منتصف العقد الثاني والذي لم يكد يقبل على العقد الثالث حتى كان من المجلّين ومن فحول الشعراء الذين يصلح ان يكون شعرهم منبعاً من منابع الأمثال في كل ميدان من ميادين الأدب والاجتماع والسياسة ، وقد ترك لنا من الشعر ذخيرة ميزتها أنها ستظل خالدة بخلود الزمن .

ثم الشبيبي البحاثة وقد بدأ الدرس والبحث والتنقيب في بطون الكتب وزوايا التاريخ وواكب النهضة العلمية العراقية وساعد على انتشار العلم ، وهو مؤلف ثم وزير للمعارف ، وعضو في المجمع العلمي العراقي ، وعضو في مجمع اللغة في القاهرة ، ورئيس للمجمع العلمي العراقي ثم كاتب يستعرض كتب المؤلفين ويضع لها المقدمات .

ثم الشبيبي السياسي ويعتبر من قدامى السياسيين العراقيين واول من عبّر بقلمه عن أماني العراق في استقلاله حين وضع اول تقرير بالوثائق التي سجلت طلب الاستقلال الخالص من الشوائب ؛ ومن السياسيين الذين دخلوا ميدان السياسة بقلوب نقية طاهرة وخرجوا منها ناصعي الجبين ؛ وهو نائب في المجلس النيابي ووزير في الحكومة ، وعين في مجلس الأعيان ، ورئيس للأعيان، وعامل اساسي في الأحزاب النيابية .

وجوانب اخرى سيكشف عنها الكتّاب والباحثون مما لا يجود بها الزمان مجتمعة الا نادراً وقد كان الشبيبي من هذا النادر .

وكان الشبيبي نشطاً وقد دخل العقد الثامن ولم تبن عليه آثار الكلل والملل من العمل ولكنه ظهر عليه شيء من الفتور والضعف في سنينه الأخيرة ومنذ فجع بوفاة زوجته ، فقد أحس بالألم يغمر كل وجوده وقد علمت مما نشره صبيح الغافقي في جريدة (البلد) أنه عاد للشعر مرة اخرى بعد أن هجره للمرة الثانية اكثر من ثلاثين سنة وانه نفّس عن نفسه في قصيدة رثى بها زوجته وقد بدأها بما يلي :

في كل ركن من المأوى لها اثر　　فكيف تحجبها الارماس والحفر

ولا يبعد ان ظل يبكيها حتى فارق الحياة وان لم يره احد باكياً ، فقد كان ذا وجه لن تجد للألم ظلاً على اديمه ، ولكنه كان ذا قلب لم يترك الاحساس موضعاً منه خالياً من الألم حتى مات .

مات الشبيبي وقال المؤبنون فيه الشيء الكثير من روائع القول ومع ذلك فلم أجد قولاً اكثر انطباقاً على الشبيبي من قول الشبيبي نفسه في رثاء الشيخ الملا كاظم الخراساني المرجع الديني الكبير حين قال

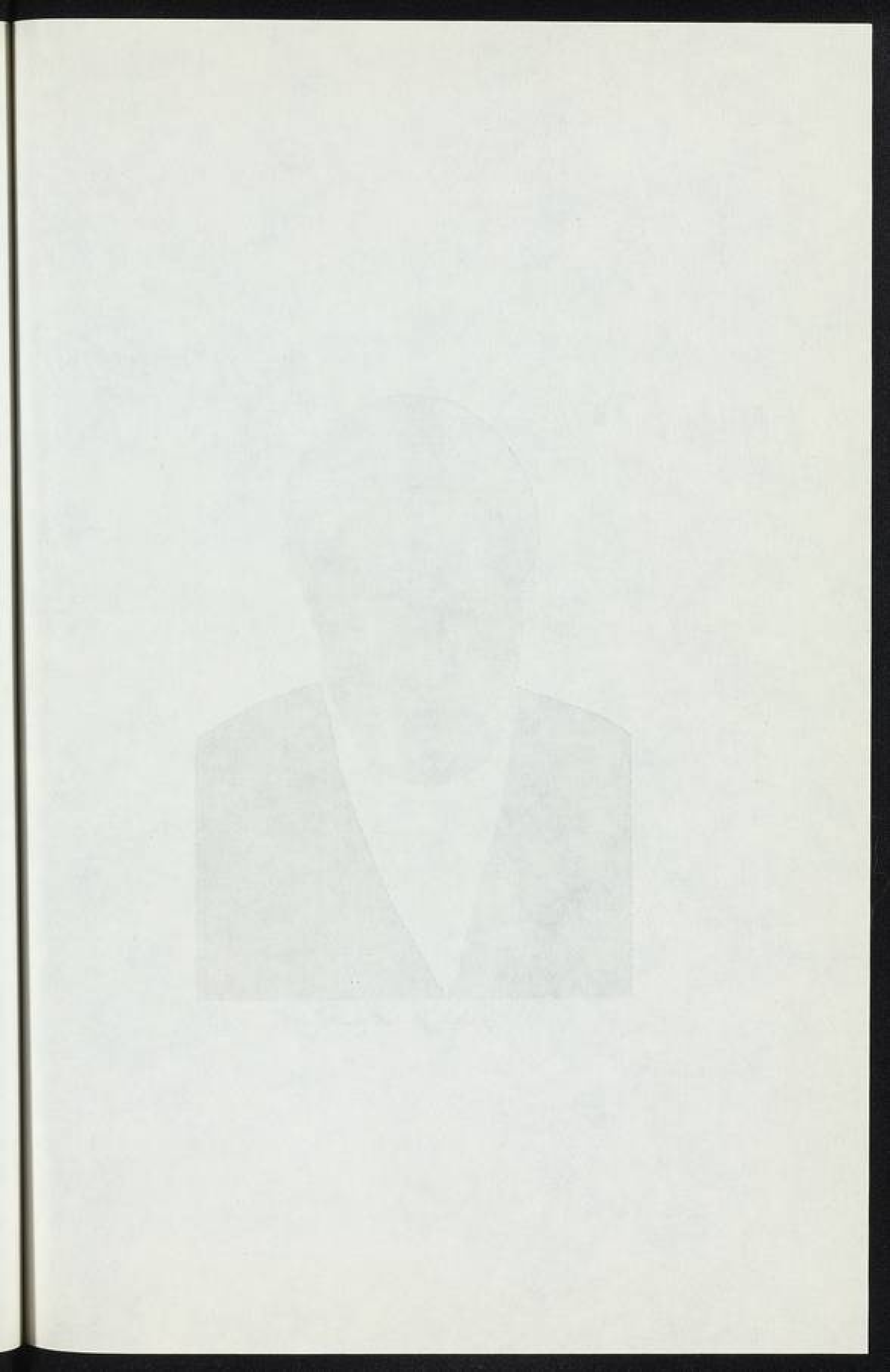
بعداً ليومك لا كانت صبيحته　　ولا دجت بعده الا لياليـنا
صحنا عليك به حزناً وآنسهـا　　فاستبشرت فرحاً فيه اعادينا
لم ادر حيرت فكراً انت مرشده　　من اين كونك الجبّار تكوينا
اظنه صنع الايمان جـوهرة　　فكنت ذلك لا ماء ولا طينا

وهكذا كان والله الشبيبي عفة ، وتقى ، وادباً ، وصلاحاً ، وسياسة ، وقد فوجئت بموته مفاجأة تلقيتها صدمة نفسية عنيفة وحين حضرت تشييعه

شاهدت بين مشيعيه شخصين ممن رافقا جانباً من جهاده الأول في الثورة العراقية ، لقد شاهدت السيد عبدالمهدي المنتفكي وشاهدت الحاج حسين الشعرباف ودنوت من السيد عبد المهدي معزياً فانتحب في وجهي وانتحبت انا وقد رآنا الواقفون حولنا باكيين على انه قل من رآني انا كما قل من رأى السيد عبد المهدي على ما اظن باكياً ، ولكن الفجيعة بالشبيبي تخرج الانسان على طبيعته فتنهمر الدموع دون اختيار منه .



الشيخ محمد علي اليعقوبي



كيف عرفت

الشيخ محمد علي اليعقوبي

تعود بي الذكرى الى سنة ١٩٢٩ يوم كنت اصدر جريدة الفجر الصادق في النجف الأشرف ويوم بلغت الخصومة بيني وبين الخطيب المرحوم السيد صالح الحلي اشدها فانعكست في هجوم عنيف على لسانه والسنة الخطباء الآخرين من تلامذته ومؤيديه فوق اعواد المنابر وفي هجوم عنيف من قلمي فوق صفحات جريدة الفجر الصادق ، وكانت هذه الخصومة من ذيول المعركة التي كان سببها تحريم السيد محسن الأمين الضرب بالسيوف والسلاسل في ايام عاشوراء والذي ايده المرجع الروحاني الكبير السيد ابو الحسن الاصفهاني فانشق الناس الى حزبين ، حزب مشى وراء دعوة (الأمين) في تحريم هذه المراسيم فسمي هؤلاء (بالأمويين) نكاية بهم ، وحزب شجب هذه الدعوة وكفّر معتنقيها ودعا بالويل والثبور فسموا (بالحسينين) تمجيداً لهم ، وكان يقود هذه الحركة الخطيب السيد صالح الحلي صادعاً بأوامر كان يتلقاها من مراجع دينية اخرى هي والسيد ابو الحسن على خلاف كبير بسبب المرجعية، وكنت انا من (الأمويين) وعلى ان العاصفة كانت قد هدأت بانتصار جماعة (الحسينيين) ولكن بقايا لها دفعت بي الى ملاحقة السيد صالح الحلي وتعقيبه وتأليب القراء عليه فيما كنت انشره في جريدتي (الفجر الصادق) ، واشتد هو في غلوائه وأخذ منه

الغرور وهو الخطيب البارع العارف بكيفية استهواء الجماهير وجلبهم حتى تناول (الأصول) و (الاجتهاد) بالنقد والتعريض الأمر الذي كبر على السيد أبي الحسن وعدّه خروجاً على نواميس المذهب فحرّم استماع محاضرات السيد صالح والجلوس تحت منبره ولكن مثل هذا لم يكن كافياً لمنع الناس عن حضور مجلسه خصوصاً وان مراجع أخرى كانت تؤيده ثم ان السيد صالح خطيب فذّ وعلى جانب كبير من اللياقة واللباقة ومعرفة مواضع الكلم ، وكان لمن يريد ان يخرجه من الميدان ان يأتي بمن يسدّ هذا الفراغ ثم يدعمه بالفتوى ، والتفت الملتفون الى جميع الجهات فلم يجدوا شخصاً تتوفر فيه هذه المزايا غير الشيخ محمد علي اليعقوبي الذي اختبر بعض الاختبار من تردده على النجف والقراءة فيها بعض الأحيان ، وعرف البعض ملكاته .

وكان الشيخ محمد علي اليعقوبي يقيم يومذاك في الحيرة (الجعارة سابقاً) وأهل الجعارة معروفون بحسن اختيارهم للخطباء وتمسكهم بهم وكان الشيخ محمد علي قسام خطيب الثورة العراقية من خطباء الجعارة ومن ساكنيها قبل اليعقوبي ولم ينتقل منها الا بشق الانفس كما يقولون لذلك لم يكن انتقال الشيخ محمد علي اليعقوبي من الجعارة الى النجف سهلاً على رغم انه لم يكسب بعد الشهرة التي كسبها الشيخ القسام ، والسيد الحلي . فتضافرت الجهود مدعومة برغبة من المرجع الروحاني السيد أبي الحسن لتحمل اليعقوبي على ان يجمع بين (مجالس) النجف و (مجالس) (الجعارة) وان يعطي النجف اكبر حصة من المجالس ، وكانت (جريدة الفجر الصادق) من اشد الداعين الى اليعقوبي ومروجي اسمه ، والتعريف به ، ومن هنا بدأت معرفة النجف ومعرفتي انا باليعقوبي بصورة واسعة ، ولم يمرّ بعض زمن حتى اضطر اليعقوبي بداعي كثرة مجالس النجف والكوفة التي شعرت بخطورته الأدبية والتاريخية الى الانتقال من الحيرة الى النجف وبدأ نجم السيد صالح الحلي بالافول كما بدأ نجم اليعقوبي بالصعود وهو يتلألأ ، ويشع اكثر يوماً بعد يوم ، على الرغم مما كان يوجهه السيد صالح اليه من نقد ، وتنديد يفرغه في صراحة مرة وفي كناية

مرّة أخرى ، فقد كان السيد صالح سليط اللسان جريئاً ، يخشاه اجرأ العلماء وكان اليعقوبي مسالماً عف اللسان بعيداً عن اللمز والغمز لذلك لم تبد منه ولا كلمة شائنة في حق السيد صالح وانما كان يستظهر على السيد صالح فيما كان يبهر به حضار مجلسه من اطلاع واسع ووقوف تام على التاريخ الاسلامي وتاريخ الأدب فقد كان اليعقوبي موهوباً وكانت له ملكات طبيعية ممتازة تضافرت على رعايتها وصقلها واخراجها الى حيز الوجود تنشئته التي تولاها ابوه الشيخ يعقوب الذي كان هو الآخر من خطباء الحلة الموهوبين البارعين ودعمه هذا الغرام العارم بمطالعة الكتب والدواوين حتى كوّن منه شخصية فذة .

وقد وصفه الاستاذ توفيق الفكيكي في جريدة (الهاتف) مرة فقال عنه : « هو ربعة لم يكن بالخيط الباطل ، ولا بالقصير البائن . وتكاد قامة هذا الشاعر توازي قامة صديقه الفكيكي الناثر – وقد اخذت انا في وقته على الفكيكي هذا الوصف الذي ينطبق على اليعقوبي ولا ينطبق على الفكيكي – اما عيناه – يقول الفكيكي – فيبديان الشكوى والظلامة من السهر الطويل على صيد الشوارد ، وقيد الأوابد الا انهما يشعان اشعاع كيوان او سهيل في ليل الشتاء البهيم او كبصيص الأمل للمأمل .

وهذا الشيخ الأديب البارع ، والشاعر المبدع المخترع ، والمؤرخ الضليع المتتبع ، والخطيب المصقع الذي يتصرف بالعقول والقلوب من فوق منبره ، مملو الاهاب بالفتوة ، ذكي الفؤاد ، مرهف الحس ، قوي الذهن ، سريع الخاطر ، حاضر البديهة ، ذو شاعرية فياضة دفاقة ، وما فيه عيب الا انه حلو المذاق ، وريحانة الندماء ، واذا جازت الاستعانة بكلام البلغاء اقول فيه كما قال الثعالبي النيسابوري :

« يجمع بين الاسراع والابداع ، قريحة غير قريحة ، وطبع غير طبع ، وخيم غير وخيم ، ولبيد عنده بليد ، والفرزدق عنده اقل من فرزدقة خمير ، وجرير يقاد اليه بجرير » هذا ما قاله الفكيكي عنه في جريدة (الهاتف) .

واول مجلس ضمني واياه او اول مجلس لمس فيه المستمعون قدرة اليعقوبي

وملكاته كان هو المجلس الذي عقـد في بيت السيد ابي الحسن والذي أمّه النجفيون ليروا المنافس الجديد الذي وضعوا الثقة فيه ليحتل مكان السيد صالح الحلي ثم ليستمع المستمعون ماذا سيقول هذا عن السيد صالح وبماذا يستطيع ان يتغلب عليه .

وحدثت المعجزة في هذه التجربة وهذا الامتحان فقد رقى اليعقوبي المنبر ولم يذكر السيد صالح الحلي بشيء ولم يتعرض به صراحة ولا كناية وكل ما فعل هو ان تناول موضوع الاجتهاد ، والأصول ، عند الأصوليين اللذين تناولهما السيد صالح بالتعريض من بعض الجهات فوفّاهما اليعقوبي حقهما كما لو كان (مجتهداً) بارعاً درس الاجتهاد ومراحله ودرجاته وهو الموضوع الذي كان قد تطرق الى جانب منه السيد صالح غير مرة بشكل اعتبره السيد ابو الحسن خارجاً على اصول المذهب ، وابدع اليعقوبي في ذلك اليوم بما اورد من شواهد وامثال على محاضرته ورصّع المحاضرة بالشعر والنصوص الأدبية ثم ربط ببراعة من حسن التخلص بين موضوعه وبين ذكر شهادة الحسين (ع) ونزل من المنبر وقد خلب الباب الحاضرين وسحرهم .

وحانت الفرصة لتعرفي به هناك فكان هذا اول يوم اتصالي به عن كثب وقد احس الجميع بسرور السيد أبي الحسن في ذلك اليوم اذ عثر على الشخص الذي يستطيع ان ينسي الناس ذكر السيد صالح في زمن قصير .

وعلى الرغم من ان اليعقوبي كان محسوباً على السيد أبي الحسن ويعتبر من مقلديه فقد كانت صلاته بالجميع حتى بخصوم السيد أبي الحسن جيدة وكانوا يحبونه ويحترمونه منذ ان انتقل الى النجف وقبل ان ينتقل فقد كان تردده على النجف كثيراً وكانت له في رثاء الشيخ احمد كاشف الغطاء ، وقد كان المرجع الروحاني المنافس للسيد أبي الحسن والذي كان يدعم السيد صالح الحلي ، قصيدة عامرة يعزي بها أخاه الامام الشيخ محمد الحسين الذي يعتبر اول من اجاز اليعقوبي اجازة اشبه ما تكون باجازة الاجتهاد على ما اعرف .

وكان لم يزل للسيد صالح محبون ومخلصون فجاؤوا السيد أبا الحسن وعلى رأسهم السيد محمد علي القزويني من الحلة والحاج عطية ابو كلل من النجف وجمع من وجوه كربلاء يرجون منه ان يشمل السيد صالح بعفوه ويسحب فتوى تكفير سماع قرائته فطلب السيد ابو الحسن من السيد صالح ان يصعد المنبر ويعترف بخطئه ويتوب الى الله مما قال :

وفي الليلة المعينة صعد السيد صالح الحلي المنبر في الصحن الشريف وكنت انا من شهود هذا المجلس وقد ضاق الصحن في تلك الليلة بالجموع المحتشدة ليروا كيف سيتوب السيد صالح ، ولكن السيد صالح ما كاد يرقى المنبر ويرى بعينيه هذا المجتمع الزاخر حتى تيقظ في نفسه غرورها وبدا له انه قد تسرع في اجابة الطلب ، الم يخضع له فيما مضى كبار الزعماء ويخشاه حتى رجال الحكم في العهد العثماني ويطلب رضاه الناس ؟ فما حدا مما بدا لينزل على رأي السيد ابي الحسن وهو لم يزل ذلك الفارس الذي لا يجاريه في الميدان فارس ؟ اما اليعقوبي فهو لا يصلح ان يكون تلميذاً من تلاميذه على ما كان يرى ، لذلك حمد الله وصلى على نبيه وقال انه لم يقل شيئاً يستوجب فيه سخط الله وعدم رضاه لكي يتوب عليه ومع ذلك فاذا كان فيما قال ما يسمى ذنباً عند البعض ويطلب مني ان استغفر الله عليه فانا استغفره واتوب اليه لمجرد طلبهم ليس غير .

ونزل من المنبر وللمجلس دوي هائل وانتشر بين الناس خبر عدول السيد عن التوبة وانه لم يتب ولم يستغفر وانما أيد آراءه السابقة ودافع عنها ، فكان ذلك سبباً آخر للتعجيل بانهيار مجد السيد صالح والاطاحة به .

وما لبث اليعقوبي حتى عرف فضله من لم يعرفه بعد . وبدأ يحتل مجالس السيد صالح الحلي في اغلب الوية العراق ، وكانت برقيات الطلب تتقاطر عليه من جميع الجهات فلا يدري ايها يجيب ، ولأيها يعتذر حتى قل اتباع السيد صالح الحلي ومحبوه ولربما ضاقت به الواسعة في ايامه الأخيرة اذ انفض الناس من حوله تقريباً .

ومع كل ذلك ومع كثرة احتكاك اليعقوبي بالناس وبالمجتمع عن طريق المنبر وما عرف به من سعة الاطلاع والعلم والظرف والادب وصوغ النكتة وسرعة الخاطر فان اسم اليعقوبي لم يذع الأذاعة الشاملة العامة الا منذ انتسابه (لجمعية الرابطة العلمية) في النجف ، هذه الجمعية التي ضمت عدداً من خيار الادباء والشعراء واهل الفضل فحين اختير معتمد الجمعية السيد عبد الوهاب الصافي ليكون قاضياً في المحاكم الشرعية سعى بان يرشح اليعقوبي للرئاسة ، وابى اليعقوبي الأمر بادىء ذي بدء اباء شديداً ، ولكن الصافي لم يزل به حتى اقنعه بقبول رياسة الرابطة ومنذ ذلك اليوم صار اتصال اليعقوبي بالشخصيات الوافدة من اطراف العراق او من خارج العراق الى النجف اشد واكثر ، ومنذ ذلك الوقت صار اليعقوبي هو المجلّي في الحلبات . وبدأت الصحف والاذاعات العربية تردد قصائده العامره في كل مناسبة من المناسبات الوطنية والسياسية ولعله اكثر الشعراء الذين عنوا بقضية فلسطين واكثر الشعراء الذين عنوا بقضية الجزائر واكثر الشعراء الذين وفوا المناسبات الوطنية حقها حتى ليكاد شعره يكون وقفاً على الامة العربية واهدافها .

* * *

وفي دار الرابطة كانت تعقد المجالس الأدبية والمعارضات الشعرية وتبادل النكت والنوادر ، والتعليقات على ما كان يستجد في عالم الأدب وكان اليعقوبي يشترك في كل ذلك ويمشي في النكت والظرف الى الحد الذي لا يخرج به الى الاساءة لأحد لذلك كان كثيراً ما يتحاشى الغلو في ابتداع النكت التي كان يبتدعها السيد محمود الحبوبي الذي يعتبر ابرز اعضاء الرابطة ادباً ووقاراً وابتكاراً للفكاهة ، فكان ينتهز فرصة غياب اليعقوبي فيضع الخطط التي تحوّل مجلس (الرابطة) الى مجلس تسلية ادبية رائعة ، وذات مرة كان اليعقوبي حاضراً والسيد محمود الحبوبي يمسك بيده ديوان مهيار ويتظاهر بقراءته بينما كان يقرأ شعراً مرتجلاً يخلقه خلق الساعة فلا تجد فيه من الشعر غير البحر والقافية ويطلب من الحاضرين ان يقفّوه ، اي ان يعرفوا قافية البيت قبل النطق بها فكان البعض يقفّي وهو

لا يدري انه يقفّي شعراً غير مفهوم وكان الحبوبي يستحسن مرة ويظهر تشكيكه بالمقفي مقسماً عليه بالله عما اذا كان يحفظ هذه القصيدة من قبل ، ويخطّىء المقفي مرة اخرى بقصد التعمية فاذا باليعقوبي يكاد ينفجر من الضحك فيضطر الحبوبي بداعي التغطية الى ان يضمّن احد مرتجلاته بعض المعاني التي تشير الى اليعقوبي بوجوب الكف عن الضحك والخروج من المجلس ومثل هذا كثير الوقوع في النجف بان يأتي الشاعر باشارة خفيفة من شعره يفهمها المشار اليه ولا يلتفت اليها الآخرون فلا يبعد ان تكون اشارة الحبوبي المرتجلة جاءت على هذه الصورة اذا كانت القافية باء مثلاً :

وانت اذا سكت اتيت خيراً   والا فالخروج هـو الصواب

والمجلس هذا وهو مجموعة من المحسوبين على الأدب دائب على تقفية هذا الشعر المختلق ، ويضحك اليعقوبي اكثر ولا يقـدر ان يتماسك نفسه فيغادر دار الرابطة ويترك الحبوبي لشأنه .

ومن الابتكارات التي كان يبتكرها الحبوبي للتسلية والخطط التي كان يضعها لغاية من الغايات هو ان فراش (الجمعية) ـ على ما بلغني ـ كان قد خرج من الجمعية الى غير رجعة ، وكان على جمعية الرابطة ان تبحث عن فراش تتوفر فيه الشروط المطلوبة وباجور تتناسب مع ميزانية (جمعية الرابطة) الضيقة وطالت الأيام ولم تعثر الرابطة على الفراش المطلوب ، وكان من المنتسبين الى الرابطة فتى شاعر اديب وكان طيب النفس صافي السريرة وقد جاء من الخليج ليدرس العلم في النجف فرأى فيه الحبوبي خير وسيلة للقيام بمهمة الفراش ليحضر في الصباح الباكر فيفتح الرابطة ويكنس القاعة ويرشّها ويصف الكراسي ويحضر ما تستدعيه الحاجة الى ان يتم للجمعية العثور على فراش يتصف بالصفات المطلوبة ولو بعد شهر او شهرين ولكن كيف يستطيعون ان يحملوا الأديب الطيب القلب الصافي النية على القيام بوظيفة الخادم فقرر الحبوبي اجتماع الأعضاء دون معرفة اليعقوبي لان مجرد اطلاع اليعقوبي على الأمر سيفسد الخطة نهائياً ، وحين اجتمع اعضاء الرابطة وكانوا على اتفاق

مع الحبوبي في التخطيط قال الحبوبي اننا بحاجة الى وكيل محترم يعهد اليه القيام بفتح الجمعية في كل يوم والالتزام بمقتضياتها من اعداد مجلسها وتنظيفها واستقبال الزائرين وتوديعهم ولما كانت هذه الوكالة خطيرة فانني ارشح نفسي لها معتمداً على سوابق خدمتي وتضحياتي المستمرة في سبيل الجمعية ، فاعترض الأعضاء وبدأ كل منهم يرشح نفسه لهذه الوكالة ويستند في ذلك الى سوابق خدماته ، ولكي يضع حداً للاختلاف قال : لا اظن ان هذا النزاع سيقف عند حد بغير طريق القرعة فلنقدم ونكتب كلمة (الوكالة) على ورقة ونخلطها باوراق بيضاء يكون عددها على قدر عدد الحاضرين ثم نطوف بها على الأعضاء فمن كانت نصيبه الوكالة كان هو الوكيل .

وطافوا بالاوراق فكانت (الوكالة) من نصيب العضو المذكور ، فاعترض الأعضاء وقالوا ما هي الا المصادفة وان حقنا سيضيع اذا لم تجر القرعة من جديد فجمعوا الأوراق وطافوا بها على الأعضاء مرة أخرى فكانت (الوكالة) من نصيب الأديب المذكور ايضاً ، والسبب في ذلك هو انهم كانوا قد كتبوا في جميع الأوراق اسم الوكالة حسب تواطئهم فظل هذا الأديب اياماً طويلة يخدم الجمعية باسم الوكالة وهو فرح مأنوس بها حتى علم بذلك اليعقوبي فأخذ المفاتيح منه وارغم الجمعية على اصدار قرار بتعيين فراش براتب اكبر .

وكثيراً ما كان يقع مثل هذا من التسلية والتسري عن النفس في تلك الأيام فالنجف الصحراوية القاحلة والمنكبة على الدرس والبحث والقراءة ليس فيها ما يلطف اجواءها وينعش ارواحها غير النكتة الأدبية وخلق (المقالب) والهزل والظرف وقد صدق السيد محمد جمال الهاشمي في مخاطبته الشيخ محمد حسن حيدر مبرراً هزله :

ابا جواد ان هزلت بعد ذا — عفوا فقد يذهب بالهزل الضجر
ظرافـــة الأديب ان تهيجه — بنكتة فيها من اللطف صـــور

اقول ان كثيراً ما كان يقع في تلك الأيام مثل هذا التبسط والظرف ، ولقد

اكتشفنا مرة غباوة شيخ من طلاب العلم وكان مظهره يوحي بالعلم والمعرفة والجلال ولكي نجعله محوراً لتسليتنا اقترحنا وكنا زمرة كبيرة كان بيننا محمد مهدي الجواهري ، والسيد جعفر الكيشوان ، وعبد المنعم العكام ، والسيد علي الحصاني لقد اقترحنا ان يرتجل كل واحد منا بيتاً من الشعر حين يجيء دوره – ونحن متحلقون في حلقة كبيرة – بحيث لا يجوز له التواني والتفكير ولا ثانية واحدة حتى اذا انتهت الحلقة اعدناها من جديد بلا انقطاع وكل قصدنا من ذلك هو ان نوقع الشيخ البليد الذي اكتشفنا بلادته قبل ايام وهو جالس بيننا .

وبدأ احدنا وعقب عليه الثاني والثالث وكانت القافية راء حتى وصل الدور الى الشيخ فقال :

كلفوني ان انظم الشعر فقلت لهم لا اقدرُ

وكان الى جانبه السيد جواد الحصاني فقال :

وكذا كل من يكلف نظماً ولا يقدر فهو اغبرُ

ووجدنا في بيت الحصاني فرصة تمكننا من الضحك بملء اشداقنا واتخذناها حجة للانطلاق ونسبنا للحصاني الكفر بخروجه على الوزن ولكن الحصاني قال انه نسج على نمط جاره الشيخ على قاعدة (جيب مثله) العامية ولكن الزمرة دافعت عن الشيخ وقالت انه لم يخرج عن الوزن وآمن الشيخ بأقوالهم وتشجع على قول الهراء كلما وصله الدور ، وهكذا قضينا وقتاً ممتعاً نفسنا فيه عن انفسنا ،

* * *

ان اليعقوبي ظريف الى الحد الذي لا يخدش ظرفه احداً ، وقلما وُجد اليعقوبي في مجلس دون ان يسوده الأدب والمرح مهما اتصف هذا المجلس بالجد والصرامة فالدعابة احدى ركائز شخصية اليعقوبي انها تلازمه حتى وهو يؤدي فريضة الحج ، وحتى وهو على المنبر .

كان منهمكاً ذات مرة في سرد قصة تاريخية من على منبر الخطابة في احد

مجالس بغداد وقد خيم السكون على المجلس اصغاء لحديثه واذا بصرخة تتمثل في كلمة (آخ) تعلو من رجل بدين معمّ (بكشيدة) على رأس كبير ، ثم تبدّد السكون بصرخة أخرى وأخرى من (الآخ) فيلتفت الجمع الى مصدر الصوت فيرون الرجل وقد مدّ اصبعيه الى انفه وامسك بشعرة او شعرتين معاً وهو يحاول ان ينتفهما فيوجعه النتف فيصرخ ويرخي اصبعيه ثم يجدد المحاولة فيوجعه النتف ويصرخ ، فتوجهت كل الانظار الى الرجل وتحولت الى ضحكة متواصلة فصاح اليعقوبي باللغة العامية من على المنبر :

ـ حگّه ... توجعه ...

أي من حق هذا الرجل ان يصرخ لأن نتف الشعرة يوجعه ، فاستحال المجلس هنا الى ضحكة اطول عن هذا الدفاع الهازل ثم روى اليعقوبي هنا وهو فوق المنبر احاديث تاريخية ادبية طويلة عما صادف بعض الخطباء في التاريخ وهم يخطبون من عوارض ادت الى الفكاهة والضحك وحولت مجالسهم الى مجالس نكت ودعابة فكان (مجلسه) من محاضرته في ذلك اليوم هو الآخر مجلس نكت ودعابة لا اعرف كيف ربط بين موضوعه وموضوع قضية (الحسين) التي يجب ان يختم خطيب المجلس بها محاضرته ؟

والنكتة يقولها اليعقوبي على نفسه كما يقولها في الناس بل انه ليستحسنها اكثر حينما يكون هو محورها وان يكون هو موضوع التنكيت والتفكهة .

فحين حج السيد محمود الحبوبي مع الشخص المدعو (حرفش) كان موضع استغراب ان يحج شخص ذو مقام أدبي مرموق كالسيد محمود الحبوبي مع شخص (كحرفش) ، أقول حين حج الحبوبي في السنة التي حج فيها حرفش خاطبه اليعقوبي مداعباً يقول :

أمحمود حجّك قد رابني ... وحيّرني أمرك المدهشُ
فهل يقبل الله حجّ امرىء ... بعام يحجّ به (حرفشُ)

فكانت من النكت والدعابات الحلوة التي اتصف بها اليعقوبي ، واليعقوبي

سريع الخاطر ، سريع البديهة ويعتبر من شعراء الارتجال الذين ينطلق الشعر على السنتهم جزلاً سهلاً في اقل من بضع دقائق ، وقد رآه مرة السيد ابو الحسن يمشي في معيته وهو في طريقه الى الحرم الشريف متعثراً فسأله عن عصاه وكانت لليعقوبي عصا هي دون الصفصافة الرخيصة في الثمن فقال اليعقوبي لقد كسرت عصاي امس ، فناوله السيد ابو الحسن عصاه وهي عصا من (الآبنوس) الثمين ، فكان من اكبر رموز التقدير ان يدفع المرجع الروحاني الكبير بعصاه التي يستعين بها الى احد في وسط ذلك الجمع الغفير الذي اعتاد ان يحيط بالسيد ابي الحسن في اثناء سيره ، فقبّلها اليعقوبي شاكراً ولم يسر بضع خطوات في الطريق حتى تقرب من السيد ابي الحسن وانشده قائلاً :

ابا حسن لا غرو ان القت العصا
يدٌ منك ابصرنا مواهبها فيضا
كانك موسى والعصا عندك العصا
وان اليد البيضاء منك اليد البيضا

فقال له احد رجال الحاشية لا يكفي الانشاد بل اكتبهما ، فكتبهما بعد ذلك وبعثهما مخطوطين بخط جميل الى السيد ابي الحسن وصارا مشهورين .

ومن سرعة بديهته انه حضر مرة حفلة اقامها وجوه اهل الكوفة وأدباؤها لقائمقام النجف وكان القائمقام يومذاك السيد حسن الجواد وهو علوي هاشمي وفي هذا الاحتفال طالب خطيب من أهل الكوفة القائمقام بوجوب السعي في انجاز مشروع اسالة الماء للكوفة وما كاد الخطيب الكوفي يتم خطبته حتى قام اليعقوبي وارتجل البيتين التالين على سبيل الدعابة قائلاً :

لا تُعرْ اهل كوفة الجند سمعاً
ودع القوم يهلكون ظماء
كيف تسقي يا ابن الجواد اناساً
منعوا جدك الحسين الماء

فكان للبيتين رنة استحسان كبيرة وقد تناولها عدد كبير بالتشطير وكان من بينهم الشاعر السيد محمود الحبوبي .

واذا كان السيد جعفر الحلي ، والشيخ عبد المحسن الكاظمي قد ضربا الرقم القياسي في ارتجال الشعر وسرعة البديهة في وقتهما فان اليعقوبي قد تجاوز هذه الحدود في ارتجاله الشعر وصناعة (التاريخ) في وقته ، فلقد بلغ من سرعة خاطره ان ينظم (التاريخ) في مدة قد لا يتصورها المتصور ، والشواهد على ذلك كثيرة فحين غرق (رشاد) ابن عباس الكرماني في نهر الفرات ، وعباس الكرماني هذا من حاشية اليعقوبي والمخلصين له — ارخ له على سبيل الارتجال قائلاً :

قد ساءني موت (الرشاد) وسرني
اذ عُدّ في الشهداء والسعداء
غرقت عليه نواظري بدموعها
لما قضى ارخ (غريق الماء)

واليعقوبي من الشعراء الذين يسير الكثير من شعرهم مسير المثل مردداً على شفاه قرائه ومستمعيه شأن الشعراء الذين يستمدون الشعر من احاسيسهم الصادقة فقصيدته اليائية التي انشدها في دار الرابطة في النجف في اثناء اصطدام العراق بالانكليز في سنة ١٩٤١ والتي يقول فيها :

جاءت لتحميك على زعمها ولندن ليس بها حاميــة

قد نشرتها امهات الصحف العربية واذيعت من اغلب المحطات العربية ، حتى لقد كان المستر بيرون الذي كان رئيساً للعلاقات البريطانية بعد حركة رشيد عالي والذي كان يجيد العربية كان يردّد وهو يضحك كلما رأى اديباً نجفياً قائلاً :

(ولندن ليس بها حامية) .

ثم يسأل على سبيل المزاح والتهكم كيف صحة اليعقوبي ؟

وكان اليعقوبي مهدداً بالنفي بعد عودة الانكليز بسبب هذه القصيدة وغيرها ، ولكن شاكر حميد وكان متصرفاً للواء كربلاء يومذاك (وقبل اقالته) لم يؤيد تصميم الحكومة على نفي اليعقوبي فصرف صالح جبر ـ وقد كان وزيراً للداخلية ـ النظر عن نفيه .

واليعقوبي من اكثر الشعراء المعاصرين الذين يزخر شعرهم بالبديع من الجناس والتورية والامثال والتضمين الذي يرسله عفو الخاطر دون تكلف ودون تعقيد فليس فيه اي عيب من العيوب التي ينص عليها علم البيان والبلاغة ، ومن اجمل هذه البدائع تضمينه قول القاضي الارجاني في ذكره معارك (الريف) وبطولة عبد الكريم الريفي ، وهجائه الفرنسيين والاسبان حين قال :

اتت زمرة الاسبان تترى وخلفها	الفرنسيس في جيش على الريف حاشد
فيا دولتي بغي حدا الظلم فيهما	الى حرب شعب ما له من مساعد
حنانا على الريف الضعيف فانه	« من الظلم سعي اثنين في قتل واحد »

ومن ابدع تضمينه لقول المتنبي البيتان اللذان هجا فيهما الشيخ كاظم السوداني ورهطه لوخزهما المتنبي اذ قال :

يا هاجياً رب القوافي (احمداً)	بلواذع من قوله وقوارص
حسبي وحسبك في جوابك قوله :	« واذا اتتك مذمتي من ناقص »

وغير هذا الشيء الكثير من ضروب البديع الذي قل ان تخلو له قصيدة منه .

* * *

كل هذه المزايا التي امتاز بها اليعقوبي هي التي شدتني اليه كما شدت الكثير من الادباء واصبح الاتصال به والجلوس اليه من المتع الروحية التي لا مثيل لها عندي وما مرة ضمنا مجلس الا وقد نعمنا نحن الاثنين بما كنا نستحضر او ما تبعث به المناسبة وما تجيش به القريحة من النكت الادبية وبدائع الشعر ولعل

لحبي النكتة بالاضافة الى نشأتي الصحافية والأدبية الشأن الكبير في توثيق عرى الصداقة بيني وبين اليعقوبي فكنت انتهز الفرص كلما اتيح لي ذلك فاحضر مجالسه ولربما ناقشته بعض الاحيان في بعض الموارد من محاضراته حين ينزل من المنبر فاذا ابدني في بعض مآخذي عليه فانه يخالفني في اغلبها واكثرها ذلك لأنه على رغم عدم اعتماده فيما يروي على الاحاديث الدينية والروايات فانه كان يؤمن بمنطوق بعض الروايات والاحاديث ومع ذلك فقد كانت محاضراته تسندها في الغالب الحقائق التاريخية والشواهد المنطقية التي يفقدها الكثير من الخطباء الآخرين فلا يمر بالاحاديث الدينية الا مروراً عابراً وفي بعض الاحيان فقط .

* * *

وتأسست جمعية منتدى النشر في النجف واصبح وجود هذه الجمعية سبب تنافس بينها وبين جمعية الرابطة ولم تنظر احداهما الى الاخرى بعين الارتياح على رغم تباعد مناهجهما ، وانا رجل رأيت الخير منذ اليوم الاول في عدم الانتساب الى اية جمعية ، وانا اليوم غير نادم على ذلك فقد تألفت في العراق جمعيات كثيرة طالما حاول بعضها جرّي اليها فلم يوفق ولكن هذا لا يمنع تأييدي لأية فكرة اعتقد بصلاحها دون الانتساب الى اصحاب الفكرة ولذلك رأيت في ظهور (منتدى النشر) خطوة اصلاحية تتناول اساليب الدرس وطرق التعليم فرحت أويّد هذه الخطوة وعلى اني لم اقصر في تأييد جمعية الرابطة في كل مناسبة تحدث مما كنت اشير اليه في جريدة الراعي وجريدة الهاتف وهما الجريدتان اللتان اصدرتهما بعد (الفجر الصادق) فلم يقع ذلك موقع القبول عند جمعية الرابطة يضاف الى ذلك امور خاصة ليس هذا محل ذكرها جعلت شيئاً من الفتور يقع بيني وبين بعض اعضاء الرابطة ولكن هذا الفتور لم يؤد مني ولا مرة الى تجاهل ذكر الرابطة في جريدتي في كل مناسبة من المناسبات ، ولما كانت العين التي ترنو بها الرابطة لي ليس فيها شيء من الرضا فكان كل ما يكتب في جريدتي عن الرابطة يعتبر قليلاً

وتافهاً في حين كل شيء يكتب عن المنتدى كان مهماً وكبيراً في نظر (الرابطة) .

وجاءت قضية قيام جريدة الهاتف بالدعوة الى اصلاح الخطباء الذين يصعدون المنابر وكان اغلبهم غير جدير بارتقاء هذه المنابر من حيث القابلية والملكات والدراسة بل ان اغلبهم لم يكن يعرف حتى النحو والصرف والمقدمات اللازمة فلقيت هذه الدعوة من (جمعية منتدى النشر) صدى حسناً بل وفعالية محسوسة قام بها الشيخ محمد رضا المظفر والشيخ محمد الشريعة وكان من انشط العاملين في حلبة الاصلاح والدعوة الى تأييد فكرة المنتدى الخطيب السيد جواد شبر وقد فتحت جمعية المنتدى صفاً خاصاً لتعليم الخطباء فن الخطابة وتهذيب الاخبار التي يروونها واعدادهم إعداداً يتفق وروح هذا العصر وكان السيد جواد شبر من أبرز المنتسبين الى هذا الصف وبسبب ذلك انصبت عليه وعلى زملائه الطلاب النقمة كما انصبت على الشيخ محمد الشريعة بصورة خاصة بسبب غياب الشيخ محمد رضا المظفر وبسبب تبنيه الفكرة يومذاك واخذه الامر على عاتقه وهو رجل جريء وفعال اضافة الى علمه الغزير وعقليته الواسعة وكنت قد حصلت من الامام الشيخ محمد الحسين كاشف الغطاء فتوى بوجوب القيام بمثل هذا العمل وتأييد حركة التنسيق والتشذيب والتهذيب ، فقامت هنالك قيامة المعارضة وتزعمها (اليعقوبي) بداعي مقتضيات التنافس لجمعية المنتدى وليس بداعي العقيدة ، فاليعقوبي كان اعرف من غيره بوجوب اصلاح هؤلاء الخطباء ولكنه انجرف بتيار المنافسة في شيء غير قليل من الحماس وسعى لدى الامام كاشف الغطاء وحمله على سحب الفتوى مني قبل نشرها في الهاتف .

ومن هنا زاد سوء التفاهم بيننا رسوخاً وفقدت الوجوه عند الالتقاء طابع الانشراح والبهجة حتى محا مرور الايام آخر اثر في النفوس وعادت الطبيعة الأدبية الصافية الى صفائها مرة اخرى حين وقف اليعقوبي كشاهد في المحكمة في دعوى اقيمت على (جريدتي) جريدة الهاتف وقد كان سوء التفاهم في أوجه يومذاك ، اقول لقد زال بعد ذلك من النفوس كل شيء حين

وقف اليعقوبي من شهادته في المحكمة موقفاً لا يفسّر بأكثر من (بين بين) فلا هو مال الميل كله الى زميله المدعي ولا مال الميل كله عليّ انا المشتكى منه .

وخصومة اليعقوبي خصومة شريفة يسعى ان يلطّفها بالظرف الذي اشتهر به فهو حين يريد التعريض بأحد يفرغ تعريضه هذا في نكتة او مثل يجعل وقع التعريض خفيفاً على صاحبه .

واذكر مرة انقسم فيها ادباء النجف الى صفين صف الشيوخ وكان من بين زعمائه الشيخ كاظم السوداني ، وصف الشباب وكان يمثله الاستاذ صالح الجعفري وجواد السوداني ابن الشيخ كاظم السوداني وعبد الرزاق محي الدين (الدكتور محي الدين اليوم) وغيرهم وقد وقعت في تلك الايام معارك ادبية بين هذين الصفين تجلت في القصائد التي كانت تنشد في حفلات العرس وسائر المناسبات ، ثم توسع الخرق حتى انبرى صف الشيوخ الى ابداء آراء يغلب عليها عدم التروّي وعدم النضج فضلاً عن الغرور وكان من بين تلك الآراء نقد المتنبي والطعن في مكانته الأدبية من قبل الشيخ كاظم السوداني الذي راح يتناول بعض ابيات المتنبي بالاستهجان والتفنيد ، ولقد تناول الشعراء (السوداني) بالهجاء المرّ على هذا الرأي وسائر الآراء الاخرى ، اما اليعقوبي فقد كان تعريضه حلواً كطبيعته ، لطيفاً كخلقه ، خفيفاً على قلب السوداني اذ قال يخاطب المتنبي :

يا ابن الحسين وقد جريت لغاية   قد أجهدت شعراء كل زمان
لكنما (السودان) حين هجوتهم   ثارت عليك ضغائن (السوداني)

والمقصود بالسودان القوم الذين استعدوا عبيدهم (السودان) على المتنبي لقتله في طريق سوريا فنجا ، او ان المقصود به (كافور الاخشيدي) وآله من السودان ، اما (السوداني) فهو الشيخ كاظم السوداني .

ومن هذا الباب قوله للشيخ محمد السماوي معرضاً تعريضاً ادبياً حلواً بالسيد محمد الصدر فقد كان هنالك قانون يسمى بقانون (الذيل) يحق بـه

للحكومة أن تحيل من تريد على التقاعد قبل اوانه او تخرجه من الوظيفــة بمقتضى ذلك القانون وشاع يومذاك ان الشيخ محمد السماوي قاضي الشرع قد احيل على التقاعد بموجب قانون (الذيل) بناء على مسعى السيد محمد الصدر لاخراج السماوي وتعيين السيد محمد صادق الصدر محله قاضياً فقال اليعقوبي مداعباً :

قل للسماوي الذي فلك (القضاء) به يدور
الناس تضربها (الذيول) وانت تضربك (الصدور)

فما لبث ان اصبح البيتان انشودة على السنة الجميع .

* * *

وكما عرف الشيخ محمد علي اليعقوبي شاعراً اديباً وخطيباً مصقعاً فقد عرف مؤخراً محققاً يتتبع النصوص الأدبية ويأخذها من مصادرها وقد ولد هذا الميل فيه وهو ناشيء في الحلة يتولى ثقافته ابوه الشيخ يعقوب الحلي ويوجهه السيد محمد القزويني وقد دفعته هذه الملكة بأن يستكتب الكثير من رجال العلم والادب ويجمع اخبارهم وآثارهم العلمية والادبية واغلبها مكتوب بخطوطهم حتى انحصرت عنده مصادر ذات قيمة تاريخية كبيرة يعود الفضل لجمعها وتحقيقها وشرحها اليه وحده ، وقد كان حريصاً عليها كل الحرص فلا يعير منها شيئاً لاحد ولا يمكّن الايدي ان تلعب بها ، ولكنه كان سخياً كل السخاء في مساعدة المتتبعين والمحققين فيمكنهم من التتبع فيما كان يمليه عليهم مما يستخرجه من دخائره المخطوطة وما يستظهره من محفوظاته وكثيرون اولئك الذين استعانوا به من العراق او من الاقطار العربية والاسلامية في مشكلاتهم التاريخية او اطروحاتهم الاسلامية والادبية فأفادوا منه .

وكانت بينه وبين الاستاذ توفيق الفكيكي صداقة جد وثيقة يرجع تاريخها الى اكثر من ثلاثين سنة ، وطالما عبّر اليعقوبي عن اعجابه به في عدد من

المناسبات ، وحين قام الفكيكي يشرح عهد الامام علي لمالك في كتابه (الراعي والرعية) أطراه اليعقوبي في ابيات لم يبق في بالي منها غير قوله :

ابدعت في شرح عهد المرتضى ولكَمْ
أفدتنا فيه تحقيقاً وتدقيقا
فصلّت آيات علم فيه مجملة
يعنو لها اللب إيماناً وتصديقا
وفقت وحدك بين الشارحين لـه
فزادك الله يا (توفيق) توفيقا

وكان الفكيكي الصديق الوحيد الذي مكّنه اليعقوبي من الاطلاع بنفسه على ما كان يكتنز ويدخرمن نصوص ووثائق تاريخية وادبية ودواوين شعرية انحصر وجودها عند اليعقوبي ، وكان الفكيكي يحث اليعقوبي على التفرغ لاخراج هذه الكنوز ونشرها ولو بمقالات يكتبها في الصحف ولكن (مجالس) اليعقوبي ومحاضراته واستمرار تتبعه كانت تحول بينه وبين اخراج هذه النفائس ثم انه لم يجد عوناً من الحكومة ليستعين به على الطبع والنشر اذا ما تصدى لتصنيف بعض النصوص الضائعة والدواوين المفقودة ، وكان الفكيكي من المتمسكين برأيه وله من الارادة كما اعرف ما تجعله يمشي في اموره الى النهاية . فكلمني الفكيكي في ان يكتب شيئاً في جريدتي (الهاتف) عن صندوق اليعقوبي ويكشف غطاء هذا الصندوق لعل في ذلك شيئاً من الحافز الذي يحمل اليعقوبي على اخراج بعض ذخائره ونشرها في مقالات اذا لم يتسن له اخراجها في كتب .

وابتدأ الفكيكي يكتب مقالة بعد اخرى في الهاتف وقد بدأ مقاله قائلاً انه لا يريد ان يحدث قراء (الهاتف) عن احد اليعاقيب او اليعاقبة من الفلاسفة الاسكندريين او عن احد طبقاتهم ممن عاشوا في الاديرة والصوامع ثم هرموا وبادوا ، ولا يريد ان يحدثهم عن سيرة اليعقوبي المؤرخ الشهير بالبغدادي من الاموات ولا عن غيرهم من اليعاقبة العباقرة الذين كتب لهم الخلود في

سجل الأبدية وانما يريد ان يحدثهم عن شيخ العباقرة من اليعاقبة الحليين ، والنجفيين ، والكوفيين ، ويعاقيب الحيرة من المعاصرين وعن صندوقه او عن علمه وادبه ، ومعارفه .

وقد اتى الفكيكي في مقالاته تلك على صفات اليعقوبي ومواهبه وملكاته المتعددة ثم راح يصف (صندوقه) وما يحتوي عليه من الدرر والغرر ، وعرائس الشعر ، ونفائس النثر ، من دواوين اغلبها مخطوط بخطوط شعرائها انفسهم كديوان الشيخ عباس ملا علي صاحب القصيدة المعروفة :

عديني وامطلي وعدي عديني   عديني بالصبابة فهي ديني

والتي يقول منها :

ولو ابقت لي الزفرات صوتاً   لاسكتّ السواجع في الغصون

وكديوان الشيخ عباس الأعسم الذي يقول فيما يقول :

وليلة زارت ظبية الحي والهاً   وكاس الحميا مشرق في يد الساقي
فبتّ وطوقي ساعداها وساعدي   وشاح لها والتفت الساق بالساق

وكديوان الشيخ مير رشيد الهندي ، وديوان السبط ابن التعاويذي ، وديوان ابي المحاسن ، وديوان السيد صادق الفحام ، وديوان الشيخ علي الناصر ، وقد عدد الفكيكي الكثير من الدواوين المخطوطة والكثير من القصائد المنفردة التي يحتوي عليها صندوق اليعقوبي الى جانب عدد من الآثار التاريخية والنصوص الأدبية الثمينة التي انحصرت عند اليعقوبي نفسه اضافة الى موسوعة البابليات التي احتوت على تراجم وآثار المشهورين من شعراء الحلة وادبائها في مختلف العصور والذين جمع اليعقوبي شعرهم وآثارهم وشيئاً من تاريخ عصورهم فحبسها في صندوق كبير من الخشب واغلق بابه واحكم اغلاقه .

وقد احتكم الفكيكي عن طريق (جريدة الهاتف) الى الشيخ جعفر نقدي عضو مجلس التميز الشرعي ببغداد فيما ينبغي فرضه على اليعقوبي الذي حرص

على هذه الذخائر فخبأها في الصندوق الذي قال الفكيكي انه رآه بعينه وانه صندوق لا كالصناديق حجماً وسعة وما ينوء به من ثقل المخطوطات المفرز بعضها عن بعض برزم مشدودة بالخيوط ، او اكياس وظروف من الورق وكلها من تحقيقات اليعقوبي وشروحه وتعليقاته .

وعلقت انا على مقالات الاستاذ الفكيكي بمقال نشرته في الهاتف وقلت فيه مداعباً : اني كنت اعرف اليعقوبي حريصاً على مائدته حرص (مادر) واكثر ، ولن اكن اعرف لذلك سبباً قبل ان يميط الاستاذ الفكيكي اللثام ويشرح لناقصة (الصندوق) ، وقلت اني على شدة اتصالي باليعقوبي ومرور الزمن الطويل على صداقتي فانني لم اعرف طريق بيته ولم ادر في اية محلة يقع هذا البيت حتى جاءني ذات يوم هذا الصديق (الكريم) اي اليعقوبي الى مكتب جريدة الهاتف وهو يحمل اعلاناً لتسجيل داره المعينة الحدود في (الطابو) وطلب مني نشره فقلت له : والآن وقد عرفت محل بيتك فقل لي متى تدعوني اليه ؟ فقال متى شئت ولكن الافضل ان تترك ذلك الى ما بعد تسجيل البيت في (الطابو) .

ونُشر الاعلان ، وتمت المعاملات الرسمية للدار وسجلت باسمه وانقطع اليعقوبي عني اياماً او صرفته اشغاله فلم اعد اراه الا في مجلس من مجالس (التعزية) وهو فوق المنبر ، وهناك فقط كان يستطيع من فوق منبره ان يحدق الى وجهي وانا لا استطيع ان انبس ببنت شفة مراعاة للقواعد ، ومع ذلك فقد زرته في بيته هذا غير مرة عائداً على اثر وعكات كانت تصيبه فلم ار الصندوق ولا شبحه ، ثم ربطت بين هذه الدعابة التي اثبتّ بها حرص اليعقوبي وبين صندوقه وعزوت التقصير والقصور الى المسؤولين من رجال الثقافة الذين يستطيعون الانفاق على تلك المجاميع لنشرها بين القراء واعتبرت وزارة المعارف مسؤولة عن كل ذلك .

وحين نشرت تعليقي على صندوق اليعقوبي وفي ضمنه دعابة اتهامي إياه بالحرص على مائدته من ان يشاركه فيها احد نشر محمد الخليل

مقالاً في الهاتف معلقاً على هذه الدعابة بدعابة اخرى مؤيداً رأيي بأسلوب بديع من التفنيد فقال انه اي محمد الخليل كان قد قضى عشر سنوات كاتباً للتحرير في قضاء ابي" صخير وكان ذلك في نحو السنة ١٩٢٩ او قال في سنة ١٩٣٠ وكان اليعقوبي يسكن (الحيرة) يومذاك وكانت تربط بينهما صداقة متينة فعلى ان اليعقوبي لم يدعُ محمد الخليل ولا مرة طوال هذه السنوات فانه اي محمد الخليل قد اوفد مرة مع هيئة بمهمة رسمية الى الحيرة (الجعارة) كان الغرض منها تقدير املاك الناحية فكان لا بد لهم ان يمروا على البيوت فمروا على بيت اليعقوبي وخرج اليهم اليعقوبي وحين تم (تقدير بيته) ألحّ عليهم اليعقوبي بدخول بيته لشرب الشاي فاعتذروا ، فلماذا يتهم الخليلي - يقول محمد الخليل - اليعقوبي بالبخل ويشبهه بمادر وقد دعاهم اليعقوبي بنفسه لشرب الشاي في بيته . وأثبت بذلك كرمه .

وانتشرت هذه الدعابة ، اما اليعقوبي فقد اقسم على ان (الهاتف) يكذب ، وحمل الآخرين على الكذب معه ايضاً وان صاحب الهاتف قد تناول عنده الغداء غير مرة وقبل ان يسجل داره في الطابو ، واستطاب الأدباء سلسلة مقالات الفكيكي عن صندوق اليعقوبي وكثرت تعليقات الكتاب عليها وكان من بعض تلك التعليقات قصيدة عامرة للشيخ محمد حسن حيدر يوجه الخطاب فيها الى الفكيكي ويعرج على دعابة بخل اليعقوبي فيقول فيها :

فضحت اسرار صندوق ابن يعقوب ... بحكمة هي من احدى الاعاجيب
صينت زماناً بلا جدوى ومنفعة ... فجئت تهتكها في حسن اسلوب

الى ان يقول في خطابه للفكيكي :

لولاك لم ندر ما يحويه من ادب ... ومن كمال لاهل الفضل مرغوب
شحت به نفسه بخلا ولا عجب ... فالشح والبخل من طبع ابن يعقوب
فهل (ابو الطيب) هذا البخل ورثه ... ام ابن يعقوب قد اعدى (ابا الطيب)

وكثرت التعليقات بين جد وهزل حول صندوق اليعقوبي في (الهاتف) وحكم الشيخ جعفر نقدى بوجوب فتح الصندوق ونشر ما فيه على الملاء، وقد افاد الهاتف قراءه الادباء بنشر تلك المقالات والتعليقات والدعابات وكان منها تعليق شعري لليعقوبي نفسه عن الفكيكي وعن دعوته لكسر صندوقه اذ قال:

قالوا اذاع الذي ما زلت تخبؤه (توفيق)، قلت لهم من حسن توفيقي
قد جاء يبحث عن صندوق مكتبتي وان في الصدر عندي الف صندوق

وقد صدق اليعقوبي فان في صدره الف صندوق واكثر، ومنذ هذا اليوم انكشف غطاء الصندوق، وطلع اليعقوبي على قراء الهاتف بعدد من المقالات عن بعض الشعراء الذين اغفل ذكرهم التاريخ، والذين لم يستطع احد ان يعرفهم لولا اليعقوبي الذي انحصرت عنده وحده اخبارهم وآثارهم، وكان للفكيكي الفضل الاكبر في حمل اليعقوبي على فتح الصندوق فتم اخراج وطبع ديوان ابي المحاسن، وديوان صالح الكواز، وديوان ابن القيم ثم طبع البابليات التي كان لها في عالم التاريخ الادبي شان جد كبير كما تم طبع ديوانه ايضاً وعجل الموت عليه فانقطع عمله في منتصف الطريق.

* * *

قلت ان الفكيكي الاديب الوحيد الذي ظفر بثقة اليعقوبي ومحبته لذلك لم يمنع عنه اليعقوبي اعارة مجاميعه النفيسة وكان من بين تلك المجاميع الخطية التي استعارها الفكيكي مجموعة تتناول تراجم المجهولين من ادباء الحلة، باسم البابليات، وبعد أيام قليلة قام علي الخاقاني بنشر قسم من تراجم شعراء الحلة، في مجلته فاذا بطائفة مما تضم المجموعة التي استعارها الفكيكي من اليعقوبي ينشرها الخاقاني بنصها وتحقيقها والتعليق عليها كما لو كان الخاقاني هو صاحبها وكاتبها وشارحها ومحققها.

واليعقوبي بشوش الوجه، ضحوك الثغر، منطلق السريرة حتى في اعضل

المشكلات ولكن الغضب هنا قد غيّر منه سحنة وجهه ، واخرجه على سجيته فغضب ، ومن حقه ان يغضب ، ومن حقه ان يثور ، فان ما نشره الخاقاني كان اليعقوبي قد انفق عليه جهداً كبيراً في ثبته وتحقيقه وتصحيح اغلاطه وشرحه والتعليق عليه فكيف تسرب مجهوده هذا الى الخاقاني وليس من شك ان ذلك قد جرى عن طريق الفكيكي ، اذ ليس غير الفكيكي من وقف على تلك المجموعة ، وليس غيره من كان يستطيع استعارتها منه ، لذلك سرعان ما اتصل بالفكيكي معاتباً ومغتاظاً ومحتجاً . ومستفسراً عن الطريقة التي تم للخاقاني بها نقل هذا التحقيق من مجموعته . فما كان من الفكيكي الا ان نشر القصة في جريدة الاستقلال البغـــدادية فكان لتلك السرقة الادبية دويّ كبير في اوساط الادب وقد علق على مقال الفكيكي عدد من الكتاب والادباء ، وحين اصدر اليعقوبي البابليات اقتطف بعض ما كتب الادباء عن هذه السرقة والتعليقات عليها ونشره في آخر الجزء الثالث من القسم الثاني من البابليات :

يقول اليعقوبي في الجزء المذكور :

« لقد وقعت لكتابنا هذا قصة تناولتها اقلام الكتاب والاساتذة بالتعليقات الطريفة والكلمات التي افتضح بها امر سرقة ادبية قام بها متطفل على البحث والادب اذ انتحل فصولاً كبيرة وتراجم عديدة ، بعد ان وصلت اليها يده من طريق سيقف عليه القارىء ــ وأثبتها في كتاب اسماه : (شعراء الحلة) فكان بعضها صورة طبق الاصل ، وبعضها الآخر محرفاً ومشوهاً بصورة لا تخفى على الفطن اللبيب ، وقد حدا ذلك بعض الباحثين (والمقصود باحد الباحثين اليعقوبي نفسه) فاصدر كتاباً اسماه (نقد شعراء الحلة) سجل فيه مؤاخذاته على هذا الكتاب واشار الى ما فيه من تحريف وتشويه وقد اخرجته مطبعة الزهراء ببغداد ، واستمر اليعقوبي يقول :

وقد احببنا ان نثبت هنا قصة ذلك الانتحال كما افتضح امرها على صفحات الصحف وغرضنا من ذلك نشر تلك الحقائق وحفظها مع التاريخ ، معتزين

بعواطف اولئك الافاضل الذين يثأرون لكرامة البحث والادب فيعطون الحق لاهله ، على اننا لا نريد ان نثبت هنا كل ما نشرته الصحف حول ذلك الموضوع بل نكتفي بكلمات سعادة الاستاذ الكبير توفيق الفكيكي و (دعبل) و (ابن الفيحاء) فان فيها تأدية للغرض في الجزء المذكور .

وهنا يثبت اليعقوبي كلمة توفيق الفكيكي المنشورة في جريدة الاستقلال البغدادية في العدد ٤٢٨٧ من سنتها الثانية والثلاثين وهذا نصّها :

قصة تبحث عن مقدمة

جاء فيها : هذا عنوان صحيح غير مغلوط كما عبر الاديب اللامع الاستاذ سعيد تقي الدين عن عنوان قصته المنشورة في جريدة الاحد البيروتية بعنوان (قصة تبحث عن خاتمة) ومن غريب الصدف ان تكون العلاقة بين القصتين وثيقة الاسباب تجمعهما جامعة ادبية واحدة وتدوران حول واقعة متشابهة يربطهما من حيث النتيجة رباط الاعتداء على ثمرات الفكر لشاعرين مشهورين هما : عمر ابو ريشه ، واليعقوبي .

وخلاصة قصة الاديب البيروتي التي فكر بالف خاتمة لها فلم يجدها هي : ان الشاعر (عمر ابو ريشه) كان قد نظم من آيات الشعر وعرائسه قصيدة عالمية رائعة بمناسبة عيد الاستقلال ، وكان اليوم شديد البرد ولم يملك الشاعر المشهور سوى بذلة بالية ، وعندما اقتربت ساعة الحفلة واراد الذهاب ليلقي قصيدته وجد بنطلونه يحتاج الى الاصلاح فارسل بذلته الى (المكوي) فعثر هذا على القصيدة اليتيمة وكان ممن يدعي قول الشعر فاستهوته القصيدة ، ولما ضاق وقت الشاعر عمر ابو ريشه طلب بذلته من المكوي فامتنع من تسليمها إلا بعد قبضه اجرة التنظيف وبالرغم من الحاح الشاعر بارجاء الاجرة الى الغد فلم يفلح ، واخيراً اقنع المكوي نفسه بانه محق ان ينتحل قصيدة الشاعر البائس ، وفعلاً اقفل دكانه وذهب الى الحفلة فالقى القصيدة على الناس وعمر ابو ريشه يستمع الى شعره المغصوب من قبل المكوي وفي صباح

اليوم الثاني نشرت الجرائد صورة المكوي وقصيدته المنتحله ونبأ اعطائه جائزة حكومية ووساماً ! ! وهذا ما جعل صاحب القصة حائراً مستنجداً بالقراء لإيجاد خاتمة لقصته .

اما قصتي – يقول الفكيكي – التي لم اجد لها مقدمة فلا تقل في غرابتها عن قصة الاديب البيروتي عما وقع للشاعر ابي ريشه وخلاصتها :

في عام ١٩٣٨ كنت حاكماً في كربلا وقد عهدت الي زيارة محكمة النجف لانجاز الدعاوى فيها ، وبعد الفراغ منها كنت اتردد الى مكتبات النجف الاشرف وسمعت كثيراً عن نوادر الخزانة اليعقوبية لصاحبها الاستاذ الكبير والشاعر المطبوع الشيخ محمد علي اليعقوبي و بما في صندوقه من النفائس الادبية واكثرها خطية قديمة وحديثة ودفعني حب الاطلاع ان انزل عليه ضيفاً ، وبعد التماس كثير اطلعني على ذخائر صندوقه فرأيت من الواجب في حينه التنويه عن تلك الاثار النادرة فكتبت في مجلة (الهاتف) الغراء عدة مقالات حول (صندوق اليعقوبي) وقد علق عليها بعض الافاضل من الكتاب والشعراء ، وكان من جملة تلك الآثار الثمينة كتاب اليعقوبي (البابليات) الذي الفه في تراجم شعراء الحلة من القدامى والمعاصرين ويحتوي على ترجمة (١٣٠)شاعراً وكان مؤلفه مشغولاً في ترتيبه وتبييضه وقد رجوته بان يسمح لي بمطالعة هذا القسم من كتابه فتكرم علي بذلك ثم احببت استنساخ نسخة منه اضمها الى مكتبتي فوافق المؤلف وهي ما زالت عندي وتضم ترجمة (٤٣) شاعراً من شعراء الحلة ،

وفي ايلول المنصرم زارني علي الخاقاني صاحب مجلة البيان ليلاً في داري . وطلب الي مساعدته بالسماح له في مراجعة (البابليات) ليقارن بين شعرائها وبين الشعراء المعاصرين لهم ، وبعد اصراره الطويل دفعتها إليه على ان تبقى لديه تلك الليلة فقط ، وقد اخذت عليه عهداً وميثاقاً غليظاً على ان لا يقتبس او ينقل من تراجم شعرائها ولا من مختارات اشعارهم شيئاً .

وقبل ايام وردني كتاب كريم من الاستاذ اليعقوبي يلفت به نظري الى ما نشره الخاقاني في مجلة (البيان) في تراجم البابليات ونسبه الى نفسه ومن ذلك ترجمة الشاعر الشيخ (علي بن الحسين العوضي) وعند مراجعتي ترجمة الشاعر المذكور المنشورة في (البيان) ومقارنتها مع ما في مجموعتي من البابليات وجدتها مطابقة تمام المطابقة في التعبير والاسلوب مع تحوير طفيف ببعض الالفاظ مما تأكدت منه بان الخاقاني قد عمد بنقض ميثاقه الغليظ وخان عهده الوثيق وهو فوق هذا قد اخذ يعلن في مجلته وفي الصحف المحلية عن اعتزامه بطبع كتابه (البابليات) مع علمه وعلم اكثر ادباء العراق في ان هذا الكتاب من اشهر مؤلفات الاستاذ اليعقوبي وقد الفه قبل عدة اعوام ونشر بعض فصوله في مختلف المجلات وربما كانت مجلة البيان من جملتها .

ولا ادري بعد هذا هل يريد الخاقاني ان يمثل الدور الذي لعبه المكوي مع (ابي ريشه) المسكين ؟ وهل فكر قليلاً قبل ان تدفعه جرأته بما سيحرجنا به غداً وكلنا في قيد الحياة .

واخيراً أترك هذا التقدير للقراء لعلهم يجدون لهذه القصة : مقدمة

بغداد توفيق الفكيكي

ويقول الدكتور محمد جواد رضا (دعبل) في جريدة النبأ بعددها ٧٤٢ من سنتها الثالثة بعنوان (بابليات اليعقوبي)

« انا لا اعرف بالضبط الظروف او المبررات التي اغرت الخاقاني باستباحة أثر فكري من آثار رجل لا يزال في قيد الحياة ، كما انني لا اعرف ما اذا كان الخاقاني يحسب الناس او القلة المتتبعة من الناس على الاقل من الجهل والغفلة بحيث يفوتها مثل هذا الحدث الاخلاقي المؤسف »

ثم يقول الدكتور « ولكن شيئاً واحداً أود أن اشير إليه في مثل هذا المقام وهو الى م َ نبقى نستحل جهود الغير في ميدان كهذا الميدان الشريف ؟ ويقول بعد ذلك : وقد أثارت هذه الحادثة بين ايدينا معضلة اخلاقية من

أشد معضلاتنا الاخلاقية خطراً وخطورة هي لصوصية الادب »

ثم جاء بعد ذلك في البابليات انه على اثر نشر كلمة « دعبل » الدكتور محمد جواد رضا نظم احد الادباء هذين البيتين

لصّان لم ير في السراق مثلهما عليهما الحد والتعزير قد وجبا
لص يصول على الاموال يسرقها سراً وآخر جهراً يسرق الكتبا

ويتناول الموضوع (ابن الفيحاء) وهو اديب واسع الاطلاع في مقال ينشره في جريدة (الهاتف) في العدد ٩٥٥ بتاريخ ٢٢ كانون الثاني ١٩٥١ بعنوان (قصة البابليات) يستعرض فيه تاريخ البابليات وقصة صندوق اليعقوبي في المقالات التي كتبها الفكيكي في جريدة الهاتف من اولها الى آخرها .

ويأتي ابن الفيحاء على السرقة ويشرحها في تلك المقالة ثم يختم مقاله بما علّق به الاستاذ السيد موسى بهية على المقال الذي نشره (دعبل) بخصوص تلك السرقة اذ يقول :

« ان لم تضع القوانين عقاباً لمثل هؤلاء السراق فيجب علينا معاشر الادباء ان ننتقم منهم وننزل بهم العقاب الصارم وما هو الا ان نخرجهم من قوائم الانسانية والكرامة »

* * *

وخرجت مجموعة الخاقاني الى حيز الطبع باسم شعراء الحلة وقد وجد فيها اليعقوبي من الاغلاط ما تجاوز الحدود بحيث لم تسلم ترجمة واحدة او قصيدة واحدة من المآخذ الجوهرية ، ففي قسم التراجم كانت قد نسيت تراجم البعض للبعض الاخر ، وفي قسم الشعر كان قد جرى الخلط بين ابيات من قصيدة في قصائد اخرى ، ونسب كثير من الشعر الجديد الى الشعراء القدماء والشعر القديم الى الشعراء الجدد ، وغير ذلك مما تصدى

له اليعقوبي واصدر كتاباً خاصاً في المآخذ التي اخذت على كتاب الخاقاني (شعراء الحلة) واستنكف ان يجعل اسمه عليه وقد اشار فيه الى كل نقطة من هذه النقاط ، واستوعب المهم المهم منها مُرجعاً كل بحث الى مصدره ، ومصوباً تلك الاخطاء الفظيعة .

ووجدت انا في كتاب الخاقاني وكتاب النقد والتفنيد والاخطاء الفظيعة التي اخذها عليه اليعقوبي بتوقيع مستعار موضوعاً طريفاً اعالج به نوعاً من ادب التهكم او ضربا من ضروب البديع على طريقة (الهجاء في معرض المدح) او (المدح في معرض الهجاء) وكتبت خمساً وعشرين مقالة على ما أظن في الهاتف مدافعاً فيها عن الخاقاني باسم (الهنداوي للفصل بين اليعقوبي والخاقاني) وناقشت اليعقوبي مناقشة طالما شرق فيها الادباء بالضحك حتى لقد كتب لي الصافي النجفي من لبنان يقول عني يوم انهيت تلك المقالات المشبعة بالتهكم والضحك ما مضمونه : «بانه ما ساءه شيء كما ساءه ان يقطع الهاتف هذه السلسلة ويحرم قراءه من هذه اللذّة»

واذكر مرة وانا ادافع في هذه المقالات عن الخاقاني الذي اورد ترجمة شاعر كان يكبره ابوه بسنتين على ما سجل الخاقاني وكان هذا من مآخذ اليعقوبي عليه ، واذكر اني دافعت عن الخاقاني ورددت على اليعقوبي بان المراسيم في الهند كثيراً ما تحمل الاباء على تزويج اولادهم وهم صغار فيحتفون بهم ويزفونهم وهم دون الخامسة والرابعة وقلت في ردي وانا اخاطب اليعقوبي قلت : ومن يدريك ان لا يكون هذا الشاعر الذي يكبر ابنه بسنتين قد تزوج في الهند وهو صغير فولد ابنه الشاعر وكان الفرق في العمر بينهما سنتين ؟ ! فكتب احد مدرسي اللغة العربية في احدى المدارس الثانوية يستنكر هذا المنطق ويعجب من عقلية الكاتب الذي يصدق بهذه المزاعم

فنشرت استنكاره هذا مع حفظ اسمه فكان ذلك داعياً آخر للضحك لان مدرساً يدرس اللغة العربية لم يميز بين الجد والهزل ، وادب التهكم

وكنت ذات مرة وانا اكتب احدى هذه المقالات دفاعاً عن الخاقاني (بتلك الطريقة المضحكة) كنت قد وقفت على بيت من الشعر اورده الخاقاني في احدى تراجمه — وكثيراً ما اورد مثله في مجموعته هذه — وقد عجزت عن فهم معناه والاهتداء الى وزنه وتركيب قافيته واذا باليعقوبي يدخل علي في مكتبي فقرأته عليه وطلبت منه ان يعينني على فهم البيت ووزنه وجلوس قافيته ، وسألته رأيه فيما ينبغي ان اعلق عليه دفاعاً عن الخاقاني فقال لي لا يحضرني شيء انسب من قول الشاعر العامي الشعبي الذي خبط مثل هذه الخبطة لكي تكتفي به تعليقاً واذ سالته عن قول هذا الشاعر الشعبي الخابط قال : اكتب :

سرينا ابليل واصبحنا المحاويل وربَّك ما يخلّي حمل مطروح

فكتبته واكتفيت به تعليقاً وقلت ان التعليقة هذه لليعقوبي ، وكان لها صدى

* * *

وعند انتقالي من النجف الى بغداد قلّ اتصالي باليعقوبي الا حين ازور النجف لمناسبة خاصة والا حين يدعى هو للخطابة في احد المجالس ببغداد وكثيراً ما حضرنا له انا وامين خالص مجالسه هذه وكثيراً ما سهرنا معا ، ولم انس ليلة قضيناها في بيتي بكرادة مريم سهرنا فيها الى ما بعد منتصف الليل بساعتين فاخذه امين خالص بسيارته واوصله الى فندقه ليبيت فيه .

وفي صيف هذه السنة كنت اشرف على طبع (موسوعة العتبات المقدسة) بلبنان وكان اليعقوبي من الاعضاء الذين اتفقوا معنا للعمل في اخراج هذه الموسوعة فكنت اقيم بسوق الغرب واقضي النهار في بيروت وجاء اليعقوبي

الى لبنان مستجما ونزل في فندق رويال بعين السيدة ، فزارني بسوق الغرب هو والشيخ عبد الواحد الانصاري وكم فرحت اذ وجدته هناك وانتهزت اول فرصة فزرته في عين السيدة وكان (فندق رويال) قد اصبح مطمح الانظار فلقد بدأت تتقاطر عليه وفود الزائرين من الوزراء والنواب والعلماء والادباء من جميع اطراف لبنان وكثرت الولائم ودعوات التكريم للاحتفاء به حتى لقد زاره عدد من كبار الآباء اليسوعيين والاكليروس ولم تبق جريدة دون ان تشير الى شخصيته ولكن اليعقوبي لم يكن طبيعياً من حيث صحته وكان كايام الربيع في العراق ، يوم صحو ، ويوم مغبرّ ، ويوم ممطر ، وكان مجلسه عامراً بادبه ونكاته يحف به جمهور من الادباء الذين نزلوا هذا الفندق استيناسا به وقد قضيت عنده وقتاً جميلاً .

وبعد ايام علمت بان صحته قد ساءت فصحبت الدكتور امين زهر الذي جئت به من سوق الغرب إليه وعلى اني لم اجده في حال تستوجب القلق فقد اسر الدكتور في اذني بان رئتيه ليستا محل اطمينان وقد وصف له بعض العلاج وعدنا الى سوق الغرب ،

وبعد يومين جاء نجله الشيخ موسى الى سوق الغرب ليلاً وقال ان حال ابيه لم تتحسن فبكّرت الى زيارته فالفيته في حالة مضطربة وما كدت ادخل عليه حتى بكى وقال لي بهذا النص : — جعفر ... راح اموت .. ترضى ان اموت هنا ؟

قلت — وقد تمالكت نفسي وتجلدت : — كنت اعهدك متفائلاً تستقبل المشكلات بثغر باسم فكيف وانت لا تشكو سوى وعكة خفيفة وستزول ، وقلت له دعني اتولى تطبيبك في هذه الدقيقة ولنبعث بمن يشتري لك من الصيدلية بشيء من حبوب (السوس) فاذا لم تخفف عليك ضيق تنفسك

واحتقان قصبات صدرك فانها لا تضرك باي وجه من الوجوه ، فقال لقد ذكرتني فقد كان محمد الخليلي قد اعطاني حبات سوس وانا في العراق ومدّ يده الى جيبه واخرج منه حبتين وبعد نصف ساعة بدا تحسن نسبي عليه .

وعدت الى سوق الغرب وصحبت صديقي الدكتور امين زهر اليه مرة اخرى فغير وبدّل في دوائه ، ومرة اخرى أسرّ في اذني بان حالته تبعث على القلق وانه يرجّح عودته الى العراق .

وتهيأت له وسائل العودة ورجع وهو في حال احسن ، وظل رأي الطبيب فيه يقلقني واخشى ان اسال عنه فلا اسمع الخبر السار فيه ، وعدت من المصيف وانا جد قلق عليه ، وكم سرني ان علمت بان حالته طبيعية وقد كان في بغداد قبل وصولي بايام يخطب وشكرت الله على ذلك

وفي صباح يوم وانا اخرج من الحمام في البيت فوجئت بالخبر المحزن ، فقد أذاع الراديو خبر وفاته واذا به يشخص امامي في آخر ساعات رؤيتي له وهو يقول :

ـ جعفر ... راح اموت

واخيراً لقد مات ... وراحت دموعي تنحدر على خدي

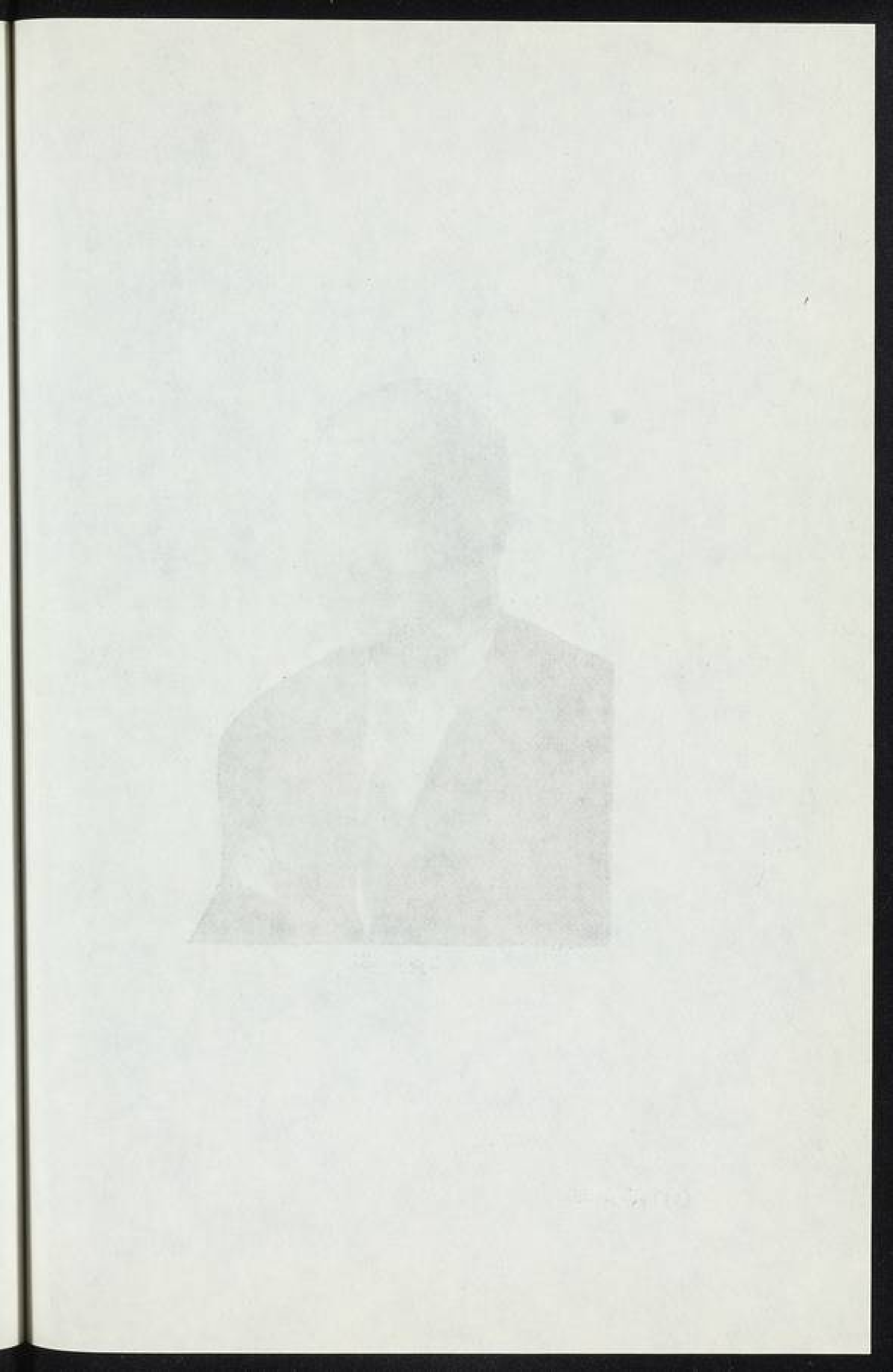
وحضرت (مجلس فاتحته) في النجف فاذا بعدد غير قليل من ذويه ومن اصدقائه يتقدمون الي بالتعزية كما لو كنت احق من غيري بهذه التعزية ، وقام الشيخ علي بازي باكياً في وجهي وقال لي :

ـ منّ الله عليك بالصبر فانت المعزّى ... فلقد ماتوا كلّهم

قلت والدموع تنحدر من مآقي – بل المعزى به كل الناس فما انا احق باليعقوبي منك ومنهم لقد صدق الشيخ علي البازي : لقد ماتوا كلهم ولم يبق من تلك الزمرة احد بعد اليعقوبي حتى البازي نفسه فواحسرتي عليه ، ويا ضيعة الطيبة والصفاء في بردة العلم والادب والظرف



نظير زيتون



كيف عرفت

نظير زيتون

في مساء يوم الاثنين من كل اسبوع اعتاد بعض الأدباء والكتاب ان يزوروا مكتب جريدة الهاتف التي كنت اصدرها . ويقطعوا وقتاً كبيراً بالحديث والأخبار والمناقشة التي كثيراً ما بلغ مداها منتصف الليل وتجاوز بعض الأحيان وقد دام هذا الاجتماع او ندوة الهاتف على الأصح طوال عمر جريدة الهاتف الذي بلغ عشرين سنة دون انقطاع . وكثيراً ما تكون هذه المناقشة والمساجلة ذات جدوى فتنتقل في اليوم الثاني من ندوة (الهاتف) الأسبوعية في مساء الاثنين ، الى صفحات الجريدة في يوم الجمعة ، وتصبح موضوع مناقشة اوسع كثيراً ما أسهم فيها عدد من القراء والكتاب واستغرقت وقتاً طويلاً ..

وفي احدى امسيات ندوة الهاتف من يوم الأثنين انجر الحديث الى الكتاب والشعراء وما إذا كانت آثارهم الأدبية تكفي لدراستهم واستخلاص فكرة كاملة عن اخلاقهم وطبائعهم ام لا ؟ فقال البعض ان ذلك كاف ما دام الأثر دالاً على المؤثر كما هو معلوم ، وقال البعض ان ذلك غير صالح بأي وجه من الوجوه واذا ما صلح الأثر الأدبي للدراسة فان صلاحه يكون محدوداً، وان ديوان المتنبي وحده لا يستطيع ان يصور المتنبي تصويراً صحيحاً ويعبر عن نزعاته بصدق واخلاص ما لم ينقب المنقبون عنه في بطون التراجم والمعــاجم

ويستقصون خبره من اعدائه ومحبيه ، ومن وقائعه ، وحوادثه ، وما آثار الشاعر والكاتب بعد ذلك الا شواهد يأتي بها اناس للدلالة على صحة رواية الراوين ، وحكاية الحاكين مما يعرفون عن هذا الأديب .

وطال الجدل ولا اذكر الآن كيف انتهى على صفحات (الهاتف) ولكني اعرف ان الذين قالوا بامكان الاكتفاء باثر الشاعر والكاتب للتعرف به كانوا اقلاء بين الذين لم يعتمدوا الأثر الأدبي الاشاهداً لما كانوا قد عرفوه عنه ولا غير .

وكما شغل هذا الموضوع افكار البعض مدة من الزمن فقد شغل فكري انا ورحت استعرض حياة بعض من اعرف من الادباء واستعرض آثارهم فاذا بالكثير ممن عرفت لا يعبر أثره الأدبي الا عن مدى موهبته وقيمة فنه ، اما خلقه وسيرته في حياته وسلوكه في مجتمعه فهو على طرفي نقيض مما يقرأه القارىء في شعره او نثره . وان عدد الذين كانت آثارهم الأدبية تعكس بحق اخلاقهم ونوازعهم واهدافهم في حياتهم كانوا قليلين .

ومن هؤلاء القليلين من ادباء المهجر الذين تشرفت بمعرفتهم وتيقنت من صحة تعبير شعرهم ونثرهم عن حقيقتهم كان الياس فرحات ، وكان جورج صيدح ، وكان نظير زيتون .

- ٢ -

ونظير زيتون عرفته - اول ما عرفت - أديباً من ادباء المهجر ، وأول ما لفت نظري من أدبه أنه داعي خير يحب الناس جميعاً وتفيض المحبة من بين سطوره فيضاً ، يوثر الصدق . والوفاء ، والمروءة ، ثم هو بعد ذلك لطيف في نقده وردّه ، لا يعرف التبجح والاستعلاء شأنه شأن الذين طهرت نفوسهم من الخبائث فكانوا من اهل الآخرة اكثر مما كانوا من اهل الدنيا

وانا اذا أعجبت بشخص اكثرت السؤال عنه واكثرت الامعان في اقواله وافعاله ، وكان اعجابي بنظير زيتون في نقده ، وفي تقريظه ، وفي تعليقه على

الآراء ، وفي تصويره لفكرة من افكاره ، وفي مختلف بحوثه اعجاباً كبيراً ، لذلك كان سؤالي عنه طويلاً ، وكم سرني ان اسمع عنه اضعاف ما كنت أقرأ له فازداد شوقاً للتعرف به ، مثله كمثل اولئك الذين ربطتني – اول ما ربطتني بهم – من ادباء المهجر مجلة (العصبة) ومجلة (الشرق) وغيرهما بسانباولو في البرازيل ، وجريدة (السائح) ولا سيما اعدادها الممتازة وغيرها بنيويورك من الولايات المتحدة ، وقد كُتب لي ان ارى البعض من اولئك بعيني ولم يكتب لي ان ارى الآخرين على رغم ما كان يشدني اليهم من اعجاب بجمعهم بين مواهب الأدب ومزايا الانسانية الرفيعة .

ولفت نظري من أدب نظير زيتون تمكنه من اللغة العربية تمكن العالم الخبير بأصولها ومبانيها ومعانيها ، والشيء الذي يطغى على ادبه ويطبعه بطابعه هو السجع الذي يغلب على نثره ولكنه سجع كثيراً ما دل على عمق وتطلع ومقدرة على التصرّف بالألفاظ والمعاني ، والمهم بعد ذلك هو ان سجعه كثيراً ما يجيء عفو الخاطر وفي صور طريفة وجذابة ، وكثيراً ما اشار الأدباء والكتاب الى اسجاعه هذه واعتبروها من مواليه وخدامه المختصين به .

كتب لي مرة الكاتب المعروف وديع فلسطين في ضمن ما كتب يقول « ... فيا لك من سفير أدبي موفق . وأديب عربي محلق ، ومحدث لبق مدقق » ومعذرة عما تضمنت عبارات هذا الكاتب الكبير من اطراء لا استحقه ، ويسترسل وديع فلسطين في سجعه ويقول « وان اخانا نظير زيتون سيفرح كثيراً اذا عرف ان هناك من يقلده في السجع المترسل » .

وفي رسالة أخرى يشير بها وديع فلسطين الى هذا الطابع من السجع المترسل الذي طبع به نظير زيتون ويقول في ختام هذه الرسالة :

« ... أعود فأشكرك على كتابك النفيس ، وودك الأنيس ، فأنت خير جليس — ومعذرة لصديقنا السجّاع الأكبر نظير زيتون — » .

وكثيرة هي الاشارات الى السجّاع نظير زيتون في رسائل الادباء ومقالاتهم

في مختلف المناسبات ، والسبب هو ان نظير زيتون ظل الوحيد الذي يلتزم السجع بين كبار ادباء العرب في العصر الحديث ، وكل تجديده انحصر في افكاره ، وروحه ، وطريقة معالجته المواضيع ، وعرض حججه ، وفي ختام احدى رسائل جورج صيدح الي يقول صيدح :

« ... فان كتبت الى اخينا نظير زيتون وجاء ذكري ، فاشرح له أمري ، - ولا تنس السجع - واقبل مزيد شكري » .

ويتخذ بعض اصدقاء نظير زيتون من اسجاعه موضوع دعابة كثيراً ما تتضمنه رسائلهم له ولبعض اصدقائه فمن رسالة كتبها الياس فرحات الى جورج صيدح بعد خروج صيدح من المستشفى بباريس وكان الياس فرحات قد قرأ تهنئة نظير زيتون المسجعة في مجلة الضاد الحلبية لجورج صيدح على نجاح العملية فكتب لصيدح مداعباً يقول :

« تسلمت امس مجلة (الضاد) الحلبية وقرأت تهنئة نظير زيتون بشفائك من الجراحة التي اجريتها فخفت والله عليك من ان تعيدك السجعات الزيتونات الى المستشفى فلا تنفعك هذه المرة الجراحات والعلاجات ، لأن السجعات يا حبوب لا دواء لها ، ومن حسن حظك ان صاحب (الضاد) حمل عنك نصف الحمل لأن (نظيراً) هاجمه بسجعاته كما هاجمك فكاد يقضي عليه » .

ومزية نظير زيتون انه يرسل سجعه دون تكلف في الغالب ، وكثيراً ما تجيء اسجاعه كما قلت عفو الخاطر فتكون بمثابة اطار فني يجلو الفكرة ويزيدها رسوخاً في الذهن ، ومحبة في النفس .

وقد اعتدت ان اهدي له في رأس كل سنة ميلادية شيئاً من التمر فيبعث لي برقية تكون اسجاعها أحلى من التمر واشهى كقوله في احدى برقياته :

« فاح بالهدية ثناك ، وتألق بالنبل محياك ، وسلمت للندى يداك ، وعاشت للسراوة سجاياك » .

ونظير زيتون من القليلين بين اللغويين والادباء المتضلعين والعلماء الباحثين :

في بعده عن التزمت والحذلقة ، وهو من أعضاء المجمع العلمي بدمشق المعروف بكونه من أكثر الأعضاء بعداً عن التعقيد والتمسك بالبالي القديم ، والجمود في التصريف مع التزامه بالسجع كل هذا الالتزام .

- ٣ -

ولنظير زيتون افق واسع من حرية الفكر ، والبعد عن التعصب والنظر الى جميع الأديان بمنظار من التجلة والاحترام حتى لتجد له في كل صومعة او مسجد ، او معبد من معابد الخلق محراباً يصلي فيه الى ربه بروحه . ويقدس دعاته ما داموا يدعون الى الخير والانسانية دون ان تقف المسيحية التي يعتنقها عائقاً بينه وبين الأديان الأخرى . وهي مزية الانسان الذي يفهم معنى الانسانية الصحيحة ثم هو قومي شديد التمسك بقوميته العربية متفان في محبتها ، ويختلف نظير زيتون عن صديقه الياس فرحات الذي لا يؤمن بدين ولكنه يتفق معه في ايمانه بالعروبة قومية وطبيعة ، وأدباً ، كدين مقدس .

لقد كتب لي مرة مهنياً بعيد الفطر من رمضان وهو عيد الاسلام ونظير مسيحي كما هو معلوم ، لقد كتب لي يقول :

« وبعد ، فقد كرَّم الله العام برمضانه ، وبارك رمضان بتنزيل قرآنه ، في آيات من حكمته واحسانه ، ورحمته ، ومحبته ، وتحنانه ، ونفحات من رضوانه وجنانه ، ومعجزات من وحي بيانه ، وفرض صيام رمضان على من رعى عهده بايمانه ، واختار سبيله الى الله بقلب سليم تحرر من شهواته وادرانه ، فكانت حسناته هي الراجحة في ميزانه » .

ثم يقول بعد ذلك : « ولقد تسامى الفطر اذ زانه الله بهلال من جمانه ، وذهبانه ، فاذا العيد شعاع من شهبانه ، واريج من ريحانه ، ونغوة من الحانه ، ولبوس من ارجوانه ، ونشوة غبطة من دنانه ، ولؤلؤة من تيجانه » الى ان يقول :

« وانه ليطيب لنا ان نشارككم في هذه الفرحة الروحية القومية والتي هي فرحة كل عربي متحرر حريص على التراث العربي الخالد والفكر العربي المارد ، والمجد العربي التالد .. الخ » .

وكتب لي مرة مهنئاً بعيد الأضحى من رسالة جاء فيها :

« وبعد فقد أقبل (الأضحى) في هالة من السنا والسناء ، تواكبه نجوم اليمن والآلاء ، والبشر والصفاء ، فاذا القلب يغمره من الجذل لآلاء، واذا النفس تنطلق في الفضاء ، وتناجي السماء ، وترفع الى العرش آيات الحمد والثناء ..الخ » .

ومن اظهر مزايا نظير زيتون الانسانية هو الوفاء للحق والأصدقاء ، وقد تجلى وفاؤه في كثير من المواقف لأصدقائه ومحبيه ، ولقومه ولغتهم وأدبهم وتاريخهم ، كما تجلى في كثير من المقالات التي كتبها بداعي الوفاء وداعي الحق الذي يعتقده ، وكان آخر ما نشره بهذا الصدد هو الدفاع الذي كتبه عن المرحوم نسيب عريضة في مجلة الأديب البيروتية تعليقاً على ما كتبه حارث الراوي كما لو كان هو المتهم الجريح ويقول لي فيما يقول :

« الفت نظرك الى الاستاذ حارث طه الراوي الذي تفضل على هذا الشاعر الصوفي المتحرر – يعني به نسيب عريضة – فاتهمه بالعصبية الطائفية والاقليمية ، سامحه الله وغفر له هذه الضلّة » .

ومن حسن ظن زيتون الذي جبل عليه في حياته انه تخيل ان يكون فيّ انا بعض ما كان فيه من خصال الوفاء فكتب لي مرة رسالة جاء فيها :

« ... وبعد فهذه رسالتك الأخوية أمامي اقرأها واتلو قراءتها مبتهجاً مغبوطاً وانا اردد همساً ، وعلى الثغر ، وفي القلب بسمة هانئة : ان العالم لا يزال بخير ما دام امثال جعفر الخليلي ، ولا تزال هناك مسحة من الجمال على وجه العالم العجوز ترتسم في مثل شمائل جعفر الخليلي واخوانه .

وليس لي بعد هذا ان اشكو واتذمر ، وها هو جعفر الخليلي يرفدني

بصداقته ، ويظللني بجناح رعايته ، ويسكب في قلبي كأساً من سلافته .

ألا إن الودّ ودّك ، والنبل شهدُك ، والعهد عهدك ، والخير قصدك .
والعلى وِردُك ، والعبير ورَدُك ، والوفاء مجدُك .

وعندي ان الوفاء في رأس الفضائل العربية ، والمكرمات الانسانية ، والمزايا المثالية ، ويذهب بك الوفاء العربي الى ابعد الحدود فاراك تغتفر لأخيك بعضاً من هفواته .. الخ » .

وانجذب الشاعر القصاص انور شاؤول بهذه الجمل من الآيات المرصعة بالاسجاع الفنية من رسالة زيتون ، وسحرها ونسجها وتركيبها فاحب ان يُركبها البحرّ لتصبح شعراً منظوماً بعد ان كانت نثراً موزوناً ، وانه ليثقل علي ويشق والله : ان تتضمن شواهدي ــ لجبلة نظير زيتون وأدبه ، وفنه ، وسيرته في دنياه ــ الشيء الكثير من الثناء الذي لا استحقه انا والذي انتزعه زيتون من نفسه واضفاه علي بداعي حسن الظن ، ولكن ما العمل وهذا هو الذي وقع ، وزاد عليه الشاعر انور شاؤول ان صاغ تلك الآيات شعراً ونشره مقطوعة في صحيفة (كل شيء) ببغداد وذلك في ٢٠ــ٥ــ٩٦٧ على النحو التالي :

الى الخليلي الكبير

الجمل المقوسة في هذه الأبيات مقتبسة من الرسالة التي بعث بها الاستاذ نظير زيتون الى صديقه الاستاذ جعفر الخليلي ، وهذه الجمل كما ترى . هي غاية في الايجاز ونهاية في الاعجاز وقد حاولت ان اتخذ منها قوافي دريّة لقطعة شعرية أقولها في الاستاذ الخليلي ، ولا أدري اذا كنت قد وفقت ام انني أخفقت ، ومهما يكن من امر فان هذه اللمع الزيتونية المشعة قد حفزتني على استعراض بعض جوانب الصورة الفذّة التي احفظها للاستاذ الخليلي في نفسي :

أنا ان سُئلت عن المودة ... قلت : « إن الودّ وِدّكْ »
قد عفتُ شهد المترفين ... لأن هذا « النبلَ شهدكْ »

ولكم عهودٍ أهملتْ وتُنوسيت «والعهدُ عهدُكْ»
ان المقاصد لا تعدّ دروبها «والخيرُ قصدُكْ»
ورِدْءُ الأنام مغانمٌ ومن «العلى» «قد كان وِردُكْ»
اما العبير وقد تضوّع في المغاني «فهو وَردُكْ»
اني امجّد بالوفا و «وفاؤُكْ» المشهودُ «مجدُكْ»

بغداد ٢٠-٥-٩٦٥ انور شاؤول

وكثيرة هي الصفات الانسانية التي كوّنت من نظير زيتون شخصية قليلة النظير في جبلّتها الاخلاقية اضافة الى علو كعبه في العلم والبحث والادب الذي ليس هذا مجال استعراضه لما يتطلب من دقة في البحث والاستعراض ، ومن اهم ما تحلى به زيتون من الصفات هو الصدق ، والبعد عن الخداع ، والغش ، والمجاملة الكاذبة اذ لم يعتد زيتون ان يثني على احد ، ويؤيد فكرة لا يؤمن بها ، او يجاري التيار بداعي المجاملة . وانما هو مجامل ضمن الحدود الاخلاقية التي توجب ان يكون الانسان بشوشاً لطيفاً متواضعاً ، وان للفن والعلم عنده شأناً لا يفرّط فيه على حساب الصداقة والمحبة لذلك خلق صريحاً ولكن في شيء كثير من الأدب والخلق الذي يترفع عن التحدي والتعالي ، ولقد أطراني مرة وهو يقرّظ احد كتبي فكتبت اليه بأني اعتبر هذا الاطراء مجرد مجاملة تفرضها الصداقة عليه ، فغضب زيتون ، وان غضب زيتون هو الآخر لطيف ينمّ عن نفس وديعة ، وذات طيبة وكتب لي يقول :

« اما المجاملة التي كرّرتها في رسالتك الكريمة فلا اعرف والحمد لله تهجئة حرف واحد من احرفها ، واني احمد الله على هذه (الأميّة) المتسامية التي ترفع من شأن صاحبها ، ذلك بأني ارى في المجاملة مهما رقّت واسترقّت لوناً من الوان النفاق الذي اعده في طليعة امراضنا الهدامة ، فلا تصدق بعد هذا أني جاملتك . لا والله .. الخ » .

- ٤ -

وكل ما عرفته عن نظير زيتون لم اعرفه من خلال مقالاته ورسائله ، وانما جاءت مقالاته ورسائله شواهد لما كنت قد وقفت عليه من اخباره وممن يحيط به في المهجر ، وفي الموطن ، من نزعات وافكار ، وصفات ، واعمال ، واشتدت اواصر المحبة بيني وبينه ، وازدادت على مرور الزمن اعجاباً بأدبه وفنه وخلقه الرفيع الكريم ، ولم تنقطع الرسائل بيننا ، وعلى انه عاد من المهجر واستوطن مسقط رأسه (حمص) وأصبح قريباً مني فلم يتسن لي التوفيق برؤيته ، على رغم الحاحه الشديد علي بوجوب زيارة حمص . وعلى رغم محاولتي ايجاد المناسبة التي تم فيها دعوته الى العراق من قبل وزارة الثقافة والارشاد ، فلا انا الذي وفقت لزيارته بحمص ، ولا انا الذي وفقت لدعوته الى العراق ، ولطالما هممت واخفقت ، ثم هممت واخفقت ، حتى يئست وتركت الأمر للصدف ، وقد زالت الكلفة ما بيننا بسبب دوام مراسلتنا واتصالاتنا المستمرة ، واصبحت اشعر كأني اعرف الرجل عن كثب كما لو كنا اهل بلد واحد ، وشارع واحد يرى بعضنا البعض كل يوم وكل ساعة ، وكان يطلب مني ان ابعث له في كل موسم بمقدار من التمر بسبب زوال الكلفة ولا يمتنع من ان يحدثني عن جودة هذا التمر في هذا الموسم ورداءته في الموسم الآخر ، وقد يستكثر احياناً ما ابعث به اليه وقد يستقله ، ولقد كان له الفضل في إحكام الصداقة بيني وبين الصحافي الشاعر الاستاذ عبدالله يوركي حلاق صاحب مجلة الضاد النفيسة ، فقد ابرق لي من حمص مرة يخبرني بموعد مرور الاستاذ يوركي بقطار حلب ببغداد وهو في طريقه الى زيارة ابنه في الكويت ويطلب مني ان أمثله في استقبال صديقه هذا كما لو كان صديقي انا فكان لي شرف التعرف بهذا الصديق اعني (يوركي) الذي جمع بين مواهب الأدب وفضائل الأخلاق .

وظلت أمنية التقائي بزيتون تراودني زمناً طويلاً دون ان يكتب لي التوفيق

بتحقيقها على قرب حمص من بغداد وعلى كثرة زيارتي للبنان ، وفي صيف سنة ١٩٦٦ من العام الماضي كنت ببيروت ، وكنت قد اتخذت من مكتب الصديق السيد محمود صفي الدين صاحب دار بيروت للنشر مقراً لي وكنت في ذلك اليوم على موعد مع المطبعة لتعرض علي هناك (الملازم) التي تم طبعها من موسوعة العتبات المقدسة . ومعي الصديق العلامة السيد حسين الحسيني مفتي بيروت الجعفري الممتاز . وقد شغلتُ مكتبَ صاحب دار بيروت في تلك الساعة ، لتغيبه في اوروبا اذ دخل علي شخصان تنم سيماؤهما على انهما وجهان كريمان وشخصيتان محترمتان ، وتقدم احدهما بنصف خطوة عن الثاني وقد ظنني خليفة السيد محمود صفي الدين في دار بيروت او وكيله ، او احد موظفي مكتبه ، وقدم الي صاحبه قائلاً :

– انه الأديب الشهير الكبير نظير زيتون ..!!

وبدل ان اشهق شهقة الفارح الذي حقق الله له امنيته اذ اعطاه الدنيا برمتها امسكت نفسي وتجاهلت الأمر ، فقد لذ لي ان امزح في تلك الساعة وسألت الرجل الذي قدمه :

– وما هو عمل الرجل ..؟

قال – انه الأديب الكبير وقد طبقت شهرته دنيا العروبة والأوساط الأدبية فكيف لا تعرفه ولا تعرف اسمه ؟

وتمالكت نفسي وقلت له :

– وحضرتك ؟

قال – انا محمد علي الطاهر ...

يالله ما اعجب ما تفعل الأقدار وتجيء به الصدف ، فهذا رجل آخر من رجالاتنا الكبار المحبوبين الذي طالما تمنيت ان اراه ، وطالما فكرت في السعادة التي ستغمرني اذا ما كتب لي ان احظى بلقياه ، فانا اعرفه من عهد

بعيد ، ومنذ ان كان يصدر جريدة (الشورى) التي كانت تصل الي عن طريق المبادلة مع جريدتي (الفجر الصادق) وهي اول جريدة اصدرتها في النجف ثم لم اعدم الوسائل التي تجعلني ان اعرف هذا المجاهد الكبير ، والوجه العربي المشرق بفضائله ، وايمانه ، وتضحياته .

يالله ما تفعل الصدف ؟ كيف جمعت بين هاتين النعمتين وانزلتهما علي كما تنزل الرحمة من السماء ؟ وكدت اثب من الفرح ولكني تمالكت نفسي كما قلت وعدت الى ما عرفت به من طبيعة الدعابة ، وتظاهرت بجهلي الرجل وقلت —:

— ولكن ما هو عملك انت ؟

ويبدو ان الاستاذ (الطاهر) قد برم وظن ان هذا الجالس وراء هذ المكتب والذي استخلفه السيد محمود صفي الدين في محله هو اقرب الى السوقة منه الى اهل الثقافة فكرر قوله بشيء من العصبية قائلاً :

— انا محمد علي الطاهر ؟

قلت — ولكن ألم تقل لي انك زيتون ؟

قال — لقد قلت لك عن صاحبي هذا انه نظير زيتون ، ولم اقل لك انني انا الزيتون ...

قلت — لا فرق فلتكن انت الزيتون او هو ...

ثم عدت مرة أخرى للتباله — وكان قد ضاق صدر ابي الحسن الطاهر ولم أكن اعلم يومها انه اذا ضاق صدره فلن تكون العاقبة حسنة — لقد عدت اليه اسأله :

— اذن فمن يكون صاحبك هذا ؟

— قال — وقد بدا على وجهه الامتعاض — : لقد قلت لك انه الأديب الكبير نظير زيتون فاذا كنت لم تسمع به ولم تعرفه فما الذي استطيع ان افعل انا ؟

والمهم ان تعلم ان للأستاذ نظير زيتون دورة كاملة من كتاب (لسان العرب) هنا بدار بيروت وقد جئت به ليتسلمها .

والدورة التي يشير اليها ابو الحسن (محمد علي الطاهر) من لسان العرب هي دورة من أصل عدة دورات كان قد اشتراها احد الأمراء من دار بيروت وفوض أمرها الى الاستاذ جورج صيدح ليهديها لمن يتوسم فيه الاحقية بين علماء الأدب في البلدان العربية فكان لنظير زيتون حصة فيها ، فجاء اليوم ليتسلمها .

ويبدو لي ان صديقي السيد الحسيني مفتي بيروت قد احس بما قد صممت عليه من القيام بتمثيل مسرحية هزلية صغيرة ذات فصل واحد لن يستغرق اكثر من ربع ساعة لو اقتضى ان يطول فابتلع البسمة التي لم تفارق شفتيه وجمّد نفسه على خلاف سجيته .

وبعد ان جلس نظير زيتون وجلس ابو الحسن وجيء لهما بالمرطبات نفد صبري فقمت من وراء المكتب وتقدمت اليهما وقلت :

— لقد جاء دوري انا لتعريف نفسي اليكما فانا فلان . اذا كنتما تعرفان فلاناً .

وهناك قفزا في وجهي وتعانقنا طويلاً ، ثم تعانقنا والضحك يغمرنا ، اما ابو الحسن فهو يقول : انه لم ينخدع ، وانه عرفني من اول التقائه بي لأن صورتي تشبه صورة أخي عباس الخليلي الذي تربطه به رابطة جدّ وثيقة من المحبة والأخاء .

وفي بيروت علم نظير زيتون بأني مدعو عن العراق لحضور مؤتمر المستشرقين بطهران فقال لي انه يريد مني ان اجلب له فيروزة من ايران لأنه يحب الفيروز وقال انه يريد مني بعد ذلك ان ابعث له حين اعود الى العراق بعباءة صفراء اللون ومن النسيج الشفاف الذي عرفت بنسجه مدينة النجف ، وقال انه ينوي ان يعود الى البرازيل مرة أخرى ومعه هذه العباءة .

وافترقنا بعد ذلك ونحن على اشد ما نكون ولاء ، وقد شدتني هـذه اللقاءات اليه اكثر حين تيقنت اكثر بما كنت قد عرفت . وتحققت عن سيرته ، وما قد فطر عليه ، وكتب لي حين عدت الى بغداد يقول :

« ... ومما زاد في سروري ان صديقنا وأخانا الغالي المجاهد العربي الاستاذ محمد علي الطاهر – الذي ابت عليه مكارم الأخلاق الا ان أحلّ ضيفاً عليه في الفندق الذي اختاره – كاد سروره بلقياك يضاهي سروري ، وهو الذي توثقت اواصر الصداقة الفكرية بينه وبين أخيك على صفحات (الشورى) جريدة الطاهر القاهرية التي كنا نطالعها في المهجر مدرسة عربية نضالية مشرقة .

حقاً كنت سعيداً بهذا اللقاء غير المنتظر ، ولا غرابة اذا شكرت للعناية الالهية هذه الالتفاتة التي ملأت نفسي غبطة .. » .

وعدت من طهران ومعي الفيروزة ، واوصيت من يشتري الصوف المطلوب ، ويغزله ثم ينسجه ، وبعثت له بالعباءة ، وحرت في كيفية ارسال الفيروزة له لصغر حجمها ، وكأنه ظن ان طلبه العباءة والفيروزة ربما تضمن شيئاً من المضايقة لي ، ولم يدر انني كنت سعيداً وفي منتهى السعادة ان يكون بمقدوري تحقيق طلبة لهذا الصديق وان كانت تافهة كهذه العباءة والفيروزة فكتب لي يقول :

« .. لا تسل عن حزني على نفسي ، لقد لمت نفسي اعنف اللوم . وطأطأت خجلاً بعدما عدت الى حمص ... لقد تساءلت ولا أزال أتساءل . كيف سولت لي نفسي ان اطلب العباءة والفيروزة ؟ لا أدري ... وعلى كل حال ارجو ان تعذر هذه الزلة ، فعندما تقابلنا في بيروت طالعت في وجهك الكريم وجه أخ غير غريب عني بل قريب كل القرب الى روحي لو صح ما يزعمه التقمص وتناسخ الأرواح لقلت انك كنت لي أخاً في الحياة السالفة .. الخ » .

واتسعت دائرة اتصالاتنا الروحية وتوسع حجم رسائلنا ، وزاد يقيني انني قبال رجل قد جبل من طينة القديسين ، أما الفن والأدب – وان سما –

فان الأدباء لم يستطيعوا ان يضيفوا الى مجد الانسان شيئاً ، ما لم تكن الانسانية هدفهم الأكبر في حياتهم ، وقد كان نظير زيتون من هذه الناحية في الطليعة بين الأدباء وقد اتخذ من أدبه الرفيع وعاء لانسانيته فسكب فيه روحه حتى فاضت .

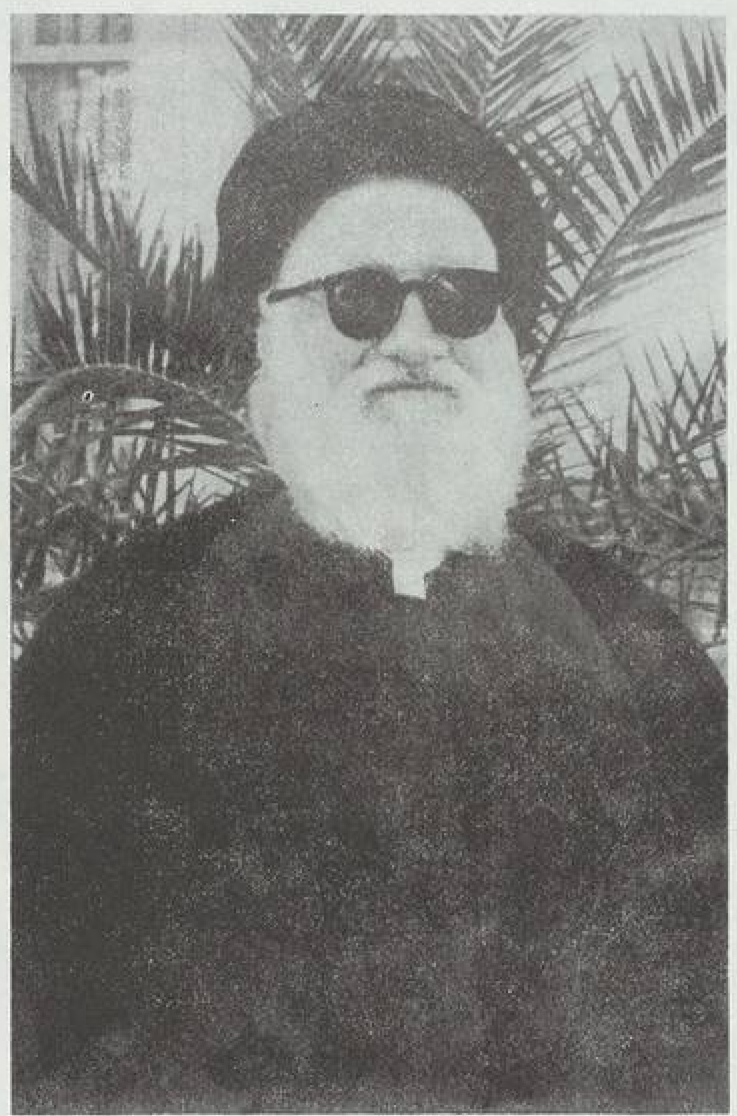
وقبل ثلاثة أيام كنت اشعر منذ الصباح الباكر بانقباض وسأم دون ان يكون هناك ما يستدعي ذلك ، وظللت على هذه الحال حتى المساء ، وفي المساء كنت ألهو للتغلب على هذه الموجة من الكآبة التي اجتاحتني : بقلمي وانا وراء مكتبي فاستقطره على الورق عابثاً قطرات ونقطاً دون هدى ولا غاية سوى الاستجابة لوحي السأم الذي ركبني والذي كثيراً ما يفرض على المرء ان يأتي ببعض الأفعال دون اختيار . واذا بجرس التلفون يرنّ ، واذا بالصديق كوركيس عواد على التلفون يمسّي بالخير ، ويسأل عن الأحوال في شيء من التباطؤ والتدرّج في الكلام ، ثم يسألني ما اذا كنت قد تلقيت من حمص خبراً في هذه الأيام ؟

قلت — لا ...

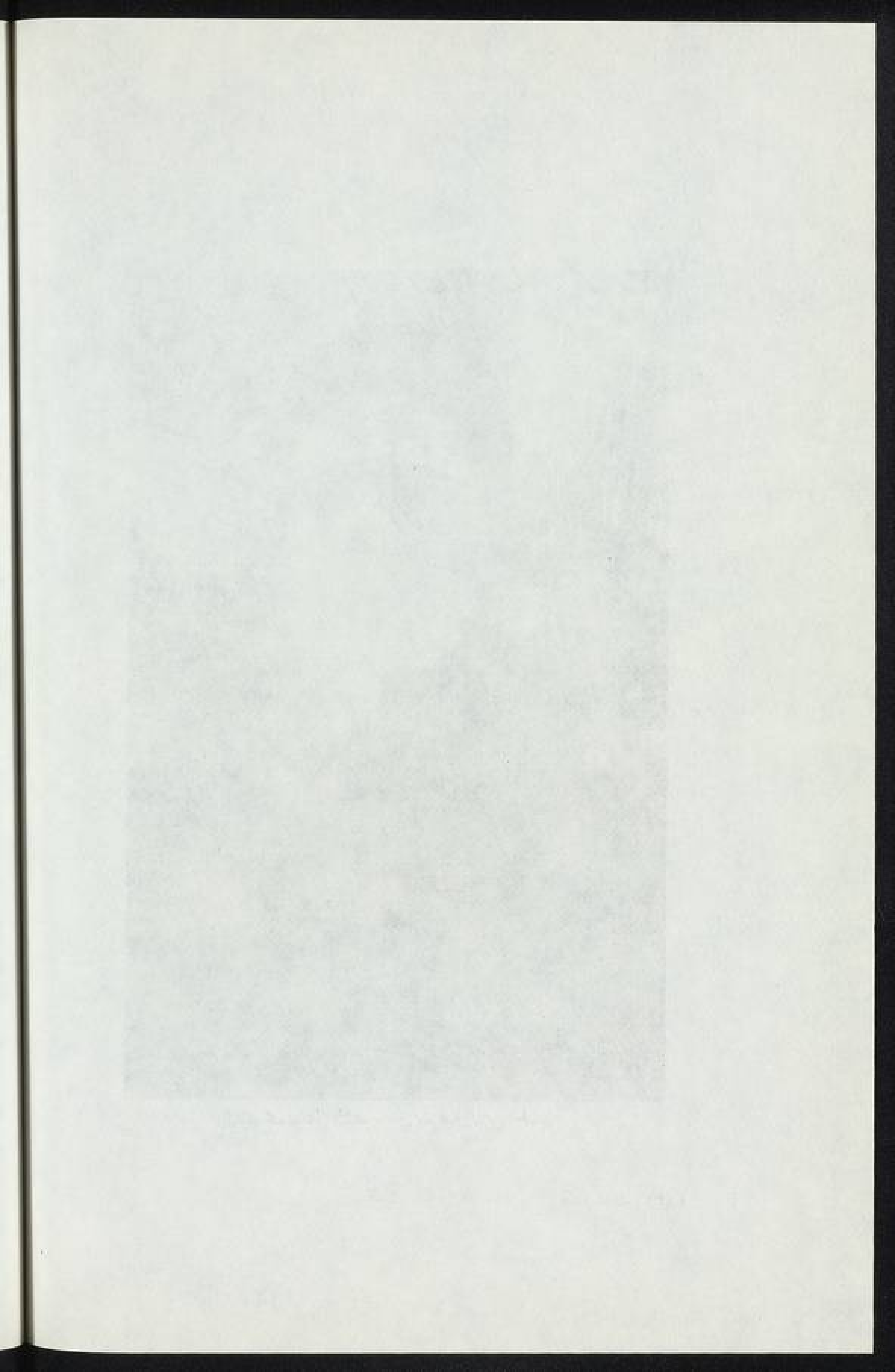
فعلم اني لم اعلم شيئاً بعد فقال — وهو يحاول ان يمطّط كلماته ليبتعد جهده عن مفاجأتي . قال : لقد وصلني منذ ساعة مع الأسف الشديد خبر نعي اخينا زيتون .

ولست ادري كيف كان ختام المكالمة التلفونية بيني وبين الأخ عوّاد غير اني انكفأت على وجهي وبدأت قطرات الدموع تنصب على الرقعة التي انصبت عليها قطرات الحبر وكأنّ القلم قد احس بالفجيعة قبل ان احس بها انا فبكاه على الورق بفيض من دموعه قبل ان تبكيه عيناي .

ولست أدري الى كم ظللت منكفئاً على وجهي حين طُرق علي باب الغرفة فرفعت رأسي وأسرعت اكفكف دموعي لئلا تقع عليها عين القادم ، والتفت واذا بالقادم موزع البريد يحمل فيما يحمل الي نعي الصديق الأديب الحبيب الذي راح ولن يعود .



السيد محمد علي الشهرستاني ـ هبة الدين الحسيني



كيف عرفت
السيد هبة الدين الحسيني

بين كل جيل والجيل الذي يليه فروق تميز حياته في جميع نواحيها من المأكل والمشرب والملبس والسكن والأفكار . وهذا ما يتضح لنا أمره فيما نقرأ أو فيما نرى مما يخلفه كل جيل للذي بعده من الآثار . ولكن تلك الفروق ما بلغت يوماً من التباين العجيب مثلما بلغت الفروق بين جيلنا هذا والجيل الماضي . فلقد مرت آلاف السنين وكل مراكب الأجيال السابقة مثلاً لم تتجاوز الحمير . والبغال . والخيل . والعربات التي تنوء بجرها الخيول الأربعة عندنا في العراق والتي لا يزيد عدد ركابها على ثمانية أنفار . اما جيلنا هـذا فقد قفز قفزة عجيبة هي الى السحر ادنى منها الى اي شيء آخر . فلقد قفز جيلنا هذا من ظهر الحمار الى بطن الطائرة النفاثة وشب من الأرض الى اعالي السموات . ثم تجاوزت افكاره ومبتدعاته الحدود المألوفة في ميادينها المختلفة .

كنا في النجف الأشرف . وكنا اطفالاً يُقرِؤوننا في المدرسة بعض العلوم وفي ضمنها الجغرافية . ويقولون لنا : ان الأرض كرويّة . وانها تتحرك . وان مبعث المطر البخار . وان الزلازل والبراكين انما هي نتيجة الحرارة الجوفية التي تمدد الأجسام في جوف الأرض فتحدث حركة مفاجئة من جراء ذلك . وضغط تعود اليه هذه الأحوال . وان الخسوف والكسوف نتيجة

حركة الأرض وحيلولتها دون القمر وحيلولة القمر دون الشمس وان المد والجزر نتيجة للجاذبية ، وكان كل هذا ليس غريباً على المفاهيم العامة فحسب وانما هو ضرب من الكفر لا يجوز القول به ، لذلك كنا نجد معارضة جد شديدة من المجتمع الذي يرى ان مثل هذه الأفكار والنظريات والآراء مخالفة للدين ، وانه ليس من يقول بها الا (الطبيعيون) والطبيعية مصطلح يطلقونه على الملحدين من الذين يعتقدون بان الطبيعة هي التي اوجدت ذاتها بذاتها ، وانها هي التي كونت الكون وخلقت الخلق وجاءت بهذه الدنيا الى الوجود ، لذلك تجنب الناس المدارس ، وحرّموا على اولادهم دخولها او قراءة المجلات والكتب التي تعنى بمواضيعها ، الا القليل القليل من اولئك الذين آمنوا بصحة الآراء العلمية كل الايمان او بعضه .

وكان لأولئك المعارضين لانتشار العلوم الحديثة والمحرمين لقرائتها ادلة من الأخبار والروايات يزعمون انها تمثل روح الاسلام وأهدافه ، وكان الناس بحاجة جد ماسة الى من يتصدى لتلك الأدلة التي ابتدعوها ووضعها آباؤهم على لسان الرواة والمحدثين ورجال الدين ليفندها ويثبت زيغها وفسادها لكي يسهل الاقبال على العلم الصحيح ، ويألف الناس هذا الانقلاب السريع في عالم الأفكار ، وكان لا بد لهذا المفنّد ان يكون شخصاً من رجال الدين الروحانيين الذين يصعب وجود ثغرة فيه للطعن بايمانه ومعتقده والا فسد العمل وزاد التمسك بتلك الأوهام والخرافات ، واعتبروا البراهين العقلية بضائع مستوردة من الخارج بقصد افساد الدين ونشر الكفر ، ولكن من يكون هذا الرجل الروحاني الذي يفهم الأفكار العلمية الجديدة فهماً كافياً لهذه المهمة ، وكيف يرضى هذا الروحاني بان يطوّح بمركزه ومستقبله فيقف في وجه ذلك التيار الجارف الذي أغرق الآلاف لا المئات من الذين حاربوا تلك الأخبار التي ادخلوها في الدين باسم الدين وهي ابعد ما تكون عن الدين ..؟ من هذا الذي يقدر قيمة التضحية فلا يبالي بما سيلاقي دعوته من رد فعل فيصرخ بالناس ولا سيما بمن يقرأ تلك التي لا تمت الى الدين بشيء ولا ببعض الشيء ؟

لقد كان هذا الرجل الذي تقدم مضحياً بمقامه ومستقبله الروحاني في سبيل الدعوة الى نبذ تلك الخرافات هو السيد محمد علي الحسيني ، (او هبة الدين الشهرستاني) . او هبة الدين الحسيني ، وكان يومذاك رجلاً من المراهقين للاجتهاد وعلى جانب غير قليل من الاطلاع على العلوم الحديثة والأفكار الجديدة الى جانب اختصاصه في الفقه ، وعلم الأصول ، وعلم الكلام .

نقول يضحي بمستقبله الروحاني لأن للوصول الى المرجعية الكبرى مراسيم وأساليب والتزامات خاصة اذا خرج عليها الروحاني بعدت عنه الزعامة والمرجعية على قدر ابتعاده عن الأخذ بتلك (الاعتبارات) والالتزامات ، فالعرف والمفاهيم العامة تتطلب من المرشح للزعامة الدينية الكبرى ان لا يضحك مثلاً وان يكتفي بابتسامة خفيفة اذا اقتضى ان يضحك ، وان يبتعد عن التجديد في هيئته وحياته الخاصة والعامة ، وان يقصر اهتمامه واكثر اهتمامه في الزهد والقناعة ، وان يقتصد على قدر الامكان في الكلام ، وان يمشي مشية رتيبة موزونة ثقيلة ، والا كان كبعض الناس ، واذا صار كبعض الناس فلتت منه صفة العظمة التي يسبغها الناس على الزعماء الروحانيين ، وقد ادرك ناسنا في السنين الأخيرة عدداً غير قليل من هؤلاء الذي قصّر بهم مزاجهم ورقة حاشيتهم وعدم التزامهم بتلك الطقوس عن بلوغ كرسي الزعامة في حين تبوأه من هم اقل درجة علمية منهم .

قال لي مرة احد ابناء عمي وكان من الطلاب الروحانيين وقد كان الحديث يدور حول الشيخ ضياء العراقي . والشيخ ضياء العراقي من كبار المجتهدين واساتذة العلوم الروحانية الذي لم يكن يحضر مجلس بحثه الا العلماء والمراهقون للاجتهاد وقد ادركته انا ورأيت مجلس بحثه ودرسه عن كثب وعرفته بعض المعرفة .

لقد قال لي قريبي :

ــ هل هناك من يشك في مقدرة الشيخ العراقي الهائلة في العلوم الدينية

وكونه من الافذاذ ؟

قلت له ـ لا احسب ان هناك من لا يعرف ذلك عنه .

قال ـ ومع ان الجميع يرون فيه الزعيم الروحاني الكبير فانه لن يصل الى المرجعية الكبرى ولن يبلغ يوماً ما مرحلة الزعامة العامة مادام على ما هو عليه من المزاج الذي يتنافى والشروط التي يطلبها الناس وليس العلم .

قلت ـ وما هو هذا المزاج ؟

قال ـ انه كثيراً ما يُرى الشيخ ضياء وقد اقتعد احدى قمم هذه التلول المحيطة بالنجف قبيل غروب الشمس وبعيده وحوله بعض تلاميذه ، وهو يستعرض الغادين والمارة من الناس ، ويستنشق الهواء ، في الوقت الذي ينتظر الناس من الذي يعدّ نفسه للمرجعية ان يكون في مثل تلك الساعة في الحرم الشريف او الصحن او المسجد وقد لف حنكه حول رقبته خاشعاً يصلي الى الله وكثيراً ما ترى الشيخ ضياء العراقي وقد وقف يصلي صلاة الصبح فوق دكة الحمام العسومي وليس بينه وبين شروق الشمس الا بضع دقائق ، والناس ينتظرون من الذين يتصدون لأن يكونوا مراجع دينية ان يكونوا قد انتهوا من صلاة الصبح عند الفجر وفي المسجد اوفي الحرم الشريف لا في الحمام ولا في البيت هذا اضافة الى مرحه ، وضحكاته الرنانة ، ومناقشاته الطويلة التي تجري في مجلسه ، ومعاملته لتلاميذه واصدقائه معاملة الند للند .

كنت عند الشيخ ضياء العراقي مرة فقص علي قصة ترجع الى ايام شبابه ، قال زرت مرة رجلاً في بيته لشأن خاص وكانت الغرفة نظيفة وجميلة وجدرانها مكلّسة ناصعة البياض وهناك سعلت فالقيت ببصقة على الجدار ولم اكن اناوحدي من يفعل مثل هذا فيلقي بالبصاق هنا وهناك في تلك الأيام ، فالتفت اليّ صاحب البيت وقال لي : كم يكون من الجميل لو تفضلت فالقيت ببصقة اخرى على الجدار المقابل ليتعادل الأمر ويكون هذا متفقاً مع تنسيق الغرفة ... الا ترى هذا الشباك مقابلاً لذاك الشباك ، ثم الا ترى كيف وضعت هذه المعلقات

احداها مقابل الأخرى ، فارم ببصقة أخرى مراعاة لهذا التناسق .. ارمها على الجدار المقابل – قالها ذلك الرجل – وقال الشيخ ضياء كم اخجلني هذا الرجل بتهكمه وسخريته وقد خرجت من مجلسه وما رأيته بعد ذلك .

* * *

وليس من شك ان السيد هبة الدين كان يعرف نهاية من يخرج على التقاليد من الروحانيين ولكنه فضل ان يعمل وان يكون اول العاملين في بث الوعي . وكان اول ما فكّر به هو النزول الى ميدان المناقشة وتصحيح آراء الناس ، وبدأ اول ما بدأ بتزييف تلك المعتقدات في المجالس والأندية التي كان يؤمها العلماء ورجال الأدب ، وفي حلقات الدرس التي كان يعقدها في مسجد الطوسي ، فقد امتاز السيد هبة الدين بين جميع اقرانه بانه كان افضل من يقوم بتدريس الهيئة (الجغرافية الرياضة) وان دراسة المواريث في الفقه مما تلزم الفقهاء بان يدرسوا من الرياضيات ما يكفيهم وكان من اشهر الكتب المخصصة هو (خلاصة الحساب) للشيخ البهائي اذا لم اكن ناسياً ، و(الهيئة السماوية) للشيخ البهائي كذلك ، اما الهندسة فكان اعتمادهم على اقليدس فيها ، وكان عدد الذين يحضرون دروس الرياضيات من الطلاب الروحانيين عند السيد هبة الدين كبيراً ، فضلاً عن عدد الذين يدرسون عنده الفقه والأصول.

والتدريس في النجف الأشرف مجاني من اول مراحله الأدبية والدينية الى آخرها ويكاد يكون من واجبات المدرس فسح المجال لمن يطلب حضور درسه اذا امكنه ذلك ، والسيد هبة الدين كان واسع الصدر ، كثير النشاط ، يصعب عليه الاعتذار لذلك اتسعت حلقة دروسه اتساعاً جلب اليه الأنظار ، فاتخذ منها وسيلة تبشير لآرائه الجديدة ، وتفنيد الأخبار التي تعارض حقيقة العلم وواقع الحياة

وطريقة التبشير والتفنيد عند السيد هبة الدين على ما كان قد اشتهر وما كان يرويه الراوون – قبل ان اقرأ آثاره في مجلة (العلم) حين شببت ، وقبل

ان اقرأ كتابه (الهيئة والاسلام) وقبل ان اقرأ كتابه عن (تحريم نقل الجنائز) كانت طريقة فريدة في بابها ربما اختصت به وحده او اختص بعضها به وكان يستمدها من القرآن الكريم ومن الأحاديث التي يعتمد صحتها فيحاجج بها الجامدين والمتزمتين والذين يحمّلون الدين اكثر من طاقته وواجبه .

وكان مفهوم اولئك الذين جوبهوا بهذه الطفرة عن الأرض انها محمولة على قرن ثور ، فاذا ما تعب الثور – وقد يحس بالتعب في رأس كل سنة حوّل الثور الأرض الى القرن الثاني !! وان هذا الثور يقف على ظهر سمكة ، وان هذه السمكة واقفة في البحر ..!!!

ويسألهم السيد هبة الدين – على ما يروي الرواة – وعلى اي شيء يقف البحر ؟

فيقول له القائل : – انه يقف بقدرة الله تعالى .

فيردّ الشهرستاني :– ولِمَ لا تكون الأرض قائمة بقدرة الله دون ما حاجة الى ثور وسمكة وبحر ؟ فاذا كان المحاجج ممن يملك القدرة على التفهم والاستنباط مشى به الشهرستاني في تفنيد هذا الخبر بوسيلة النقل واخبار الرجال وتتبع السند .

وكان مفهوم الناس من تلك الأخبار التي البسوها لباس الدين : هوان الأرض ساكنة غير متحركة – وقد تأخر علم الاكثرية الى حين ذلك التاريخ بفساد هذا الرأي – فاذا ما تحركت الأرض بمقتضى ما يقول (الطبيعيون) اختل نظام العالم في نظر هؤلاء فكان السيد الشهرستاني يفنّد مزاعم هؤلاء الرواة بالآية القرآنية الكريمة :

« وترى الجبال جامدةً وهي تمرّ مرَّ السحابِ صُنعُ الله الذي اتقنَ كلَّ شيء وهو على كل شيء قدير » .

وكان مفهوم الناس العام من تلك الأخبار ان للكون هذا مجموعة شمسية واحدة ، وان لها مركزاً واحداً للحركة : فكان الشهرستاني يستدل على تفنيد

تلك الأخبار باخبار أخرى وبآيات قرآنية ويأخذ باصابع المحاجين فيضعها فوق كلمات للامام علي كان منها :

« ان لسمائكم هذه شموساً كشمسنا وقمراً كقمرنا » .

ثم يورد لهم الآيات الكريمة عن حركة جميع المجموعات الشمسية من قوله تعالى :

« والشمسُ تجري لمستقر لها ذلك تقديرُ العزيز العليم . لا الشمسُ ينبغي لها ان تدرك القمرَ ولا الليلُ سابقُ النهار ، وكلٌ في فلك يسبحون » .

ويروح يركز دليله على قول الله تعالى : « وكل في فلك يسبحون » ثم يفيض في تفسير قوله تعالى : « وعلمنا الانسان ما لم يعلم » ويُعدّ الأذهان والأفكار لقبول جميع ما تجيء به العلوم الحديثة من الاكتشافات والاختراعات والأفكار المنطقية المعقولة .

وهنالك اناس لا يستطيعون ان يفهموا القرآن دستوراً مقدساً تجمعت معجزته في بلاغته وانما يريدون ان يكون القرآن مفتاحاً لفتح المغاليق من الغيب والعلوم الفيزياوية والكيماوية وغير ذلك ومثل هؤلاء لا يقبلون حجّة الا عن طريق القرآن فيتلو عليهم السيد هبة الدين الآية « والخيلَ والبغالَ والحميرَ لتركبوها ويخلق ما لا تعلمون » ثم يروح يركز حجته في كلمة : « ويخلق ما لا تعلمون » .

ومن حسن الصدف ان تكون بعضُ الآيات تساعد على توضيح بعض الأغراض فتكون عوناً على ترسيخ القواعد والا فليس من شأن القرآن ان يكون كتاب رملٍ ، او مرآة غيبٍ ، او طلسم اسرارٍ .

كنت عند السيد ضياء الدين الطباطبائي رئيس وزراء ايران السابق بقريته في (سعادة آباد) فأراني كيساً يحتوي على ثلاثة آلاف وزيادة لا اتذكرها من حبوب القمح وقال انها نتيجة حبة واحدة من القمح وهي تدل على اننا نستطيع

ان نرفع منتوج الحبوب وحاصلها الى هذا المستوى اذا راعينا المقتضيات اللازمة في زراعتها .

فقلت له :ـ قد يتنافى هذا الحاصل الناتج مع مفهوم الآية الكريمة : « مثلُ حبةٍ أنبتتْ سبعَ سنابلَ في كلِ سنبلةٍ مائة حبة » لقد قلت ذلك على سبيل المزاح وانا اعلم ان المقصود بالآية هو المثل وليس النتيجة ، فرد علي السيد ضياء الدين قائلاً :

ـ لِمَ لا تُتم الآية الكريمة فتقرأ بقيتها : « والله يضاعف لمن يشاء » .

كنا نسمع الكثير مما كان يروى من حجج السيد هبة الدين وادلته منقولة من احاديثه او من فتاواه او من اجوبته على ما كان يوجه اليه كتبياً من سائر الأقطار او من مجلته ومؤلفاته فتحرص الناشئة على ما تسمع وتتدرع به في قبال الذين لا يؤمنون بحجة لم يكن مصدرها القرآن والأحاديث الشريفة .

كنت اسمع مثل هذا الشيء الكثير مما كان يرويه الرواة على لسان السيد هبة الدين وكنت احفظ منه الشيء الكثير وقد ساعده تلاميذه على بث افكاره وتولوا مناقشة من لم يكن يؤمن بهذه الأقوال ، وجرّأت صرخة السيد هبة الدين وصيحته اولئك الذين كانوا يعرفون كل هذا من قبل ولكنهم كانـــوا يجبنون عن مجابهة الرأي العام بافكارهم فمشوا خلف هبة الدين .

ولما رأى الشهرستاني وجوب توسيع الحركة وبث الأفكار الحديثة والدعوة الى الاصلاح اصدر مجلة (العلم) في النجف ، ولأول مرة يتخذ من هذه المجلة مدرسة سيارة لنشر دعوة اصلاحية عامة الى جانب اهتمامه بنقل الأخبار العلمية والاكتشافات الحديثة ، وقد تولى الرّد في هـــذه المجلة على بعض المستشرقين الذين نالوا في بحوثهم من الاسلام الى غير ذلك مما يعتبر في وقته أمراً مهماً وفي غاية الأهمية اذا ما درسنا افكار ذلك العصر دراسة عميقة .

وعلى رغم العراقيل التي جابهها السيد هبة الدين وجابهتها مجلته فقد كان لها أثر ملموس في الوعي العام .

واستخلص السيد هبة الدين من محاضراته التي كان يلقيها على تلاميذه كتاباً باسم الهيئة والاسلام حاول فيه ان يجعل حتى اكتشاف القارة الأميركية مصداقاً لروايات وردت في كتب الإخبار فكان لكتابه هذا صدى عظيم في وقته إذ كان من العوامل المهمة في نسف المعتقدات الخرافية الراسخة في الذهن سواء كان الذي ورد في هذا الكتاب قابلاً للمناقشة او غير قابل فقد فعل فعله في النفوس كما فعلت مجلة (العلم) .

الى هنا وانا لم اعرف عن السيد هبة الدين غير ما كنت اسمع به في المدرسة ، وفي البيت ، وفي اوساط الناس حين تستدعي المناسبة وعلى قدر ما تتسع له مداركي ، وحين تقدمت بي السن قليلاً وأتيح لي ان اقلب مكتبة ابي واخي الاكبر عثرت على بعض اعداد مجلة (العلم) ثم قرأت بعد ذلك بزمن كتاب (الهيئة والاسلام) ثم قرأت كتاب (تحريم نقل الجنائز) وهناك استطعت ان افهم حركة السيد الشهرستاني اكثر خصوصاً في الكتاب الاخير (تحريم نقل الجنائز) وفهمت جيداً سبب الهياج العظيم الذي جوبه به الشهرستاني حتى اصبحت حياته في خطر واعتبرت دعوته هذه التي حملها كتابه دعوة مخالفة للشرع وقد تجرأ البعض فنسب له الكفر والزندقة وطلب منه ان يستغفر ربه ويتوب في حين كان قد بلغ مرحلة الاجتهاد واوغل فيها .

* * * *

ودعوة تحريم نقل الجنائز من الاماكن النائية الى النجف الاشرف تلخص في ان السيد هبة الدين كان لا يبيح نقل هذه الجنائز اذا ما أخلّ هذا النقل بحرمة الميت بحيث يسبب نتونة الجثة وتفسخها او الاستهانة بها ، وحصر النقل في دعوته على الاماكن القريبة ، وقد اورد في كتابه هذا الذي قرأته بعد حدوث الضجة والهياج بمدة طويلة عدداً من القصص التي تقشعر لذكرها الابدان ، ومن بين تلك الشواهد من القصص التي اوردها في كتابه وظلت عالقة بذهني هي . ان قافلة كانت تحمل نحو مائتي جنازة

من الجنائز التي كانت مدفونة في قبور مختلفة من البقاع الايرانية على سبيل (الامانة) حتى اذا مر الزمن الذي يكفي لامتصاص الارض مواد الجثة وتعرّق العظم اخرجت هذه الهياكل العظمية وصرّت عظام كل جثة في صرّة وحملت في صناديق للاتجاه بها الى العراق ودفنها في العتبات المقدسة.

وكان ان وصلت هذه القافلة الى المحمرة (خرمشهر اليوم) وانزلت في ساحة الكمرك فشبّت في تلك الليلة النار في احد الاماكن القريبة ثم ما لبثت ان اتصلت بدائرة الكمرك ثم بالجنائز فاحرقتها ولم تتركها الا رماداً.

وسأل السيد هبة الدين: ترى من هو المسؤول عن هذه الحادثة وامثالها من الحوادث غير سكوت اهل الفتيا الذين يُطمِع سكوتُهم المتاجرين بالجنائز فيسلبون حرمة الميت فضلاً عما يسبب هذا النقل من انتشار الجراثيم وعدوى الامراض، وقد حمل في كتابه هذا بشدة وعزّز رأيه بعدد كبير من فتاوى كبار العلماء بتحريم نقل الجنائز الا في الحدود المقبولة عقلاً، واثبت كل تلك الفتاوى بالزنكوغراف زيادة في التأكيد،.

وذكرتني (الامانة) امانة دفن الميت برجل لم يزل حياً. وكان قد جاء من ايران بقصد زيارة العتبات، وكان قد امتطى حماراً جموحاً اتعبه ركوبه حتى شكا الى القافلة أمره، فعرض عليه احد افراد القافلة ان يبادله حماره ليتولى ترويض حماره الجموح في ساعة او ساعتين يعيده بعدها اليه هادئاً متزنا، فنزل الرجل عن حماره وامتطى حمار صاحبه الذي تولى امر ترويض الحمار والذي راح يوسع الحمار ضرباً من اول وهلة واندفع حيث يريد الحمار مشرقاً ومغرباً وهو لا يكف عن ضربه بكل ما أوتي من قوة، اما صاحبنا فما كاد يمتطي حمار المروّض حتى الفى تحته خرجاً وفي جانب منه صرّة دفعه فضوله او شهيته للاكل ان يفتح في الصرة فتحة ليستخرج منها ما يحتوي عليه هذا الكيس من المأكول فاذا به كسر من الخبز (المحمّس) المعجون بالتوابل من الاملاح والحوامض والمجفف على النار وبدأ يخرج من هذه الصرة بعض الكسر ويأكلها بشهية، وإذ تم ترويض الحمار الجموح

عاد به المروّض وقد اصبح اطوع من البنان فشكر له صاحبه يده وقال له :

ــ ارجو ان تغفر لي جرأتي او وقاحتي التي دفعت بي الى ان أمد يدي الى هذه الصرّه من خرجك واتناول شيئاً من الخبز (المحمس) قبل استيذانك ..

قال الرجل ــ واي خبز هذا الذي تعنيه ؟

وما كاد يشير الى الصرة حتى صرخ الرجل ولطم على رأسه وصاح تعالوا إلي فلقد أكل هذا أبي ، لقد أكل عظام ابي النخرة وهو يحسبها خبزاً محمّساً ، وظل يولول .

اقول وعلى اثر الضجة التي احدثتها صرخة السيد هبة الدين والتي تعرض فيها للخطر اضطر السيد الشهرستاني ان يهاجر من النجف الى كربلا ويستوطنها على ما نقل الرواة .

* * *

لقد احببت هذا العالم المجتهد كثيراً ، احببته لانه كان اول من غامر وخاطر وضحّى بمستقبله الروحاني الذي لو حافظ عليه لكان اليوم احد المراجع الكبرى ان لم يكن المرجع الذي ينفرد بالمرجعية .

ولاول مرة اسمع باسمه يتردد بشيء كثير من التقديس في الثورة العراقية الكبرى ، فلقد كان احد اركان هذه الثورة والعاملين على طلب الاستقلال للعراق بحماس منقطع النظير وكان احد المستشارين والمقربين لمفجّر الثورة الزعيم الروحاني الميرزا محمد تقي الشيرازي ، وكان له الفضل الاكبر في جمع كلمة البعض من زعماء القبائل المتنافرة وتوحيد صفوفهم وحين انتهت الثورة والقى الانكليز القبض على زعماء الحركة ورؤساء القبائل كان السيد هبة الدين من اوائل المقبوض عليهم ، وزج في سجن الحلة وكان ظن الناس انهم سيحكم عليهم بالاعدام ، ومنذ ان دخل الشهرستاني السجن اصبح هذا السجن مسجداً لا تحين اوقات الصلاة حتى يتقدم فيصلي بالمساجين من الشيوخ والزعماء ، وقد ملأ المساجين ثقة بانفسهم

وازاح عنهم كابوس الهم والخوف من ان يصار بهم الى المشنقة ، والغريب ان داهم السجن ذات مرة احد الضباط العسكريين الانكليز لامر من الامور فسأل عن بعض الشرطة (الشبانة) الذين كانوا يعاونون الجنود الانكليز في حراسة السجن فقيل له انهم يقومون بالصلاة خلف الشهرستاني داخل السجن !

وكان من ابرز رؤساء القبائل في سجن الحلة الشيخ عمران الحاج سعدون رئيس قبائل بني حسن ، وكان له كما كان لبعض الشيوخ المساجين مجلس في السجن وخوان يمتد ظهراً ومساء ، وقهوة تدار على من يحضر مجلسه من المساجين السياسيين وغير السياسيين ، ومنذ ان دخل السيد هبة الدين السجن أمر الشيخ عمران بأن يوحّد مجلسه مع مجلس الشهرساني ، وان يجعل مطبخه وخوانه وقهوته تحت امر السيد ويجلس هو ويجلس جميع الشيوخ والمساجين تحت يده .

والسيد هبة الدين محدث بارع لا تفوته النكتة ولا يمنعه مانع من ان يساوي بينه وبين الاخرين على الرغم من هيبته والاحساس بشخصيته عند من يزوره فان له من الجاذبية ما يجعل زائريه يلمسون فيه مزايا قلما يلمسونها عند غيره .

قال لي الشيخ عمران الحاج سعدون مرة :

ان المدة التي قضيتها في السجن مع السيد هبة الدين قد جعلتني اعتقد ان من الممكن للانسان ان يكون ملاكاً ...

وحقاً لقد كان الرجل ملاكاً . سيرة طيبة ، ونفساً شريفة ، وحباً للناس جميعاً ، ومعرفة كافية لحياة امثاله بالحياة العامة ، واجتهاداً بعيداً عن الترمت ييسّر من الاحكام ما عسر

* * *

لم يكن السيد الشهر ستاني قد عمل في السياسة لاول مرة في الثورة العراقية

وانما كانت له سوابق في حركة (المشروطة) الايرانية التي اوجدت الدستور الايراني الحالي فقد كان السيد هبة الدين في ضمن حاشية الحاج ميرزا حسين الخليلي الذي كان اول من أفتى بوجوب سنّ دستور يحد من سلطة الشاه ووجوب نقل سلطاته الى الشعب عن طريق البرلمان ، وكان الشهرستاني ضمن حاشية الامام (الاخوند) الذي انفرد بالزعامة وآلت اليه المرجعية بعد وفاة الشيخ الخليلي وهنا من يؤكد ان الشهرستاني ان لم تتجاوز سنه المائة فهي ليست دون المائة بخلاف ما تقول السجلات الرسميه التي لا تجعل سنة تجاوز منتصف العقد التاسع . والذين يذكرون حوادث المشروطة يذكرون ان للسيد هبة الدين نشاطاً مذكوراً فيها بعد انتقاله من مسقط رأسه سامرا الى النجف الاشرف .

ثم كان له موقف مجد في حرب الانكليز في الشعيبة حين اعلنت بريطانيا الحرب على الدولة العثمانية واعتبر العلماء اعلان الحرب على الدولة العثمانية اعلان حرب على الاسلام فكان للسيد هبة الدين مخيم خاص به ، وراية ، وجماعة تحتف به في جهاده .

* * *

واعلن استقلال العراق واستدعت السياسة الانكليزية ان يتولى وزارة المعارف عالم ديني يجمع بين الرياستين فعرض الامر على الامام الشيخ عبد الكريم الجزائري فاعتذر فلم يجدوا من تتوفر فيه الشروط المطلوبة بعد الشيخ الجزائري غير السيد الشهرستاني فدخل وزارة الكيلاني الثانية ثم استقال تأييداً للمعارضة التي قامت في وجه حكومة الكيلاني التي اتهمت بمجاراة الانكليز واحتمال قبولها للانتداب بناء على تصريح للمستر تشرشل في البرلمان البريطاني ، وقد لمع هنا اسم السيد الشهرستاني الى جانب الاسماء التي كان لها شرف الدفاع عن استقلال العراق الناجز غير الخاضع للانتداب .

ثم تولى رياسة مجلس التميز الشرعي الجعفري ، وكان الشيخ محمد السماوي ينتظر ان يكون هو المرشح لها لذلك حصل هناك بين الشهرستاني والسماوي شيء من سوء التفاهم ، زاده اختلاف الرأي في الاحكام إحكاماً وظل سوء التفاهم هذا قائماً حتى توفى الله الشيخ السماوي ، وان سوء تفاهم آخر حدث بين السيد هبة الدين والشيخ محمد الخالصي كدت اكون انا طرفاً فيه بعد ان تعرفت بالجهتين وقد تجاوز سوء التفاهم منهما الحد واصبح ضرباً من ضروب الجفوة غير المحتملة والتي يكون ضرب الصفح عنها هنا افيد وأحسن .

كل هذا مما ارتسم في ذهني منذ ان كنت طالباً في المدرسة حتى كبرت وانا لم اوفق لرؤية هذا العالم الروحاني الجليل حتى اصدرت جريدة (الفجر الصادق) في النجف ، وكانت تشدني الى الاديب الشيخ كاظم الخطاط صداقة اكيدة وكان الشيخ كاظم من اقرب الناس الى الشهرستاني ، ومن اكثرهم ولاء له بعد قريبه السيد صالح الشهرستاني الذي يعود له الفضل الكبير في تنظيم امور (السيد) وادارة شؤونه العلمية والادبية بعد ان كف بصر السيد ولم يعد يستطيع ان يقوم بمثل تلك المهمات وقد اصدر السيد صالح مجلة (المرشد) التي قامت بنشر فتاوى السيد هبة الدين والتعبير عن آرائه .

اقول : وحين اصدرت جريدة (الفجر الصادق) بدأت تصلني عن طريق الصديق الشيخ كاظم الخطاط اقتراحات ورغبات للسيد هبة الدين لنشرها في الجريدة وكان من اهمها الحث على شد أزر الحركة الاصلاحية الدينية ، وكان السيد محسن الامين العاملي قد شجب حركة (التطبير) وشج الرؤوس بالسيوف ، والضرب بالسلال على الظهور ، والطبول ، والمزامير في ايام عاشوراء باسم الحزن على الحسين ، وقد أيد هذا الشجب المرجع الديني الاكبر السيد ابو الحسين واعتبر تلك الاعمال من المحرمات فكان السيد مهدي في البصره والسيد هبة الدين الشهر ستاني في كربلاء والكاظمين من اشد انصار الدعوة الى تحريم هذه الاعمال ، ولما كان الخطيب السيد صالح

الحلي هو الذي تولى (الدعاية) المضادة لحركة الاصلاح فقد اتجهت الافكار كلها الى مناهضة السيد صالح ومكافحته ، فكنت اتلقى من السيد هبة الدين دعوة الى استنفاد آخر القوى في ازالة السيد صالح كعقبة كأداء في الطريق وعلى ان السيد هبة الدين لم يكن هو الذي وقفني من تأييد المرجع الكبير السيد ابي الحسن ذلك التأييد الذي هدّم كيان السيد صالح فانه كان من دواعي التشجيع في استمراري في مهاجمة الخطيب الحلي ، كما كان غيره من دواعي هذا التشجيع ، ثم بدأت اتلقى منه مباشرة اقتراحات وتوصيات وكلمات مغفلة عن التوقيع فكنت أنجزما أنجز منها ، واقوم بما يمكن القيام به ، وكلها تحوم حول الاصلاح والمصلحة ،

وهكذا كان معي وأنا أصدر جريدة (الراعي) ثم جريدة (الهاتف) دون ان اراه .

* * *

اما متى رأيته لاول مرة فقد كان ذلك في احدى زياراته للنجف ، وكانت جمعية (منتدى النشر) وهي في اول تأسيسها قد احتفلت به في دار السيد موسى بحر العلوم ، وقد جمعت هذه المناسبة بيني وبينه فزادني هذا تعلقاً به فقد وجدته محدثاً بارعاً يأسرك بلطف حديثه ورقته ، وسعة افقه في كل ما يروي ويحدث به . وفي هذا المجلس ولاول مرة وقع اختلاف بيني وبينه في تاريخ حساب (الجمل) الذي اعتاد الشعراء ان يدخلوه في الشعر ، فقد كنت أنا آخذاً بالقاعدة التي تقول ان ما يكتب — وليس ما ينطق به — هو الذي يجري عليه الحساب في وضع التاريخ ، وعلى ذلك فكل (تاء) قصيرة هي هاء في الحساب ما دامت تكتب بصورة الهاء وليست بصورة التاء ، اما هو فيقول : ان هذه التاء المربوطة ، كانت محل اختلاف عند الشعراء الذين يؤرخون التاريخ بها فبعضهم يعتبرها (هاء) وبعضهم يعتبرها (تاء) ، وطال الكلام في ذلك المحضر وكانت الاكثرية ان لم اقل

الجميع الى جانبي .

وطالبت (السيد) بالدليل ، فقال :

– لست استحضر الان من الادلة شيئاً ولكني على استعداد بان أجيء لك بعشرات الامثلة لمن اعتبر التاء المربوطة في التاريخ تاءً .

فقلت له :

– ولكني اكتفي بشاهد واحد اذا جاء به سيدي (السيد) .

قال – إذن فان مثلك مثل ضابط المدفعية التركي الذي لم يردّ على تحية الباخرة الانكليزية التي دخلت المياه التركية واطلقت المدافع تحية للاراضي التركية ، ولما لم تسمع جواباً من الساحل التركي على تحيتها اتصلت بالسفارة الانكليزية في اسطنبول مستفهمة عن السبب في سكوت المدفعية التركية واحجامها عن رد التحية ، فاتصلت السفارة بوزارة الخارجية التركية للاستفسار ، واتصلت هذه بدورها بوزارة الحربية ، واحالت الحربية هذا السؤال الى قسم المدفعية ، وسئل الضابط المدفعي المسؤول عن اسباب عدم ردّه التحية بالمدفع فقال :

– هناك عشرة أسباب كانت تحول بيني وبين اطلاق المدفع ، فسأله القسم : وما هي تلك الأسباب العشرة فقال :

– اولاً : لم يكن لدينا بارود للقذيفة .

فردّ عليه القسم قائلاً :

– كفى فقد صرفنا النظر عن سماع الأسباب التسعة الباقية .

والتفت الي السيد هبة الدين قائلاً : وأنت الان تكتفي مني بمثل واحد عن عشرات الأمثلة ، فجزاك الله خيراً .

وراجعت أنا بعد ذلك فوجدت في (فصوص اليواقيت في نصوص المواقيت) ما يؤيد رأي (السيد) فكتبت له معتذراً .

* * *

ثم اتسعت دائرة اتصالي به . وفي إحدى زياراته النجف نزل ضيفاً على السيد ابي الحسن الاصفهاني المرجع الروحاني الكبير وفي دار ابنه الحاج أغا حسين . ودعيت في إحدى الليالي لتناول العشاء معه . وفي تلك الليلة نعمت بمواضيع مختلفة خاضها (السيد) ولم ازل للان اتذكره كيف كان يتنقل في احاديثه ويروي طائفة من النصوص والحكايات التي كان قد أحاط بها في اثناء اسفاره الطويلة لايران والهند . وما كان له فيها من اثر وما قد عثر عليه من المخطوطات النادرة في المواضيع النادرة ، ويغلب على ظني انه قال في هذا المجلس وليس غيره : انه قد أسف كثيراً لضياع نور عينيه ـ لانه كان قد كف بصره على اثر رمد صديدي حل بعينيه على ما اعرف ـ لقد قال : لا أستطيع أن أقدر مبلغ اسفي على انطفاء ضوء عيني لا لأجل عيني وان لم يكن هذا هيناً وانما لانني كنت انوي ان تتاح لي الفرصة لكي اقوم بتفسير القرآن تفسيراً جديداً ، وكنت امني نفسي بهذه الفرصة يوماً بعد يوم حتى كف بصري .

وصرت كلما زرت بغداد قصدت زيارته حتى تم انتقالي نهائياً الى بغداد فكثرت الفرص والمناسبات التي تتسنى لي فيها زيارته ، وقد تتعذر علي بعض الاحيان هذه الزيارة واعتذر اليه اول ما اراه عن تقصيري فيرد علي قائلاً .

ـ جعلك الله من المقصرين

وهو يعني بذلك الدعاء بان يكتب لي الله حج بيته الحرام فاقصّر هناك من شعر رأسي . وهذا دعاء طالما دعالي به الشيخ عبد الكريم الجزائري

وعلاقة السيد هبة الدين بالعالم الاسلامي علاقة متينة ، فقد عاش الرجل للاسلام كله وللمسلمين كلهم ، ولذلك كانت تصل إليه من مختلف الاقطار الاسلامية استفتاءات وأسئلة واسترشادات وكان يرد عليها عن طريق من كان يتولى مهمة (السكرتارية) عنده ، ولقد كان الفضل في كف الضاربين

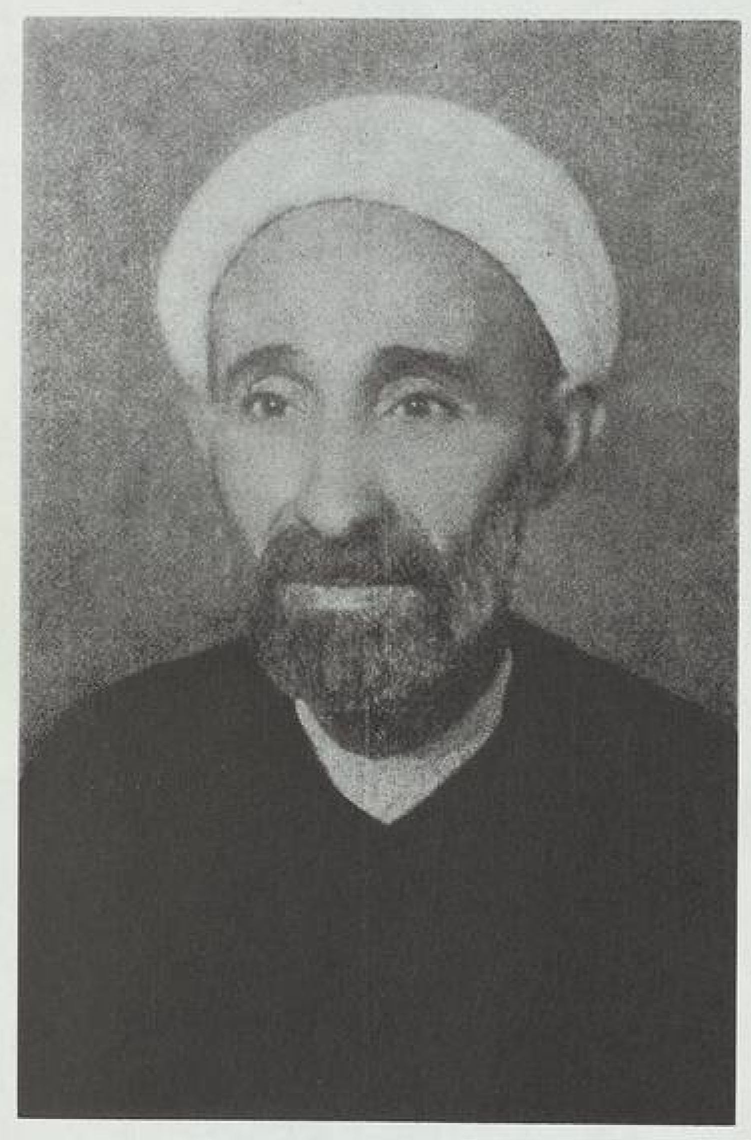
بالسيوف على رؤوسهم في ايران الى فتواه في الدرجة الاولى وفتاوى بعض العلماء التي اخذت بها الحكومة الايرانية ومنعت بمقتضاها الضرب بالسيوف في ايام عاشوراء .

وكان مجلسه الاخير في بيته بالعيواضية ببغداد منتدى يجمع بين الروحانيين من المسلمين والخوارنة ، والحاخام ، الى جانب الوزراء ورجال العلم والسياسة والادب .

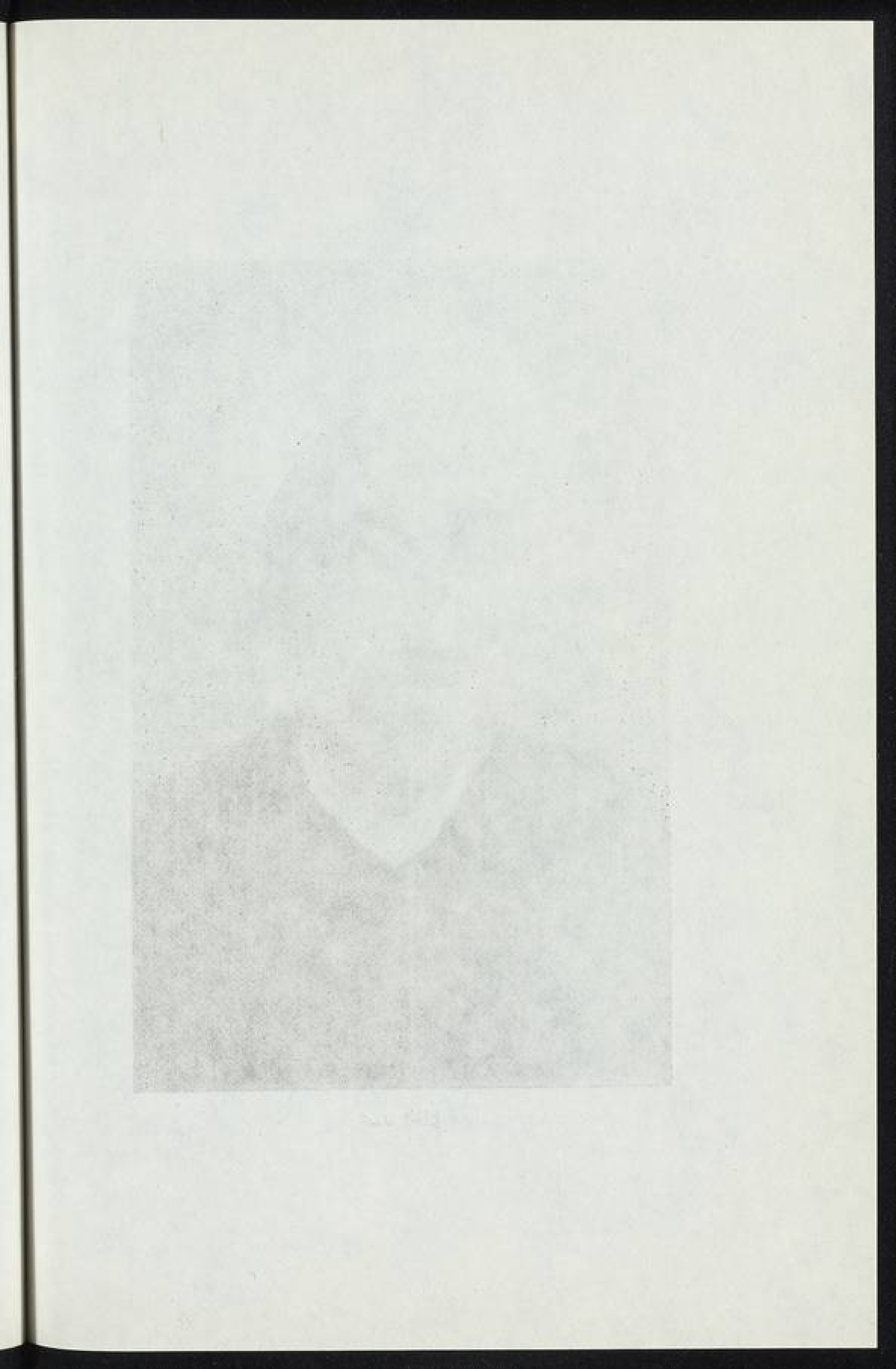
* * *

وتعقدت الحياة ، وكثرت تبعاتها في السنين الاخيرة فلم يعد بأمكاني التمتع بزيارته كالسابق . وصرت ازوره في فترات متباعدة ، وكلما التقيت نجله جواد الشهرستاني حمّلته رسالتي في طلب المغفرة واستماحة المعذرة عنه حتى فوجئت بخبر وفاته .

كم يشق على المسلمين ضياع مجتهد كبير ، ومصلح قل نظيره بين دعاة الاصلاح . وزعيم جمع الشيء الكثير من المزايا التي تخلده بين عظماء التاريخ من امثاله ، اما انا فلقد كان ضياعه علي اشق ، وأمر ، واعظم ، ذلك لانني عرفته عن كثب ، وانست بروحه ، وتمتعت بوجوده ردحاً من الزمن ، وستبقى تلك الصورة البهية والوجه الروحاني المشرق مطبوعة على صفحة ذهني ما حييت ، وسأظل اذكر هذا الماضي ، بالدموع والاهات ما دامت هذه الانفاس تصعد وتنزل .



محمد الخليلي



كيف عرفت

محمد الخليلي

كنت طالباً في الصف الاول من المدرسة العلوية في النجف وكان هو طالباً في الصف العاشر او الحادي عشر من الصفوف العالية وكنت اعرف انه من ابناء عمومتي وان ابي ابن عم ابيه ولكن لم تكن بيني وبينه اية صلة فقد كان يكبرني بعدد من السنوات اكثر من عدد الصفوف المدرسية ، وهكذا كان شأني مع افراد اسرتي الاخرين الذين كانوا معي في نفس المدرسة كالحاج محمد صالح الخليلي ، والمرحوم محمد علي الخليلي وعبد العزيز الخليلي فكنت اعرف انهم من نفس الاسرة ولم ادر أكانوا يعرفونني وانا في تلك السن وفي ذلك الصف يومذاك اولا ، وكانت للمدرسة ايام معينة ومناسبات يلبس فيها الطلاب الالبسة العسكرية ويحملون بنادق خاصة لم أعد أرى نظيرها فكانوا يحشونها من فوهتها بحبات من الماش ويطلقونها فيسمع لها صوت ولا تقطع الحبة اكثر من بضعة امتار ، وفي هذه المناسبات والساعات المعينة للرياضة كان يتولى تعليمنا العسكري فيها قائد من الصفوف العالية اسمه الشيخ جواد التركي تمتاز بذلته بخطوط عريضة من القماش الاحمر تمتد من الجانبين من اعلى البنطلون الى جانب القدم كما تزين الرقبة قطعة من القماش الاحمر وعلى كتفه شيء مثل هذا ، كان يقف امام الطلاب ويتولى تعليم

الرياضة بالتركية ، اما نائبه في القيادة فقد كان محمد الخليلي وكانت بذلته هو الاخر ممتازة ولكن خطوطها الحمراء في البنطلون وفي الرقبة وعلى الكتفين كانت اقل عرضاً من خطوط بذلة القائد الشيخ جواد ، وقد كانا ـ كلاهما القائد ونائب القائد ـ قصيري القامة ، وكان بين الطلاب من هو اطول منهما قامة ، واضخم جثة ولكنه كان دونهما ملكة واستعداداً للقيادة ، حتى البارزون منهم في الدروس ، ويأتي في مقدمة البارزين السيد محمد تائب الشقيق الكبير للمحامي احمد السيد ، والشيخ ابو القاسم والد الدكتور علي ابو القاسم ، والسيد مير علي المرعشي ، والسيد عبد الحسين الخلخالي ، والسيد علي اصغر والشيخ ابراهيم وغيرهم ، وكل هؤلاء اليوم موجودون .

وكنت فخوراً بأن يكون قريبي هذا نائباً للقائد العام وان لم أكلمه واتعرّف به ، وكانت المدرسة سخية في انواع الهدايا التي تقدمها للطلاب المتفوقين ، وكان اعتزازي بمحمد الخليلي يكثر حينما كنت اراه يفوز بعدد من تلك الهدايا في الامتحانات العامة ولاسيما في اللغة الفرنسية ، والرياضيات ، اذ كان يأتي الرابع في الغالب بعد السيد محمد تائب والشيخ ابو القاسم ، والسيد ، مير علي ،

وكان اسمه يتردد كثيراً بين اسرتنا بكونه من الطلاب الممتازين ، وكانت المدرسة تمنح اوراقاً خاصة يومذاك لكل طالب يمتاز في دروسه اليومية وفي سلوكه الاخلاقي وسيرته ، وكانت لكل ورقة قيمة معنوية خاصة مطبوع بعضها باسم (تحسين) وبعضها باسم (امتياز) وبعضها باسم (آفرين) وعلى ورق مذهب سميك ، ولا يبعد ان يكون محصول محمد الخليلي من تلك الاوراق كان كثيراً بحيث يسمح لي القول بان اقول انه كان ممتازاً الى جانب دروسه بسلوكه وسيرته التي قل من لم يلتفت إليها ، هذه السيرة والسلوك الذي ظل يلازمه الى ان مات من حيث نزاهته وعفته وطهارة نفسه ، وقد تجاوز العقد السابع بسنوات ولم يسمع عنه انه شتم احداً ، او اغتاب احداً ، او أساء الى احد بل انه لم يسهم في كفاح سياسي ولم يشترك في

شيء غير البناء الادبي وغير دعوة الصلاح البعيدة عن المعارك والاشتباكات .

* * *

وكان يقضي اوقاته خارج المدرسة اما في ديوان ابيه الذي كان يعمر بروّاده من رجال الادب امثال الشيخ جواد الشبيبي والسيد جعفر الحلي ، واما يؤمّ بيت خاله الشيخ محمد تقي الخليلي حيث يهيء ابن خاله عبد العزيز في أغلب الاحيان جواً لاجتماع عدد من طلاب المدرسة حين يكون ديوان ابيه خالياً من الزوار فيدرسون ويلعبون ويمرحون ، وهو ديوان في بيت مستقل الى جوار بيت العائلة والذي يشغله اليوم السيد محمد بحر العلوم ويتخذ منه ديواناً عامراً بمرتاديه من الاعلام والوجوه

وفي يوم من ايام رمضان اجتمع كالعادة رهط من طلاب هذه المدرسة لقتل الوقت في بيت عبد العزيز الخليلي وفي الديوان المذكور ، وكان الفصل صيفاً وكل اولئك الطلاب كانوا صائمين ، وكان بينهم محمد الخليلي والشيخ جواد التركي ويلقب اليوم (بدهشور) ، وزميل يدعى (بعلي گرگه) واقترح احدهم بان يقوموا بدور الصفوف العسكرية وان يقوم الشيخ جواد التركي بدور القيادة كما لو كان في المدرسة وفي اوقات التعاليم الرياضية ، وهم في سرداب هذا البيت ، ولم يكن التعليم الرياضي في تلك الايام تعاليم رياضية كما هي اليوم ، وانما كانت التعاليم عسكرية وباللغة التركية ، وفي هذه الاثناء ذكر عبد العزيز الخليلي ان لخادمهم (رمضان) سلاحاً من نوع كانوا يطلقون عليه اسم (الپشتاوة) والذي يسمونه اليوم بالغدّارة وهو سلاح فيما يشبه المسدس ولكنه ذو فوهتين طويلتين تنطلق منهما رصاصتان اذا ما ضغط الضاغط على زناديهما ، وما اسرع ما جاء عبد العزيز بتلك (الپشتاوة) وكان يعرف مخبأها ، وكان يهدد بها متظاهراً بالشجاعة ، ولم يكن يعلم ان هذه (الپشتاوة) كانت محشوة برصاصتين ، وما لبث والپشتاوة بيده ان دخل صف زملائه الطلاب الذين كان القائد قد صفّهم في صفين متقابلين ، وكثيراً ما كانوا يصفونهم في المدرسة على هذه الصورة كأنهم اعداء يواجهون اعداءهم ، ولما لم يكن

لديهم من تلك البنادق التي يحملونها شيء فقد حمل كل واحد منهم ما وجده هناك من عصا ، او مكنسة ، او مسطرة ، اما عبد العزيز فكان الممتاز بين اولئك بما يحمل من سلاح وهو الغدّارة .

وهنا اوعز القائد اليهم — ولست ادري ما إذا كانت هذه الالفاظ التركية التي اوردها هنا صحيحة وكما كانت تلفظ ، وكل ما اعلمه هو اني ظللت احتفظ بها على هذه الصورة من ايام الصغر — لقد اوعز القائد للصفين المتقابلين صارخاً :

— يرنده راحت (اي إسترح) فاستراحوا

ثم صرخ :

— حاضر أوْل (اي إستعد) فاستعدوا

ثم صرخ :

— دِيزْجُكْ (اي إثن احدى ركبتيك واعتمد الثانية) ففعلوا ذلك

ثم صرخ :

— نشانْ أول (اي استهدف الهدف) فوجه كل منهم سلاحه من مكنسة او عصا او حديدة الى من يقابله كما لو كان هذا السلاح بندقية وفي ضمنهم عبد العزيز الذي صوب البشتاوة الى رأس مقابله وهو (علي گرگه) ثم صرخ القائد :

— آطش (اي اطلقوا النار) فاذا بالرصاصة تتلوها الرصاصة تنطلقان من غدّارة عبد العزيز وتخترقان رقبة (علي گرگه) ، فيصيح (علي گرگه) : لقد احترقت ثم يموت وهو غارق في بركة من الدم ، ويهرب كل الطلاب وفي مقدمة الهاربين محمد الخليلي .

ولسنا الان في صدد نهاية القصة وانما يخيل لي ان هذه الحادثة التي وقعت بمشهد من محمد الخليلي كانت عاملاً اساسياً في انطوائية محمد الخليلي وتجنبه

الخوض في المشكلات ، فلقد تجاوز العقد السابع ولم يشترك في حزب سياسي ، ولم يوقع احتجاجاً ضد حكومة او جماعة ، ولم يدخل معمعة ، وقد حصر مجهوده كله في الاعمال الادبية فكأن هذا الحادث لم يزل ماثلاً امام عينيه يحذره ويذكر بالمصائب .

وعلى ذكر (علي گرگه) اقول : لقد كان لعلي هـذا اخ اصغر منه اسمه (مهدي زرندي) هو اليوم من افاضل القوم بمدينة (قم) وكان هذا زميلاً لي في الصف ، ومن اقرب الاصدقاء إليّ وكان يقول لي : إن امّه نهته بعد حادثة اخيه من مصاحبتي حذراً من ان اقتله كما قتل ابن عمي أخاه .

* * *

وجاءت الحرب العظمى الاولى ، وتخرج عدد من هذه المدرسة بعد ان انهوا مراحلها وكان بينهم محمد الخليلي فلم اعد اراه كما كنت اراه من قبل ذلك لان سني لم تكن تساعد على ارتياد دواوين اسرتي ، وكان بيتنا وبيت عم لي البيتين الوحيدين اللذين يبتعدان عن بيوت اسرتنا المتقاربة حتّى طويت بعض الصفوف من المدرسة وحتّى اغلقت المدرسة ابوابها قبل ان اتم دراستي فيها بسبب الخسائر التي تحملتها المدرسة من جراء الحرب وقد تشتت اساتذتها ولم يبق فيها الا احد تلامذتها وهو الشيخ عبد علي الذي تولى تدريس الصفوف الاولية لقاء اجور كان يتقاضاها لسد حاجته ، وقد اضطر ان ينقلها من تلك البناية الفخمة الى بيت صغير فكنت أمرّ به بين آن وآخر مداعباً او مستهزئاً لتوليه ادارة مدرسة وهو من اغبى اغبياء التلاميذ .

ومرّ على ذلك بعض سنين تولى أمر هذه المدرسة احد اساتذتها السابقين وهو الشيخ محمد اديب فرتب امورها وجمع حوله بعض تلاميذ المدرسة السابقين من المتفوقين وألّف منهم معلمين واستعان بمحمد الخليلي ليلقي فيها بعض الدروس .

وكنت قد تقدمت في السن وصرت ارتاد مجالس اسرتي ومجالس الاخرين ، وقد بدأت احكم دروسي التي كنت قد تلقيتها في المدرسة وعلى الاخص العلوم العربية منها ودخلت في حلقة من المتعلمين الذين يتلقون علومهم على اساتذة خاصين في الصحن الشريف وفي المدارس الدينية كما هو الحال اليوم عند اغلب طلاب العلم في النجف ، والتقيت محمد الخليلي الذي كان هو الاخر قد اقبل ليكمل علومه العربية وتلقي دروسها على اخيه الاكبر ، وكنت ادعى كمميز لامتحان الطلاب في المدرسة العلوية الجديدة ، واحضر امتحان الطلاب الذين كانوا يتلقون الدروس على محمد الخليلي في المدرسة ، فكان ذلك مما يدعو لتماسّي به اكثر ومناقشتي له حول الكتب التي كانت تدرس فقد كانت الحرب قد وضعت اوزارها وتدفق على العراق سيل من الكتب التي كنت أقتنيها لنفسي والتي كانت تشير إلى تغيير اساليب التعليم بل تغيير مواضيع العلم برمتها فكنت أعيره بعض هذه الكتب ككتاب (الدرر البهية) في الرياضيات ، وكتاب (النفحة الازهرية) في الجغرافية اذا لم اكن بدلت اسم هذين الكتابين بسبب النسيان وغيرهما من الكتب (كقواعد اللغة العربية) فيما يخص التدريس كما كنت اعيره كتباً اخرى غير مدرسية ، وهذا ما احكم بيننا الصداقة ، وجعله يكثر من زيارتنا في البيت بين يوم وآخر اذا لم يكن كل يوم .

ولما كانت اسرتنا تمارس التطبيب في العهود السابقة على طريقة الطب اليوناني فقد انهمك محمد الخليلي بدراسة قانون ابن سيناء ، والنفيسي ، والقرابادين ، وغير ذلك من كتب الطب القديمة ، وبدأ يطبب على طريقة آبائنا من الأطباء المتقدمين وتولع بالعين وتكوينها وامراضها ، وكان قد جاء بغداد طبيب اختصاصي في العيون اسمه الدكتور عبد الرحمن المقيد على ما اذكر ، فسعى إليه محمد الخليلي واقام هناك عنده مدة طويلة يعمل تحت يده ويأخذ عنه دروساً ، ومحاضرات في العين استطاع بواسطتها ان يشخّص اشهر امراضها المتعارفة ، وانواع الرمد والالتهابات وعاد الى النجف ليمارس هذا التطبيب في بيته ،

وقد كانت له شبه زاوية من ديوان ابيه كان يقتعدها لمراجعة المتوجعين وكان كثيراً ما يحيل الذين تشق عليه معالجتهم الى الدكتور المقيّد ببغداد ولا يعالج الا الذين كان مطمئناً من تشخيصه لاوجاعهم وكنت ازوره في هذه الزاوية التي لم تكن تسع غيري وغيره ، مانوساً بروحه الخفيفة ، وسرعة بداهته التي يضرب بها المثل ، ثم صرنا نتقارب احياناً كثيرة في افكارنا الادبية ، اقول في افكارنا الادبية لان ابن عمي الخليلي كان محافظاً ولم يكن من السهل ان نلتقي في افكارنا الاجتماعية ومع ذلك فقلما لقيت شخصاً لا يضيره اختلافك واياه في الرأي كمحمد الخليلي ولم اجد لقول شوقي :

فاختلاف الرأي لا يفسد للود قضية

مصداقاً غيره ، لذلك قربت منه كثيراً ووجدت فيه الصديق الحبيب قبل الرحم القريب ، وكان ينظم الشعر ويقرأه علي ، وكنت انا الاخر احاول مثله نظم الشعر واقرأه عليه ، ولكنه ما لبث حتى صار يسألني عن المواطن والمآخذ فيما يقول وهي ثقة لست ادري كيف كان يضعها فيّ وكيف كان ينزل على رغبتي فيما كنت ارى فقد كنت انا مقلاّ ، وكان هو مكثراً ، حتى لتجد له في كل مناسبة منظومة خاصة ، او تشطيراً ، او تخميساً ، او مساجلة ، او تاريخاً ، والمزية في كل ذلك سرعة بديهته ، وان اوقعته هذه السرعة في سهو في النظم احياناً وفي النثر احياناً .

* * *

وحين اصدرت جريدة الفجر الصادق وهي اول جريدة اصدرتها في النجف نطت به ترجمة بعض قصص بوكشيو من مجموعته المشهورة (دي كامرون) ولم يكن أحد بعد قد ترجمها الى العربية ، اما ترجمة كامل كيلاني لبعض هذه القصص فقد جرت بعد عدة سنين من ترجمة محمد الخليلي الذي نقلها من الفارسية ، وكان محمد الخليلي قد تعلم الفرنسية

من المدرسة العلوية واحسب انه قد ضعف فيها اخيراً لقلة ممارسته للقراءة الفرنسية والتحدث بها ، حتى نسيها .

وكانت هذه النسخة الفارسية من (دي كامرون) نادرة ، فقد طبعت في القرن التاسع عشر وكنت املك منها نسخة هي التي دفعت بها إليه ليواصل ترجمة المستساغ منها ، اقول المستساغ لان في هذه المجموعة عدداً من القصص التي تحول الاداب العامة دون نقلها الى العربية ، واحسب ان هذا هو السبب الذي أخّر ترجمتها الى العربية في حين كانت قد ترجمت برّمتها الى جميع اللغات الحية ، وقد رأيت للسيدة ماهرة النقشبندي في السنوات الاخيرة ترجمة اظنها كاملة لهذه المجموعة وهي لم تزل مخطوطة عندها . وما لبثت هذه القصص التي بدأ يترجمها محمد الخليلي حتى استلفتت الانظار وصار القراء ينتظرونها في كل اسبوع ، ثم اني دفعت له بكتاب آخر اسمه (طلوع التمدن) وهو كتاب مبسط لتاريخ الاكتشافات والاختراعات ، ولم تكن يومذاك هذه الكتب وهذه المعلومات منتشرة كما هي اليوم فبدأ يترجم في كل عدد فصلاً مستقلاً من هذا الكتاب ، ولقيت هذه الفصول هي الاخرى اقبالاً ، وكان هذا ديدني معه ادفع إليه بعض الكتب واقترح عليه بعض المقترحات فيؤديها نثراً وشعراً ، لذلك كثرت مقالاته في جريدة الفجر الصادق ، وفي جريدة الراعي ، وفي جريدة الهاتف وكثر شعره الذي تستدعيه المناسبة ، فكان يقرظ كتابا يصدر جديداً بابيات من الشعر ، وكان يهني صديقاً بزواج ، اومولود ، او اي شيء آخر بقصيدة او مقطوعة من الشعر ، وقد يبدع في بعض هذه المناسبات وقد تقف به العجلة ، وكان كثيراً ما يضمّن شعره تاريخ تلك المناسبة ، ولدي من ذلك الشيء الكثير ، في زواجي ، وفي بناء بيتي ، وفي مواليد اولادي ، وحتى مؤلفاتي ، وقد كان آخر تاريخ شعري حظيت به هو تاريخ شروعي تأليف موسوعة العتبات المقدسة وصدور أول جزء منها وقد ارخ لها بالتاريخ الهجري والتاريخ الميلادي في مقطوعة من الشعر اذكر منها التاريخ وحده كنموذج لهذه

التواريخ التي يصنعها في الشعر بداهة تشبه الارتجال اذ يقول :

هُمْ أرّخوه (فوازْ موسوعة العتبات) (١٣٨٥هـ)
أو أن تُؤرّخَ (عاضدْ موسوعة العتبات) (١٩٦٦م)

ولا اذكر ان عيداً مرّ دون اتلقى منه تهنئة شعرية ولا يكلّفه ذلك اكثر من دقائق لكثرة تمرسه الشعر وانا واياه مختلفان لان مثل هذه السرعة وعدم الاهتمام منه قد لا يجعل شعره ونثره يسلمان من المآخذ ومع ذلك فقد يجيد على شبه ارتجاله الشعر في الكثير من اشعاره ، وقد تلقيت منه آخر تهنئة بمناسبة عيد الفطر الماضي يقول فيها .

العيد اقبل يزهو مبشراً بالسعودِ
وانت مرآك عندي هلال فطري وعيدي

قال لي مرة : ان في نفسي ان انظم كتابك (عندما كنت قاضياً) بالشعر ، وكتابي (عندما كنت قاضياً) كتاب نشرته انا فصولاً في جريدتي (الهاتف) ثم جمعت هذه الفصول وطبعتها وكنت انوي طبعه للمرة الثالثة بعد ان اجري فيه تعديلاً واضيف اليه شؤوناً عنّت لي بعد ذلك فلم أوفق وقد قدمه الامام الشيخ محمد الحسين كاشف الغطاء ، بمقدمة نفيسة ، وتلاه الشاعر الكبير الشيخ علي الشرقي بمقدمة مسهبة اتى فيها على تاريخ القضاء وشؤون الاحكام والمحاكم ، فصار لهذا الكتاب يومذاك بعض الشأن .

قال لي مرة محمد الخليلي : ان لي رغبة في ان اقوم بنظم هذا الكتاب في رجز آتي به عليه كله !!

وعلى اني لا استكثر عليه مثل هذا فقد نبهته الى ما في ذلك من صعوبة ومشقة ، ولكن لم يمر على ذلك شهر او أقل من شهر واذا به ينظم كل تلك الفصول في ارجوزة اثارت في نفسي الدهشة وقد طلب مني أن اقدمها للقراء فكتبت لها مقدمة مختصرة حكيت فيها الواقع وقلت ان كتابي هذا لم يكتسب القيمة المعنوية بكونه قد طبع غير مرة وراج وإنما

اكتسبها لأنه كان فصولاً اوحت بها حاجة الجريدة فارسلتها دون تأمل وتنقيح حتى كتب لها اليوم ان تُخرج إخراجاً شعرياً فنياً اعطاها روعة لم اكن أحلم بها ، وقد اقتطفت جريدة الأخبار البغدادية فصلاً من منظومة محمد الخليلي وهي تحت الطبع فنشرته بتاريخ ١٠ – ١٢ – ١٩٦١ وقدمت له هذه المقدمة :

« قبل عدة سنوات اصدر جعفر الخليلي كتاباً باسم (عندما كنت قاضياً) فرض فيه نفسه قاضياً للشرع واستعرض فيه اهم القضايا من زواج ، وطلاق ، وإرث ، ووقف ، فنفدت طبعته في مدة وجيزة فطبع للمرة الثانية ، ونفدت هذه الطبعة ولا توجد اليوم نسخة منه في السوق وقد تصدى الشاعر اللامع والاديب المعروف الاستاذ محمد الخليلي الى تلك الصور من ذلك الكتاب فنظمها بالشعر صورة بعد صورة في ارجوزة عذبة جميلة ، وقدمها للطبع فاجتزأنا منها احدى الصور وهي : (الزواج بداعي الطمع) كنموذج لعرض الفكرة بالشعر ؛ بعد ان شاهدنا عرضها بالنثر ، والاستاذ محمد الخليلي من نفس الأسرة الخليلية ، وابن عم المؤلف جعفر الخليلي وهذه هي الصورة المنظومة : » « الأخبار »

قال القاضي — :

وجاء يشكو من نفور زوجته — وانها قد خرجت عن طاعته
وطلب الحكم بأن تعــودا — لبيتــه اذ أصبحت عنودا

ويقول القاضي — :

فقلت للزوجة انه ادعى — فهل لديك ما يردّ المدّعى
اجابت الزوجة عن سؤالي — لا آمن الزوج على أموالي

وقال القاضي — :

فقلت مــا قصدك بالامــان — اطلب توضيحك بالبيان
قالت : نعم : زُوِّجتُ بعلاً ومضى — من بعد عامين الى دار القضا

وخلّف الاموال لي فازدحموا ... عليّ خاطبون لما علموا
وكان هذا الزوج أكثر الأُلى ... تردّدوا وابرز القوم ولا
واعرفَ الناس بما يذلل ... كل الذي يعوق او يعرقل
وحيث اني لم اجد لي خاطبا ... مذ كنت غضّة فتاة كاعبا
قد دلّ ان الخاطبين عن طمعْ ... قد رغبوا بي والولاء مصطنعْ
فكنت باللين اردّ من خطب ... طوراً وبالشدة طوراً والغضب
لكنه اقنعني وأهلي ... بحسن نيّة له ونبل
بأنه لم يخطب المال وفي ... زواجه يقصد نيلَ الشرف
حتّى رضيته اختياراً بعلا ... ونال ما قد رام مني وصلا
وقد مضت من السنين اربعُ ... فبان أنّ ما مضى مصطنعُ
اذ بعد سلب المال والعقار ... لم يبق من مالي سوى سوار
فرام سلبه فكنت امنع ... علماً بأنا بعدُ لا نجتمع
لذاك لم يبق له من مطمع ... وهو الذي قد جاءنا عن طمع

وقال القاضي :

وقد سألنا الزوج عن دعواها ... أجاب : لا تَصْدقُ في ادّعاها
وقال ان حالتي الماليه ... بعد الزواج لم تكن مرضية
ولم اجد بدأ من استعانتي : ... عنداضطراري مرغماً بزوجتي
ولم اكن اخذت شيئاً قسرا ... بل عن رضاها وهي تبدي العذرا

* * *

قالت اجل قدكنت بين اثنين ... أكاد لا احيد عن امرين
فهل اردّ طلباً ينكّد ... عليّ عيشي – والعطاء أنكد
فيرجح الاعطاء عندي مرغمه ... وهكذا حتّى بقيت معدمه
ولم اجد في قوس صبري منزعا ... وكنت احسب (السوار) مفزعا
فكان هذا سبب النفور ... فهل رجوعي بعد بالمقدور ؟

ويقول القاضي — :

اقول قد عرفت باستقرائي	مما جرى في ساحة القضاء
ان زواج البعض دون مين	يشبه في أحوالهم : هذين
لكنني لم ادر كيف تُغفل	قبل الزواج نقطة وتُهمل
وهي اساس يجب التشبّع	من بحثها حتى يبين الطمع
لانها مجلبة الدمار	ومصدر الخلاف والنفار
كما عليها تشهد التجارب	والبحث عنها بعد هذا واجب

وهكذا يمشي محمد الخليلي في نظمه حتى يتم الكتاب كله على هذا النسق السهل الجميل فيكسب كتابي رونقاً فنياً ويظهره بمظهر اللوحة الجذابة بشعره.

* * *

وكانت لي زمر من الاصحاب تختلف كل زمرة عن الاخرى بنهجها وسلوكها ويؤلف تقارب الذوق بين افرادها وقد كنت آنس بهذه الزمرة كما آنس بتلك ولا أقول اني كنت كالقاسم المشترك بين هذه الزمر المختلفة واذا صح اني كنت كذلك فلم أكن بالقاسم المشترك الاعظم ، وكان محمد الخليلي يجتمع معي في احدى هذه الزمر المؤلفة من عدد من ارباب العلم والادب والذوق توفى الله بعضهم كالشيخ محمد كاظم الشيخ راضي والشيخ محمد رضا المظفر ، والشيخ قاسم محي الدين وغيرهم ولم يبق من هذه الزمرة اليوم غير عدد قليل منهم السيد محمد جمال الهاشمي ، والشيخ محمد جواد الشيخ راضي ، وكنت انا والشيخ محمد كاظم الشيخ راضي المحور الذي تدور علينا حركة ايجاد المناسبة لدعوة هذه الزمرة لتناول الغداء عند هذا والعشاء عندذاك كأن نستدعي الشخص الذي نريد ان نعقد مجلسنا الادبي عنده وبلغة لا يعرفها غيرنا نحن الاثنين نهيؤه لقبول إعداد وليمة لنا نعين صنفها وحدودها ، ونخفف على قدر الامكان تكاليفها ولا حاجة لان اذكر

اننا انا والشيخ محمد كاظم لم نكن نتخلف عن بقية الاخوان في اقامة الدعوات في بيوتنا ان لم نكن نسبقهم في ذلك ، وفي هذه المجالس التي كنا نعقدها كنا نملأ نفوسنا ارتياحاً فيما كنا نعد للترويح من وسائل ادبية كثيراً ما يكون الشعر ابرز الوانها .

وذات يوم تم الاتفاق بيني وبين الشيخ محمد كاظم الشيخ راضي على ان نفرض على محمد الخليلي طبخة (پاجة) من رؤوس الغنم ، كما نفرض على السيد هادي فياض أكلة سمك من النوع المعروف (بالحرش) ، وبالطريقة التي نحبك فيها الدسيسة ونسج (المقالب) ونقيد الشخصين باليمين على ان لا يضيف شيئاً على مقترحنا أنشد الشيخ محمد كاظم قائلاً :

اني لمشتاق الى (پاجة) تطبخ في بيت (الخليلي)

ولئلا يتبادر ذهن الحاضرين الي ويظنون انني المقصود بذلك ابعدت الشبهة في الحال بقولي :

لا سيما عند طبيب لكي نحظى باكل منه صحي

وسرعان ما اجاز الشيخ محمد جواد الشيخ راضي البيتين قائلاً :

نعم وهذا الرأي مستحسن وحسنه ليس بمخفي

وبعد يومين كانت (الپاجة) قد اعدت في بيت محمد الخليلي وكانت وليمة عامرة برؤوس الغنم جهز طبخها وإعدادها بالوان مختلفة وقد تجمع الرفاق حول خوانها ، وكان الشيخ محمد جواد الشيخ راضي وعلى غير سابقة منا قد أعد قصيدة عامرة بهذه المناسبة ومهد لنا الطريق فيها لكي نحمل السيد هادي فياض (ابا رجاء) باعداد أكلة سمك من صنف (ابوخريزة) المعروف بالحرش ، فكان ان وجه الخطاب الى محمد الخليلي قائلاً :

ناديك للاخوان مقصدْ ولصفوة الادباء معهدْ
قد كان مستشفى فعاد بفضل اهل الفضل مربدْ
فاهنأ باخوان الصفا فهم النجوم وانت فرقد

ما شئت قل في فضلهم واستشهد الحلبات تشهد
يا واحد الدهر الذي ما مثله في الناس يوجد
لو رمتُ نظم صفاتك الغرا ملأتُ بها مجلّد
طبّ ابن سينا في ذكاء أياس في ادب المبرّدْ
ان فاض جودك ليس يمنع فيضه (روفٌ) ولاسد
عودتنا منك الجميل فعُد له والعودُ أحمد
لو لم يحدّده (اليمين) بباجة لتجاوز الحد

وهنا التفت الشيخ محمد جواد الى محمد الخليلي ثم الى (ابي رجاء) السيد هادي فياض وقال :

اليوم يومك يا (محمد) و (ابو رجاء) يومه غد
اندى البريّة راحة واعزهم نسباً ومحتد
في جدّه وبمجده شرعُ المفاخر قد تجدد
المفرد العلم الذي (بابي خريزةَ) قد تفرّدْ

ثم يلتفت الشيخ محمد جواد الى الشيخ محمد رضا المظفر ويقول :

اما (الرضا) الحبر المؤيد فعلى الولائم قد تعوّد
ما ذاق طعم طعامه يوماً ولا منه تزوّد
لم يبق من تلك الرؤوس لنا سوى العظم المجرّد
فكأنما اسنانه مشحوذة اسنان مبرد
قلب اليمين على الشمال وحلّ مئزره وعربدْ
وأتى على ذاك الثريد فمثرد من بعد مثرد
فالاذن تصلم باليمين وبالشمال تـُجرّد اليد
أكل الرؤوس جميعها فاسلمْ برأسك يا (محمد)

ولكي أبرأ نفسي ، واقف من ابن عمي موقف المدافع بدأت اسجل بعض الابيات في اثناء قراءة الشيخ محمد جواد الشيخ راضي قصيدته حتى

اذا انتهى واحضر الشاي كانت قد تألفت عندي مقطوعة من المؤسف ان ضاع بعض ابياتها ولم يبق منها إلا هذه الابيات التي تلوتها وانا اوجه خطابي الى محمد الخليلي :

قد مشوا يحضهم نحو بيتك النهم
ينشدون مأدبة طالما بها حلموا
كل منزل ولهم في فناه مزدحم
كل شارع وبه من مسيرهم قدم
كل اكلة ولها في حياتهم قيم
ويك اننا نفر ليس ذمة لهم
شغلنا نسج اكلة وعليها البعض منا ببعضنا يستعين
لا نبالي ان كان من اجل هذا رهنت بذلة وبيعت صحون
يا ابا صادق[1] اجارك ربي من جماهير همهن البطون
كل فرد منهم بالف وعندي كل فرد – بما ارى – مليون

ثم صارت بعد ذلك هذه (الپاجة) موسمية ناكلها في كل سنة في بيت محمد الخليلي بلى الصحيح في كل مناسبة نخلقها كما نأكل سمك (ابي خريزة) الحرش في بيت السيد هادي ، فلا من يمين ولا قسم كما نأكل اصنافاً أخر من اقتراحاتنا في بيت الشيخ محمد رضا المظفر . والسيد محمد الهاشمي ، والشيخ قاسم محي الدين ، وبيتينا نحن الشيخ محمد كاظم الشيخ راضي وانا .

* * *

وسكن محمد الخليلي فترة من الزمن مدينة الكوفة ، وكان الحاج محمد صالح الخليلي هو الآخر يسكن الكوفة ، فكان سكناه الكوفة سبباً آخر يشجع

---

(١) هي كنية محمد الخليلي وابنه النقيب المهندس صادق الخليلي .

على اكثاري من زيارة الكوفة ، اما والدي فقد اعتاد ان يقضي ليلة الاربعاء من كل اسبوع في مسجد السهلة وفي الصباح يقصد مدينة الكوفة ليمرّ ببيت محمد الخليلي وبيت الحاج محمد صالح متفقداً فقد عرف عن ابي بين جميع افراد اسرته انه اكثرهم تفقداً لارحامه وكان يلذ له ان يسبقهم في الزيارة في ايام الأعياد ، وقد كان محمد الخليلي وأولاده وهم صغار يترقبون مرور ابي بهم في كل يوم اربعاء ولو لبضع دقائق ، اما انا فقد كنت اطيل المكث عنده وعند الحاج محمد صالح اذا ما قصدت الكوفة .

ومحمد الخليلي ظريف فكه ، خفيف الروح ، سريع البديهة ، بحيث لا يفوته خلق النكتة وهو يأتي بها مرتجلة وعفو الخاطر

وذات سنة كنت احس بارهاق وتعب يستدعيني ان ابحث عن منتجع لاستجم فيه الراحة فلم أجد أحسن من مدينة الكوفة وانا الى جوار محمد الخليلي الذي سيغدق علي السكينة وراحة النفس بما عرف به من الظرف وحلاوة النكتة ، وعلم الصديق التاجر عبد علي ناجي برغبتي هذه فقدم لي بيته في الكوفة وكان بيتاً واسعاً جميلاً فخرجت بأهلي لأقضي فيه شهراً او شهرين ، وكان لي في الكوفة اصدقاء واحباب بالاضافة الى محمد الخليلي ومحمد صالح الخليلي فلا يكاد الليل يقبل حتى يجتمع عندي عدد منهم سامرين حول اباريق القهوة ، وفي مقدمتهم آل الخليلي ، فلا يرفضّ الجمع الا بعد منتصف الليل وقد انتشى الجميع بخمرة الأدب وتفكّه بنكات محمد الخليلي وتعليقاته ، وتطيّب بعطره ،

وفي احدى الليالي قدم لي محمد الخليلي شيخاً وهو بين الجد والهزل يقول: انه الشيخ خضيّر ، والشيخ خضيّر ربع ، ذو عمة بيضاء ، قدمه محمد الخليلي بصفة شاعر من شعراء الزجل الشعبي ، وقال : ان له في كل قدر مغرفة، وفي كل موضوع قصيدة ، وقال انه اكثر ما ينظم الشعر فانما ينظمه في رثاء الحسين (ع) واكثر ما يفيد فمن طريق هذا الرثاء او من طريق مؤانسة البعض من الوجوه والأكابر الذين يعرفهم بالشعر ، وقد راح يستعين على

دنياه بنمط خاص من الشعر يجاري به اقوال (فدعة) الشاعرة المعروفة من قبيل :

« يا گصور البشيـاب عرّس »

او من قبيل

« يا تبلية عيـط للصعّادة »

وقد ادى به فكره ذات مرة الى ان يمدح شاه ايران السابق رضا بهلوي ، فنظم قصيدة طويلة صاغها من تلك الألفاظ الفخمة ، الضخمة ، العويصة ، وعلى ذلك المنوال الذي قد يستعصي فهمه حتى على (فدعة) الشاعرة او (الحاج زاير) ونسجها على طريقة (المربّع) فكانت قصيدة من افخر القصائد الشعبية تفيض باسمى المعاني ، وتتدفق بتلك الحيوية المألوفة في أدب الحسجة مما تليق بالملوك والعظماء

وقرأ تلك القصيدة على طائفة من اصدقائه وزملائه من شعراء الزجل ، يقول محمد الخليلي : واستشارهم في امرها فلم يجد فيهم الا المستحسن المستعيد ، والا الحاض على اهدائها الى جلالة الشاه ولم يحصل في القوم واحد يقول له : ولكن من يضمن لك ان ثمة وفي بلاط الشاه قارئاً يستطيع ان يقرأ هـذه القصيدة ويفهم معناها اذا ما حظيت بقبول الشاه وأمر بتلاوتها ؟ كما لم يحصل من يقترح عليه بتجربة مثل هذا الشعر مع السفراء والوزراء المفوضين في بغداد قبل الاقدام على ارسالها الى الملوك رأساً .

وفضلاً عن عدم حصول من يشير عليه بالتريث فان كل من سمع قصيدة الشيخ خضير ابدى اعجابه بها ، وحبّذ ارسالها الى جلالة الشاه ، ولعله حسده على حسن التفاته وسبقه غيره من الشعراء بفتح هذا الباب الذي ينتظر ان يتدفق منه الخير وتفيض منه البركة .

وهنا طلب محمد الخليلي من الشيخ خضير أن يقرأ علي هذه القصيدة وقال فقرأها انه قد ارسلها منذ شهرين الى جلالة الشاه ولكنه لم يجزَ عليها

حتى ولا بكلمة شكر مختصرة ...

قلت – ومن يدريك انها وصلت ؟

قال – لقد ارسلتها بالبريد المسجل وظللت انتظر الجواب مدة شهرين حتى يئست ..

ورأيتها فرصة مناسبة باتفاق مع محمد الخليلي لنسج احبولة جديدة للفكاهة والتندر فرحت اخطط للشيخ خضير خطة اجعل منه اذا ما نجحت الخطة بطلاً لرواية هزلية مضحكة ، ومضيت استعرض الادوار اللازمة لمثل هذه الرواية حتى جئت بعد اربعة ايام بورقة تحمل في رأسها عنوان شركة من الشركات الأجنبية وقد كتب بالخط اللاتيني وبلونين او ثلاثة الوان تبهر الأنظار ثم دفعت بهذه الورقة الى كاتب الطابعة في قائمقامية النجف ليطبع عليها رسالة بهذا المضمون :

حضرة الشاعر الموهوب الشيخ خضير شاعر الكوفة الأكبر .

تلوت على سيدي قصيدتك العامرة المعربة عن اسمى العواطف وادق الأحاسيس فامرني سيدي بان ابلغك اعجابه واشكر لك رقة شعورك ، ودقة احاسيسك كما أمرت بان ابلغك بانه قد تقرر منحك راتباً شهرياً قدره ثلاثون توماناً ، وباستطاعتك تسلمه من النجف بمجرد ارائتك كتابنا هذا ودم بالعز والسلام .

التوقيع
أمير الأمراء

ثم عثرت على غلاف جميل من تلك (الظروف) الزاهية الخلابة فأودعت الرسالة فيه وكتبت عليه عنوان الشيخ خضير في الكوفة ثم القيت بالرسالة في صندوق بريد النجف ، ولو لم يعلمني محمد الخليلي بما عليه الشيخ خضير من السذاجة والوداعة والطيبة وامكان انطلاء هذه الحيلة عليه لاتخذت له طريقة أخرى ، ولوضعت له الرسالة في قالب آخر وبتوقيع خاص ، ولما كنت اقدمت

على ارسالها بواسطة بريد النجف الى الكوفة وبمثل هذا الوضوح من الأمر .

وكان الشيخ خضيّر من البساطة وطهارة النفس بحيث لا ينكشف مثل هذا الأمر عنده لو خلي لنفسه ، لذلك ما كاد يتناول الرسالة من البريد في اليوم الثاني حتى جن جنونه من الفرح ، وحتى كاد لا يتمالك نفسه من السرور ، وفي تلك الليلة كان مجلسنا من اروع المجالس وابهاها فيما كان يدور فيه من احاديث عن قصيدة الشيخ خضيّر واثابة الشاه عليها ، ولقد اوحينا للشيخ خضير بأن يخف عند الصباح المبكر الى النجف فيطلب من نائب القنصل الايراني هناك تحقيق هذا الأمر وتسلم الراتب المخصص له منذ اول يوم ارساله القصيدة الى الشاه .

وكان نائب القنصل يومذاك (الميرزا يحيى) وهــو من الذين درسوا مقدمات الأدب العربي وجانباً من الفقه والأصول في النجف قبل التحاقــه بالوظيفة ، وقبل تعيينه للقنصلية الايرانية في النجف ، فاصغى الى الشيخ خضير بكل حواسه ، وقرأ رسالته وقال له بشيء من اللطف :

ـ يا سيدي يا شيخ خضيّر ، ان هنالك احبولة من احابيل الفكاهــة وعليك أن تفتش عنها لتجدها ، وادع لنا بعد كل صلاة بالسلامة لان دعاء اهل القلوب الطاهرة من امثالك مستجاب عند الله .

وعاد الينا الشيخ خضير في الليلة الثانية يقص علينا قصة القنصل وما قاله له بخصوص الرسالة ،،..!!

فقلنا له أنا ومحمد الخليلي .

ـ أقال لك ذلك قبل أن تتفاهم واياه ام بعد التفاهم ؟

قال ـ لم افهم المقصود ..

فقلنا له ـ مسكين يا شيخ خضيّر ... لقد كنا نحسب انك تفهم علــة هؤلاء الموظفين وتعرف اساليب التفاهم معهم .. والآن يجب ان تفهم ، وتفهم جيداً بأن عليك اذا ما اردت ان تتسلم راتبك في كل شهر اما ان تقاسم

الرجل بشيء منه او تقف في وجهه وقفة القوي الذي يخشاه ليضطر الى تسليمك الراتب في كل شهر وهو اشد ما يكون خوفاً منك ومن ملاحقتك اياه ، اذا شاء التفاهم معك .

ولم نزل نصف له كيف يجب ان يقابل القنصل ، وكيف يجب ان يستعمل الكتابة الواضحة المفهومة ، ثم كيف ينبغي ان يشير اليه بطرف خفي اذا كانت (الأرض مسكونة) ، ومعنى الأرض المسكونة كما هو مفهوم عند الشيخ خضيّر وأمثاله هو وجود اشخاص يكون الحديث غير جائز بمحضر منهم .

اما اذا وجد الصلاح في التهديد والتخويف فقد خاض الجمع في الطرق التي ينبغي عليه ان يسلكها وكيفية التهديد وصيغته ، وضربوا له الأمثال ، ومثل احد الجالسين دور القنصل ، ومثل الآخر دور الشيخ خضيّر واروه كيف يكون السلوك اذا كانت الرشوة انفع وكيف يكون التظاهر بالقوة والفتوة اذا كان ذلك انفع

وفي صباح اليوم الثاني قصد الشيخ خضير النجف وقد اتقن الدور الذي يجب ان يلعبه عند القنصل وراح يستعمل اسهل الطرق واهونها في اقناع القنصل فأومأ له بأصابعه الخمسة أي أنه مستعد لأن يدفع له خمسه (توامين) من اصل المبلغ ، وحين لم يلمح اثار الرضا على وجه القنصل لوّح له باصبعين ثم ثلاثة واربعة حتى كان المجموع عشرة اصابع ومعنى ذلك ان الشيخ خضيّر مستعد لدفع عشرة (توامين) للقنصل اذا رضي ان يدفع له راتبه ...

واحس الشيخ خضيّر بان هذه الطريقة لم تفد مع الرجل وان عليه ان يعبس ويتجهم ويزبد ، ويعربد ، ويهدد وفقاً للدور الذي مثله له الجماعة في الليلة الماضية على سبيل التجربة ، فقال يخاطب القنصل

– انك مخطىء اذا ظننت ان الأمر سيقف عند هذا الحد ... فانا رجل لا اغفر للعابثين بحقوقي عبثهم ، وانني لا اكتفي بان ابرق لجلالة الشاه بتفصيل القضية بل سأعمد لآخذ حقي اضعافاً مضاعفة وأنفك رغم !!

لقد قال هذا واكثر من هذا بشيء كثير من الغضب والعصبية فلم يجد القنصل أمامه الا طريقة الشرطة لغسل هذه الاهانة التي لحقت به امام بعض الحاضرين من تبعة الحكومة الايرانية وسائر موظفي القنصلية ، فمد يده الى التلفون وطلب معاون الشرطة واخبره بالخبر ، اما الشيخ خضيّر فعلى انه لم يكن ينتظر مثل هذه المفاجأة التي لم تتطرق اليها التجربة ولم تمرّ ببال احد من حضار مجلس البارحة فقد ابدى شيئاً من الشجاعة وعلق على المخابرة التلفونية قائلاً :

ــ يجب ان تعلم انه لا الشرطة ولا غير الشرطة من احد يستطيع ان يثنيني عن اخذ حقي كاملاً غير منقوص ....

وفي هذه الأثناء وصلت الشرطة وساقت الشيخ خضيّر الى المركز وبدأت معه التحقيق على ضوء كتاب الشاه المزعوم ، ولم يمر نحو ثلاث ساعات حتى تصل رسالة الشيخ خضيّر الي مستنجداً فأخفّ الى النجف ، وهنالك اكشف لمعاون الشرطة وللقنصل القضية ، ويتوقف اطلاق الشرطة للشيخ خضيّر على قبول اطلاق القنصل له ، ويتم لي ذلك واعود بالشيخ خضيّر معي الى الكوفة وهو لا يعلم شيئاً اكثر من انني انا الذي انقذته من هذه الورطة التي اوقعه فيها القنصل للاستيثار بالراتب الذي خصصه له جلالة الشاه ، وقد أدخل في ذهن الشيخ خضيّر ان باب التدارك قد اصبح مسدوداً في وجهه بعد الذي وقع ، وان الميرزا يحيى القنصل قد استحوذ على راتبه بالطرق المألوفة التي يستحوذ الموظفون بها على حقوق الناس .

وللآن ــ على ما اعلم ــ والشيخ خضيّر يشكر لي اياديّ في انقاذه ويلعن الميرزا يحيى بكل ما يعرف من بلاغة الشعر العامي ، ولست ادري ماذا سيكون وقع اعترافي هذا عليه هنا اذا ما تسنى له ان يقرأه .

* * *

ولم يقتصر ظرفه على الشعر ونكت الألفاظ والمقالب وانما كثيراً ما تجيء

النكتة عملية ومن ذلك انه التقى ذات يوم بالشيخ حسن السبتي في الصحن الشريف وكان السبتي قد رجع من السفر وكان على محمد الخليلي ان يعانقه كما هي العادة والشيخ السبتي طويل القامة ، فارع الطول ، ومحمد الخليلي قصير القامة مفرط القصر ، فمد الخليلي يده وامسك بيد السبتي وجاء به يجرّه حتى بلغ احد اواوين الصحن فاوقفه عنده وصعد الايوان وهناك فتح له يديه وعانقه من فوق الايوان مما اثار الضحك عند من كان هناك ،

قالت له مرة قرينته وهي الى جانب جرة الماء وقد حسبتها مملوءة بالماء البارد ، قالت له : أتريد ماء بارداً

قال – نعم .

فمدت يدها الى الجرة فاذا بها فارغة فقالت له :

ماكو – والماكو ، في لغة العراق انه : غير موجود فرد عليها قائلاً :

– لقد طلبت مني قبل ايام ان ابحث لك عن خاتم من الفيروزة . فهل انت لا تزالين تطلبين ذلك

قالت – نعم

قال – ماكو .

قال لي مرة ان قروياً جاء يشكو من مغص شديد واسهال متواصل فكان لا يطيق الصبر لشدة الألم – يقول الخليلي – : فكتبت له وصفة وقلت له ان يذيبها في الماء المغلي ويشرب منها كل ساعتين قدحاً ، فجاء في اليوم الثاني يشكرني على شفائه السريع ويطلب مني ان اكرر له كتابة الوصفة الطبية ، قلت له والوصفة السابقة ماذا عملت بها ؟ قال ألم تقل لي أن اغليها في الماء وقد غليتها حتى ذابت الورقة وشربتها وشفيت ، فسألته عن اسمه فقال : اسمي شعلان فكتبت له في ورقة صغيرة :

شعلان هـذا دواء لكل داء يفيـد

وبعد شهر جاءني يطلب مني ان اكتب له وصفة اخرى لأن الوصفة السابقة قد أعطاها لابن عمه الذي كان يشكو من وجع الرأس فما كاد يشربها حتى شفي ، فكررت له كتابة البيت على ثلاث قصاصات صغيرة من الورق ولم اره بعد :!!

شعلان هــذا دواء لكل داء يفيــد

وقد قيل ان الظرف وراثي في بيتنا وانا لا استطيع ان اؤيد هذا او أنفيه وقيل ان اغلب الخليليين لا يمنعهم مانع من ان يتخـذوا حتى من انفسهم موضوع نكتة ، لقد قال لي مرة الشيخ مهدي الخليلي وانا بطهران وهو شيخ الاسرة الخليلية اليوم تجاوز عمره العقد الحادي عشر ببعض السنين واشرف على المائة والست عشرة سنة وعلى شيخوخته وتقدم سنه فلم تفارقه النكتة والدعابة وهو خال محمد الخليلي ، ويقيم بطهران منذ عشرات السنين فقد سافر اليها وهو ابن ستين سنة وبقي هناك لقد قال لي حين بلغه ان محمد الخليلي يؤلف كتاباً عن آل الخليلي ومنازلهم من المدن كالنجف ، والحلة ، والهندية ، والسماوة ، والكوفة ، وغيرها قال لي : اذا وصلت العراق فبلّغْ ابن اختي محمد الخليلي ان يخفف قليلاً من كبريائه وافتخاره بان له اسرة منتشرة هنا وهناك فقد والله كانت لي قطة وهي من انحس القطط وقد تناسل منها ما يقرب من ستماية قط سكن بعضها شيراز وبعضها بمبي ، وبعضها مسقط ، والبحرين وزنجبار

* * *

وعلى ذكر المؤلفات اذكر ان لمحمد الخليلي بضعة عشر مؤلفاً في اغراض شتى اهمها عندي (ادباء الاطباء) وهو مؤلف جليل تحدثت عنه المعاجم واخذ عنه الكثير ، وقد قدمت الجزء الأول منه بكلمة لم احابِ في قرابتـه واشرت الى النقاط التي فاتته وكنت احثه على متابعة هذا المعجم واصدار الجزء الثالث واحسب انه قد فرغ من مسودته في ايامه

الأخيرة ، وقد دل بكتابه هذا على خبرة واسعة وتتبع عميق للاطباء الذين زاولوا الأدب شعراً ونثراً منذ التاريخ البعيد حتى اليوم فسد بكتابه هذا فراغاً كبيراً في عالم المطبوعات - وقد علمت انه قام في الآونة الأخيرة بتأليف كتاب يضم تراجم جميع شعراء جمعية الرابطة وقصائدهم التي تليت في مناسبات الرابطة ، وقد اتم هذا الكتاب على ما علمت وعاجله الموت قبل تمثيله للطبع ، كما علمت بانه قد فرغ من تأليف مجموعة صوّر فيها اندية النجف الأدبية ومجالسها وما عرفت بها من الظرف والنكت وهو الآخر لم يزل مخطوطاً ، ولم يسبق لي ان أسأله عنهما .

* * *

ولمحمد الخليلي مجلس يومي يجتمع عنده في كل يوم عدد من اهل الفضل والأدب ، وقد عرفت قهوته التي يسقي منها حضار مجلسه باسمه ، واصبح اسمها مثلاً بين رواده فهي في الصبح غيرها في الظهر ، وغيرها في العصر وغيرها في المساء فقد خصص لمجلسه كل يوم نحو ماية غرام من القهوة لا يزيد عليها شيئاً ولا ينقص منها شيئاً وكلما زاد عدد زواره استمد المؤون من حبّ الماء حتى لتغدو قهوته في آخر النهار ماء صافياً لا لون له ولا طعم ، وقد ابدل هذه القاعدة في السنوات الأخيرة فاقتصر مجلسه على ليلة واحدة في الأسبوع جرت عادته فيها ان يشرك في عشائه معه من يتخلف من رواد مجلسه ويطيل عنده السهرة ، وفي هذه الليالي اكثر ما يدور الحديث حول الشعر وما يجدّ في عالم الأدب من جديد وما كان محصول الشعر في ذلك اليوم وما قبله في المناسبات التي حدثت في البلدة على الأخص ، ومن اكثر المتصلين به السيد نعمة الصافي .

ولم يكن عمل الخليلي مقتصراً على الخدمة الصحية لأنه طبيب مجاز ، ولا على قول الشعر لأنه شاعر ، ولا على البحث والدرس لأنه مؤلف ، وانما كانت له هناك خدمات أخرى في ميادين أخرى ، وقد كان من مؤسسي (جمعية الرابطة الأدبية) في النجف وظل العضو الوحيد الذي اعطاها

الشيء الكثير من نفسه ومجهوده ، واليه يرجع الفضل في تنمية مكتبتها .

وحين كنت أصدر جريدة (الفجر الصادق) في النجف كنت شاباً ومتحمساً وعنيفاً فلم يرض نهجي الناس ولم يرض الحكومة وذلك للصرامة التي اتصفت بها ، وحين اقدمت على طلب امتياز جريدة الراعي بعد احتجاب الفجر الصادق ثلاث سنوات لم يكن لي اي رصيد يشفع لدى الحكومة لمنحي امتيازاً باصدار الجريدة وطالت مراجعتي حتى يئست فانبرى البعض من الأصدقاء الى بعض وجوه النجف واكابرها مثل الشيخ جواد الجواهري والشيخ عبد الكريم الجزائري يستكتبهم للسلطات بأن صدور جريدة في النجف من الأمور التي تعتبرها النجف ضرورية ، اما محمد الخليلي فقد حمل جمعية الرابطة على كتابة كتاب لوزارة الداخلية يشبه الاحتجاج لتلكؤ الوزارة عن منحي امتيازاً باصدار جريدة في النجف .

وهناك ميزة لمحمد الخليلي لا تعادل بثمن ويكاد يكون بل كان والله نسيج وحده من حيث اخلاقه الرفيعة ، فما عُرفتْ عنه نميمة ، ولا سعى بسوء ، ولا عرف الحقد والحسد ، ولا ضمر البغض لأحد ، وكان دافىء اللسان ، مهذب اللغة ، لم يعرف لسانه لفظاً للشتيمة ولا حرفاً من بذيء الكلام .

* * *

وحين انتقلت الى بغداد وقل مروري بالنجف لم تنقطع رسائله عني ولم ينقطع عن زيارتنا حين يجيء الى بغداد بل كان اول عمل يقوم به هو المرور ببيتنا فكنا نتناول الغداء في (المكتبة) او نشرب الشاي فيها ، وكان هـــذا ديدنه حتى فطنت ذات مرة الى ان هناك امراً ذا بال فقد بدأ يجيء الى بغداد ، ويكتفي بالسؤال عنا بالتلفون ولا يجيب طلبنا حين ندعوه للغداء خلافاً لمــا كان قد عوّدنا ، وطالت هذه القطيعة ، فلم اعرف لها سبباً ولقد فكّرت واطلت التفكير فلم اعرف السبب حتى لقد سألته مرة بالتلفون عن علة هذا التغيير فانكر ان يكون هنالك شيء ، ولم ازل افكر حتى توصلت الى سبب هذه

الجفوة ، فلقد حدثت ذات مرة ازمة لأحد اولاده وقد حدثني بها وكان رأيي يخالف رأيه فيها فضلاً عن انني لم اكن استطيع حلها لانني كنت قاصراً ، ولان الطريق كانت مغلقة في وجهي ، اما هو فقد كان يظن انني كنت قادراً على ان اعمل شيئاً ولكن مخالفتي له في الرأي هي التي صدتني عن مساعدته .

لقد توصلت الى السبب ، واذا ما عرف السبب هان حل المشكلة فكتبت له اطلب منه المرور بي ببغداد في اول فرصة لأن هنالك أمراً قد حدث لي وأنا بحاجة جد ماسة الى مساعدته ، وفي خلال يومين كان عندنا في البيت فقلت له : انني عرفت سبب عزوفك عنا ، وصدودك لنا ، وانا عاتب عليك لكتمانك ذلك ، ثم اقسمت له انني لم اكن كما ظن من حيث القدرة على حل تلك الازمة وانه لم يكن لي في ذلك الدور من الأصدقاء من استطيع ان استعين بهم ، وانه قد اخطأ حين نزلني منزلة اكبر من شأني حتى توهم بأني كنت قادراً لو كنت أريد أن أعينه ولكني لم افعل ، ويبدو لي انه خجل وظل يصرّ على ان ليس هنالك شيء او بعض شيء من هذا ، ثم عادت المياه الى مجاريها كما يقولون ، وعدت انعم بادبه وظرفه ولطفه وزياراته المكررة لنا في البيت .

* * *

كان يشكو منذ مدة من احتقان في رئتيه ، واضطراب في قلبه ، فكان يراجع الاطباء ببغداد بين آونة وأخرى لاجراء التخطيط ، والكشف بالأشعة ، ولم تكن النتيجة مرضية ولكنه كان لم يزل قادراً على القيام باعماله ، وكان نشاطه في اعماله الكتابية قد رافقه الى حين ملازمته الفراش ، حتى داهمته ذات يوم نوبة شديدة التهبت على اثرها رئتاه ، وهبطت ضربات قلبه ، ويئس منه الاطباء واستدعي له اقرباؤه من بغداد ، ومن سائر الجهات الى النجف وطالت مدة ملازمته الفراش فتجاوزت الشهر ثم تماثل بعدها الى الشفاء وظن انه قد برأ تماماً فقد عاد الى اعماله الكتابية يجمع شوارد الأدب ، او يبحث بين الكتب عما ينشد من مواضيع يؤلف منها بعض الكتب ، ومع ذلك فلم يكن هذا الا من قبيل السكون الذي يسبق العاصفة وان طال مدى

هذا السكون وذات يوم تلقيت من احد اقربائي ما يشير الى ان صحته ليست كما يرام وانه قد جيء به الى بغداد فسعيت اليه فالفيته في حالة تدعو للاطمئنان وكانت الفحوص الطبية لم تكمل بعد ، ثم كررت عليه هذه الزيارة وعلى انني ازددت اطمئناناً من حاله ولكني علمت ان نتائج الفحوص الطبية لم تكن مرضية ، وكنت قد عزمت على السفر الى ايران لفحص بعض المخطوطات في مكتبات طهران ومكتبة (آستان قدس) بخراسان تكملة للجزئين الأخيرين من موسوعة العتبات المقدسة فحرت فيما انا فيه فان ارتباطي بالمطبعة ببيروت يحتّم علي الاسراع ، وهذه النتائج تنذر بالشر وان لم تظهر عليه بوادرها ، وبتّ تلك الليلة في قلق ، وفي الصباح اتصل بي ابنه واخبرني انه نقل الى المستشفى فخففت اليه وانا اشد ما اكون فزعاً ، والفيته في حال سيئة وفي شبه غيبوبة الأمر الذي دعاني الى ترك السفر الى ايران ، وفي اليوم الثاني حين كررت زيارته في المستشفى وجدته في حال تبشر بالخير ، وقد طلب مني ان اسافر وقال انه يشعر بتقدم سريع .

وسافرت وكلي قلق عليه ، وحين عدت الى بغداد ، علمت بانه شفي تماماً وقد غادر بغداد الى النجف ، وانه يتمتع الآن بصحة مرضية !! فشككت في أمر الكشوف الطبية من اشعة ، وتخطيط ، وتحليل ، ولكن لم تمر ايام حتى اتصل بي اخوه واخبرني بوفاته فجأة وعلى غير انتظار فارتفقت ذراعيّ وأسندت رأسي بين كفيّ عليهما ، وكما لو كنت صغيراً تخيلتني في تلك المدرسة اراه ملء العين وهو يتناول جوائز التفوق في الامتحانات العامة ، ثم يخطر بتلك الملابس العسكرية ، ثم يتردد اسمه بين اسرتنا . ثم يدخل في زمرتنا ، ثم يتزوج فأهنيه بقصيدة هي اول ما نظمت ويتلوها السيد خضر القزويني ملحّنة منغّمة بصوته العذب الجميل ، واروح استعرض تلك المجالس الأدبية ، وليالي السمر ، والولائم التي كنا نقيمها في بيوت اخوان مات اغلبهم اليوم ، ودفنوا تحت التراب كأن لم يكونوا ذات يوم في هذه الحياة

اشخاصاً يروحون ويغدون

لقد قرأ علي مرة الشاعر السيد علي ابراهيم ابياتاً للسيد حسن محمود الأمين يرثي ابن اخيه فيقول فيما يقول :

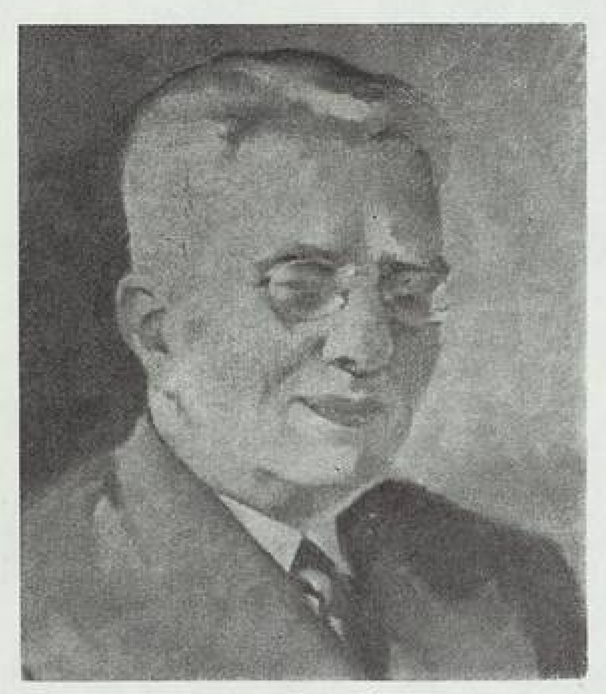
اوقف الموت منك طرفاً سبوقاً ولساناً بغير فحش نطوقـا
قـد خلت منهما المضامير حتى لم تجـد سابقاً ولا مسبوقـا
ليت شعري أواحـداً من فريق قـد فقدنـاك ام فقدنا الفريقا

فكأنه والله لم يرد الا محمد الخليلي ، ولم يصف الا شخصه .

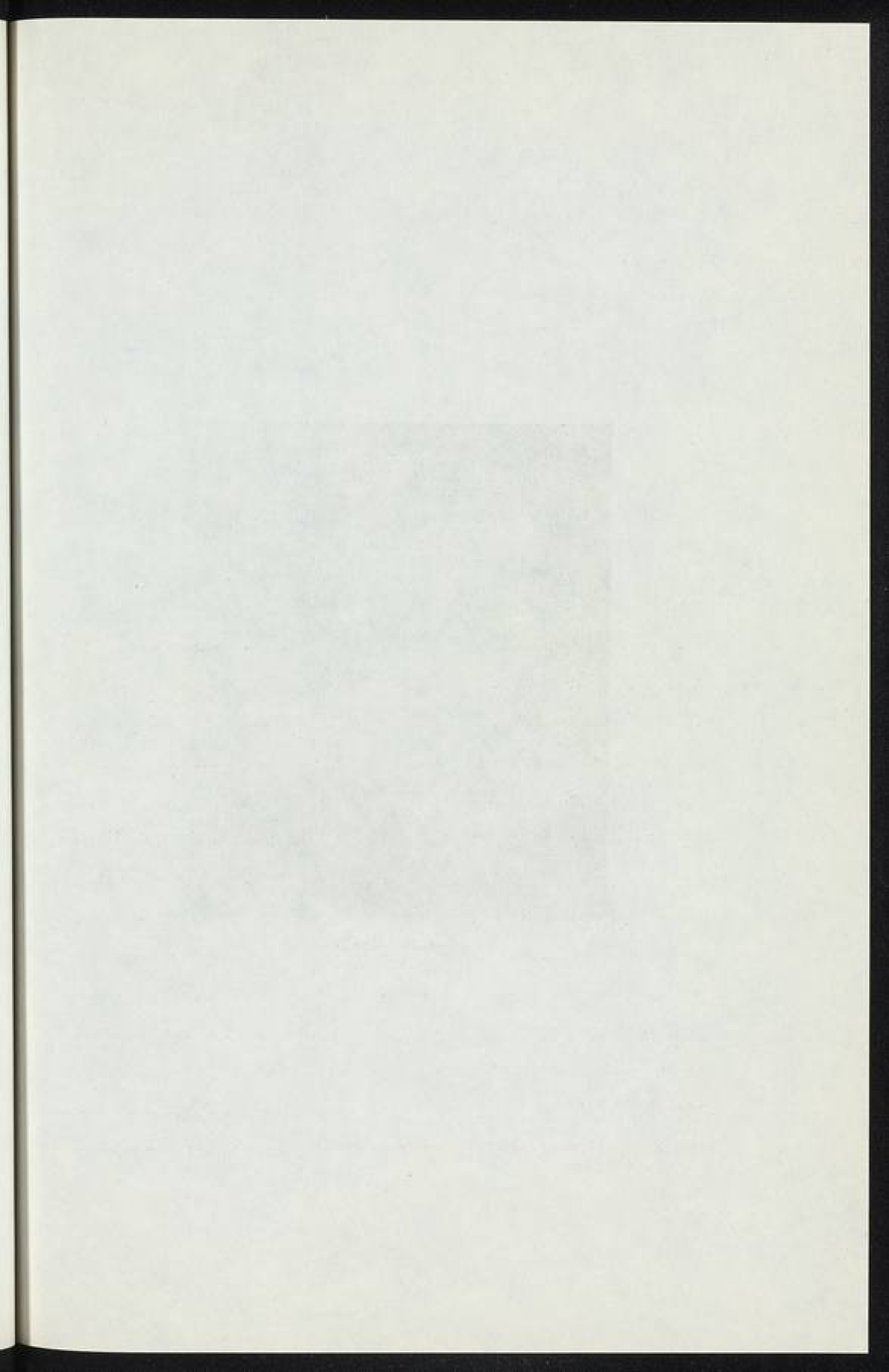
وسالت من عيني الدموع ، فقد كانت تلك الذكريات والصور مؤلمة لي كل الايلام ، وقد تذكرت بيت جورج صيدح في رثاء صديق اذ يقول :

« كيف تمضي كيف لا امضي معك »

ورحت اكرره في ذهني والدموع تنحدر على خدي لاننا لن نلتقي بعد .



الأخطل الصغير



كيف عرفت
الأخطل الصغير

قبل اكثر من نصف قرن كان عدد الذين يحملون لواء الأدب في لبنان ولا سيما لواء الشعر منه كبيراً ، وكان من بين اولئك نفر طبع شعرهم بطابع التجديد الذي لم يعهده القراء من قبل لامن حيث الصياغة والتركيب والقوافي وانما من حيث المواضيع والأفكار وصبها في قوالب شفافة جذابة بعيدة من التعقيد ، ولم يمض بعض الوقت حتى جلبوا اليهم انظار الأقطار العربيـة وكان من بعض اولئك عبد الحميد الرافعي ، داود عمون ، والياس فياض ، ونقولا فياض، وتامر ملاط، وشبلي ملاط، ونقولا رزق الله، وأمين ناصر الدين، وبشارة الخوري وغيرهم . وكان لكل واحد من اولئك الشعراء المجددين لون خاص ، وطابع ميّزه عن انداده فيما طرق من مواضيع ، وما استعمل من تشابيه، وما صوّر من افكار يبزّهم فيها من كان اوسعهم خيالاً ، واصدقهم تعبيراً ، واعمقهم توغلاً في اعماق الوجود ، والاعراب عن خوالج النفس بابدع الأساليب واروع الصور ، وقد بدا منذ ذلك التاريخ اي من قبل اكثر من خمسين سنة : ان هذا الرجل اعني بشاره الخوري يريد ان يسبق حملة ألوية الشعر في تسلق القمة ويريد ان يبز الآخرين في نشر هذا العلم الخفاق في سماء هذا الجبل الأشم ، فقد احس قراء العربية انهم يسمعون نغماً موسيقياً

جديداً يحرك اوتار القلب ، ويدخل الى اعماق النفس، أنغاماً لم يسمعوا بمثلها من قبل الا نادراً بل واقل من النادر اذا جاز هذا التعبير .

وكان اول عهدي ببشارة الخوري الشاعر وانداده يوم كنت اقرأ من المجلات والصحف التي كانت تصل الى اخي عباس الخليلي من لبنان ومصر والتي تركها اخي هذا مع ما ترك من بعض الكتب يوم فرّ من المشنقة التي شنق بها الانكليز احد عشر ثائراً من زملائه الثوار الذين ثاروا في وجه الانكليز في النجف سنة ١٩١٨ ونجا هو من الاعدام باعجوبة تقارب حكايتها حكايات الاساطير ، وصرت ارجع الى بعض هذه الكتب والمجلات والصحف وأقرأ فيما اقرأ لطائفة من اولئك الشعراء المجددين ومن جملتهم بشارة الخوري الذي رأيت صورته لاول مرة في مجموعة جمعت المختار مما نشر من الشعر في مجلة (الزهور) التي كان يصدرها انطون الجميّل ، وامين تقي الدين بمصر ، وكانت الصورة تحكي شاباً جميل الطلعة انيق الملبس يضفي عليها شعره رونقاً وبهاء يزيدها في العين جاذبية وروعة .

وجذبني شعره كما قد بدأ يجذب الكثيرين ، فلقد كان ينطلق من اعماق شعوره واحاسيسه المرهفة ، وعلى اني لم اعرف يومذاك الشاعر غياث بن غوث المسمى بالاخطل كما ينبغي ان اعرفه لصغر سني واول عهدي بالادب ، ولكني ما لبثت بعد ذلك حتى عرفته وعرفت منزلته بين الشاعرين الكبيرين جرير والفرزدق . وحدّدت بمقياسي انا وعلى ضوء معرفتي وجه الشبه بين الاخطل الكبير والاخطل الصغير فانا اذهب إلى ان ليس هناك اي شبه بين الشاعرين من حيث الملكة والشاعرية ، لان بشارة الخوري عندي اشعر من غياث بن غوث رضي تاريخ الادب ومورخوه ام لم يرض ولم يرضوا ، وكل الشبه عندي منحصر في الصراحة والجرأة التي عرف بها الشاعران وكلاهما مسيحيان وفي محيط تألفت أكثريته المطلقه في البلدان العربية من المسلمين ومع ذلك فان الاخطل ليدخل على الخليفة عبد الملك بن مروان بغير اذن وعليه جبة خز ، وفي عنقه سلسلة فيها صليب من الذهب ، وتفوح

من فمه رائحة الخمر دون مداجاة ولا نفاق.

ويروي الرواة عن صراحته اكثر من هذا حتى لقد أبى عمر بن عبدالعزيز ان يستقبله لقوله المشهور :

ولست بصائم رمضان عمري ولست بآكل لحم الاضاحي
ولست بزاجر عيساً بكوراً الى بطحاء مكة للنجاح
ولست بقائم كالعير ادعو قبيل الصبح حي على الفلاح
ولكني سأشربها شمولاً وادعو عند منبلج الصباح

وللاخطل الحق ان يقول ذلك وهو مسيحي ليس عليه ان يؤدي فروض الاسلام ، ولكنه وهو في بلاط خليفة للاسلام ينعم عليه من فيوض الخلافة ومن خزينة المسلمين لقدكان عليه ان يجاري ويمالىء لو لم يكن مجبولاً على الصراحة وترك النفس على سجيتها دون مواربة ونفاق ، ولربما عذره الكثير إكراماً لتلك الصراحة ، والنفس الكبيرة.

وليس هناك ما يمنع الاخطل الكبير حين يطلب منه ان ينزل فيصلي عند بني رؤاس : ان يقول :

أصلّي حيث تدركني صلاتي وليس البرُّ عند بني رؤاس

ويشرب الأخطل الكبير ويدعو الناس الى الشراب ويكرّم الخمرة حتى لقد امتاز بذلك شعره اذ يقول :

تُعيب الخمر وهي شراب كسرى ويشرب قومك العجب العجابا ؟

ويقول في وصف الخمرة وما تخلف من اثر في نفس شاربها :

وكأس مثل عين الديك صرف تُنسّي الشاربين لها العقولا

وليس من مانع لبشارة الخوري ان يعترف بعدم التزامه بالدين او ضعف الدين عنده يوم كان للدين شأن كبير عند جميع الطوائف قبل اكثر من نصف قرن فيقول :

قد رقّ طبعي ورقّ حـالي ورقّ ديني ورقّ مـالي

وانك لتلمس هذه الصراحة في الاعلان عن عقيدته في وصفه الخمرة والدعوة لشربها كما تلمسها عند الأخطل الكبير ، بل قلّ من جارى بشارة الخوري من الشعراء في خمرياته وفي صراحته التي تتبينها في مواطن كثيرة من شعره ، وهوذا مثل من عشرات الامثال الواردة في شعره مما يقول :

حكمة الدهر ان نعيش سكارى فاجمعا لي الكؤوس والاوتارا
واجلواها دنياً ممتعة الحسـن كما تجلوان احدى العذارى
كلنا كلنا نجاذبهـا الوصـل ونجني اللذائذ الابكارا
فانهب العيش لا اباً لك نهباً واطّرح عنك وجهك المستعارا
لست مهما عمّرت غير جناح حط في الدوح لحظة ثم طارا

ويبدع كل الابداع في وصف ما يريد ان يجني الشارب من خمرته ، وما ينتظر ان يبلغ به الشراب حين يقول :

انا لستُ ارضى للندامى أن ارى كسلَ الهوى وتثاؤبَ الاقداحِ
أدبُ الشراب اذا المُدامةُ عَربدتْ في كأسها ان لا تكون الصاحي

وهنالك شيء آخر يتشابه به الاخطل الكبير والاخطل الصغير وهو ان كلا الشاعرين قد عرفا بعفة اللسان والتسامي ، ومع ذلك فقد تجد عند غياث بن غوث الاخطل شيئاً كثيراً مما ينافي ما اشتهر به من عفة اللسان ، اما بشارة الخوري فأكاد اجزم على ما اتفق ان يقع تحت عيني من شعره ونثره بأنه بعيد عن الشتم والقذف وما يشين اللسان من اللفظ النابي .

صحيح ان لغياث بن غوث الكثير من الادلة على عفة لسانه كقوله :

ما كنتُ هاجيَ قوم بعدَ مَدْحِهِمُ ولا أُكَدّرُ نُعمى بعد ما تَجِبُ

ولكن شعره لم يخل من الهجاء المعيب .

هذه هي وجوه الشبه عندي بين الاخطلين حين استطعت ان افهم

الشعر وحين استطعت ان ألم ببعض آثار الشاعرين ، اما ان يكون غياث ابن غوث هو الاخطل الكبير ، وبشارة هو الاخطل الصغير فهذا مما يعدّ من باب التجوز ، وانا في هذا على رأي أمين نخلة القائل :

أيقولون أخطلٌ وصغيرُ أنت في دولةِ القوافي اميرُ

* * *

والشعر عند بشارة الخوري كما هو عند جميع الشعراء وليد ملكةطبيعية تختلف قوة وضعفاً في نفوس الشعراء وعلى قدر ما تجد هذه الملكة من عناصر التغذية في الاوساط التي تحيط بها قراءة وكتابة ، وتجربة ، ودقة ملاحظة ، واكتواء بنار ، او اهتداء بنور ، انصقلت هذه الشاعرية وأتت بالبدائع من الافكار والاحاسيس، ولقد أوتي بشارة الخوري ملكة النبغاء ، وتضافر على صقل هذه الملكة دقة في الملاحظة ، واحاطة بالادب واسعة ، واكتواء بنار الحب ، فلقد احب حباً عنيفاً وهو في ميعان صباه ، ونَعِمَ بحبه هذا وشقي ، فلجأ إلى الشعر ، وفي هذا الشعر سكب كل احاسيسه ، وعبّر عن كل خوالجه ، ولم يلبث هذا اللون من الغزل والتشبيب ان يسود جل شعره فيطبعه بطابع هو نسيج وحده او قلّ من يجاريه فيه على الاقل ، ولقد صدق حين قال :

الهوى والشباب والامـــل المنشود توحي فتبعث الشعر حيّا

فلولا الهوى ، ولولا شبابه وروحه الحية ، لما تهيأ له مثل هذا الاتجاه في دنيا الشعر من رقة الطبع ، ورقة الشعور، ورقة المعنى، ورقة اللفظ تلك المزايا التي انفرد بها بين الشعراء .

ولقد اخفق في حبه ، وخاب في هواه ، وكانت هذه الخيبة هي الاخرى وجهاً من وجوه الإثارة وطلب التنفيس بالشعر، وظل شبح محبوبته في صباه يلمحه القارىء في كثير من قصائده وقوافيه خلال نصف قرن واكثر واخيراً سبق ذلك الرهط من انداده الشعراء وبلغ القمة ، وبويع له بالامارة

وتحقق فيه رأي الذين انجذبوا إليه واقبلوا عليه منذ اول يوم عرفوه وانا منهم في المقدمة بكل فخر وحين انشد مرثيته في الملك فيصل الاول ، فجّ هناك شخص تلك الجماهير الغفيرة واخذ يد بشارة وقبّلها ، ووجد البعض من المعجبين في مثل هذا التقبيل رمزاً من رموز التقدير فقاموا هم الاخرون مقتدين بمن سبقهم واقبلوا عليه يقبلون منه يديه على رغم ارادته ! !

* * *

ولم يخطىء بشارة حين يشير الى رقة ماله ، وخلو ذات يده فلقد مرت عليه أيام عصيبة ضاقت بها الدنيا في عينيه ولاسيما أيام الحرب العظمى الاولى التي وصفها في قصيدة من اعمر قصائده التي صورت حالة الناس وبؤسهم تصويراً لم يأت شاعر بمثله كقوله :

لا يُرى إذ تطلع الشمس ،سوى ... سائل، او عاجز، او وكل
عصف الفقرُ بهم فانتشروا ... كانتشار الوابىء المستفحل
يلهمون العشب من جوعهمُ ... ويحهم ما تركوا للهمـل ؟
بجسوم هزّلٍ تحملهـا ... بعياء واهياتُ الأرجـل
ووجوه ، كتبَ الموت على ... صفحتيها : هذه الاوجهُ لي

وكانت لبشارة مطبعة ، وعدة صحافية كاملة ، وقد وقفت كلها عن العمل ، فعرضها للبيع ، ولكن اين هو المشتّري في مثل تلك الايام العصيبة التي يأكل الناس فيها الحشائش ؟

ويقول طانيوس عبده وكان صديقه ومن العاملين في معيته كمحرر (بالبرق) يقول انه بذل مجهوداً كبيراً للبحث عن ايجاد مشترٍ يشتّري مطبعة البرق من بشارة ليخفف شيئاً من اثر تلك الازمة على بشارة الخوري ثم ليفوز هو بشي من النقود على حساب السمسرة فيحصل بسببه على بلغة ! !

ووجد طانيوس الرجل الذي قبل ان يشتّري المطبعة بما يشبه المجان وراح يفتش عن الاخطل الصغير ليزف له البشرى بحل ازمتيهما فقيل له انه يعالج

قطعة ارض له ليستغلها في مثل هذا اليوم العصيب ،وقصده حيث تلك القطعة في القرية ومعه المشتري وحين اطل عليه من علٍ الفاه يحرث الارض على ثور هزيل من الراجح ان يكون قد استعاره من الجيران ليحرث له الشبر الذي كان يملكه من الارض ، فوقف طانيوس ضاحكاً وهو يقول مرتجلاً .

عهدتك من قبل ترعى البشر فما بالك اليوم ترعى البقرْ

وتمت الصفقة وفرّج الله الكرب لايام معدودة .

وعلى ذكر طانيوس عبده ، اذكر انه عندما عمل في (البرق) وكتب اول مقالة فيها دفَع بها الى الجريدة دون ان يوقعها ، وكانت سيرة الصحف في تلك الايام هي ان تستغل جهود الكتاب والمحررين الذين يعملون فيها فلا تبيح لهم ذكر اسمائهم حذراً من ان يكون لهم قراء معجبون فاذا ما انتقلوا الى جريدة اخرى انتقل معهم القراء فيتسبب من جراء ذلك بعض الخسارة ، وحين صدرت (البرق) في اليوم الثاني وجد طانيوس توقيعه تحت مقاله ، فجاء الى بشارة وهو يقسم بانه دفع بالمقال الى الجريدة مغفلا من التوقيع ولا يدري من الذي وضع له توقيعه تحت المقال ، فقال له بشارة انا الذي ذيّلت مقالك بتوقيعك لاني لا ابيح لنفسي استغلال جهود الآخرين بل اني في غنى عن مثل هذه السيرة المتبعة ، في الصحف .

ولا يستبعد ان تكون (البرق) اول من عرّفت طانيوس عبده الى القراء واول من لفتت انظارهم الى مواهبه كشاعر من فحول الشعراء وكاتب بارع ، ومترجم لم نظفر بعد بنظير له على كثرة المترجمين اليوم ، فقد قيل عنه انه كان يمسك بالكتاب فيقرأ منه فصلاً ثم يمسك بالقلم ، فينقله من الفرنسية الى العربية وقلما اضطر الى الرجوع الى الاصل ! ! وقد ترجم قصصاً كثيرة وكتب مقالات كثيرة كان لها وقع كبير في نفوس القراء ولم يعلم اكثر هؤلاء القراء حتى اليوم ان ما كانوا يقرأونه ويعجبون به انما هو من آثار هذا الشاعر الكاتب الذي عاش في ضنك وضيق ولم يكن حظه في مصر

باكبر من حظه في لبنان يوم استنفد الناشرون كل قواه في ترجمة القصص لقاء اثمان زهيدة ، ومن العجيب ان لا يكون في لبنان البار بابنائه من يتذكر واجب الادب والمواطنة نحو طانيوس عبده فيتصدى لاحياء ذكراه كما يفعل مع الكثير ممن هم دون طانيوس عبده مقاماً في درجات الادب والنبوغ ، وانه لمن العار ان يحيي طانيوس عبده كما يحيي المجهولون ، وان يموت موتة الغرباء في احد المستشفيات ولم يحضره الا عدد قليل كان في مقدمتهم بشارة الخوري الوفي الكريم الذي رقّ طبعه ، ورقّ مزاجه بنسبة رقة شعره وشعوره .

وكان طانيوس قد اعتاد ارتياد مقهى بشارع النهر قرب الجسر ، وهي المقهى التي يرتادها بشارة الخوري حتى اذا قام طانيوس تولى بشارة دفع ثمن القهوة لخلو ذات يد طانيوس ، وقد قضى الكثير من وقته على هذا المنوال لانه كان قد اتخذ من هذه المقهى مكتباً يقرأ فيه ، ويكتب المقالات ، ويترجم الكتب ،

وذات يوم قصد هذه المقهى وجلس فيها واطال الجلوس وهو يقرأ ولكن بشارة لم يجيء في هذا اليوم كما هي العادة ، فامسك طانيوس بالقلم وكتب تحويلاً شعرياً بثمن القهوة لاسم الخواجه متري صاحب هذه المقهى وقال له اذا جاءك بشارة اليوم او غداً او متى التقيته فادفع له بهذه الحوالة وسيدفع لك ثمن القهوة ، اما الحوالة ، فقد كان نصها كما يلي :

الى الاديبِ الفاضل ابن الخوري	والشاعرِ المتّقدِ الشعورِ
غبَّ اطلاعٍ للخواجه متري	في شارع النهر بقرب الجسر
أرجو بأن تدفع عني قهوهْ	من ثِقلها قد رسبتْ في الركوهْ
خمس قروش ورقاً لا فضّه	فقد مضت ايامُها المبيّضه
وبعدُ : فالقيمةُ للجنابِ	ندفعُها في موقفِ الحسابِ

ويبدو ان لبشارة الخوري مقهى آخر في الزيتونة اتخذ منه مقراً في المساء

فكان هذا المقهى منتدى فنّه وشعره تتحلق فيه حوله طائفة من الادباء وكان مسرح خياله وهو أمام هذا البحر غير المحدود والذي ظلت امواجه تتكسر على هذا الشاطىء منذ عهد لا يعرف مبتداه غير الله وسيظل يلطم هذا الساحل مرة ويغسل من لبنان قدميه الى ما شاء الله .

يقول الريحاني عن مجلس الاخطل الصغير في هذا المكان من بيروت :

في مقهى من مقاهي بيروت البحرية ، مقهى صغير وادع ، مبني بالخشب ، ومسقوف بالحصائر ، تلعب بين ركائزه الامواج الى جنب المربع الفخم القائم هناك ، الحافل في هذه الايام ببنات الفنون الجميلة ... هناك في تلك الزاوية المنخفضة من محلة الزيتونه كنا نجلس ساعة الغروب حول زجيجات من العرق ، وصحيفات من الابازير تقوم بينها زجاجة (برنو) لشيخ الحفلة ، وسيد سادات الحرية في تلك الايام اسكندر العازار رحمه الله .

ومن اولئك السادات ، سادات الادب في العقد الاول الحميد من هذا القرن الذي كانوا يسارعون ساعة الغروب الى قهوة البحر ، ولا يتسابقون في دفع الحساب ، جماعة مرحة ، صالحة أعدّ منها :

بشارة الخوري ، وشبلي الملاط ، ويوسف ثابت ، وجرجي سعد ، وپترو پولي ، ومحي الدين الغازي الخياط .

اما انا فقد تعرفت إليه اول ما تعرفت ففي مقهى عند البرج يغلب على ظني ان اسمها كان مقهى (شقير) اذا لم تخني الذاكرة ، وفي هذه المقهى كان يلتقيه جميع المعجبين به من الزائرين ومن الاصحاب والرفاق الذين اعتادوا ان يؤموا هذا المقهى بسببه اذ كان بشارة العقد من تلك القلادة الغالية التي زانت جيد الادب العربي في هذه السنين .

* * *

وفي سنة ١٩٢٩ كنت اصدر جريدة (الفجر الصادق) في النجف الاشرف ، ولهذه الجريدة فضل كبير علي لا احسبني ناسيه فقد كانت واسطة

التعارف بيني وبين جمهرة من أئمة الادب كان الاخطل الصغير من هولاء في المقدمة فكنت اتابع قراءة (البرق) بفضل ما يسمى بالمبادلة ، ولشدة اعجابي ببشارة رحت اكتب فيها بعض المقالات ، واذكر مرة اني كتبت فيها مقالاً كشفت فيه السر الذي اطاح بالشيخ خزعل امير المحمرة من امــارته فنقلت الصحف العراقية هذا المقال عن (البرق) ولفتت إليه انظار المتتبعين لما كان يضم من اسرار انفردت انا يومذاك بمعرفتها .

وفي صيف ١٩٣٣ كنت اقضي الصيف بضهور الشوير ، وقد اهتبلتها فرصة لزيارته ، وسألت عنه فدلوني على هذه المقهى ولكنني لم اجده ، ووجدت هناك بعض من اعرف من الطلاب العراقيين الذين كانوا يدرسون في الجامعة الاميركية ، وكانوا يقصدون هذه المقهى للتمتع بمجلس الاخطل الصغير فاخبرت بانه منذ ايام وهو غائب ، ولا اذكر الان كم ظللت اتردد على هذه المقهى وانا انزل من ضهور الشوير الى بيروت خصيصاً حتى جئت ذات يوم وسألت صاحب المقهى فدلّني عليه ، وكان يجلس الى جانبه شخص نسيت اسمه ، واقبلت اعرّفه بنفسي ولا اذكر اني شاهدت ترحيباً صادقاً يملأ النفس بهجة وسروراً في ظروف كهذا الظرف كما شاهدت ترحيبه بي ، وقد أسف كل الاسف حين قصصت عليه اني كدت أياس من لقائه لكثرة ترددي على هذه المقهى ، وفي اثناء الحديث سألني عن نسبة عباس الخليلي الي وعما اذا كانت اسرته أسرتي ، وحين علم بانه اخي ضاعف احترامه لي ، واذا بالرجل الجالس الى جنبه هو الآخر يبالغ في احترامي وسألني عن سبب وجود أخي بطهران ، فتولى صديقه عني الجواب وبدا لي ان هذا الرجل يعرف أخي جيداً ، ودعاني لتناول الغداء في ذلك اليوم فاعتذرت ، وطلب ان اعين له وقتاً آخر اذا لم تتسن لي اجابة الطلب في ذلك اليوم فاعتذرت ايضاً ، ثم تكررت بعد ذلك هذه اللقاءات كلما زرت بيروت .

وفي احد اللقاءات من زيارتي لبيروت سألني عن علي الشرقي ولست اذكر الان نصوص اسئلته واجوبتي عليها ولكني اذكر انه سألني عن

الشرقي باهتمام وابدى لي ما يدل على ترجيح شعر الشرقي في العراق على غيره ، واعجابه به كمجدد وحين علم بان الشرقي نشأ نشأة روحية وانه خريج مدرسة النجف قابل ذلك بدهشة ، ولا اذكر ما اذا كان قد جاء ذكر النجف الاشرف في هذه الجلسة التي تحدثنا فيها عن الشرقي ام في جلسة اخرى وفي سنة اخرى ، واذكر جيداً انه لم يكن الى حين ذلك الوقت يعرف النجف معرفة كافية ، ولم يكن يتصور ان اولئك الذين قد عرفهم من الشعراء والادباء والذين لم يعرفهم كانوا قد شبّوا ليكونوا شيوخ دين بادىء الامر ولكنهم اتجهوا في منتصف الطريق اتجاهاً آخر ولم يبق للدين من اثر عندهم غير العمامة التي لم يكن يعرف بشارة الخوري شيئاً عنها ، واذكر انني قد أزلت شيئاً من دهشته حين شرحت له كيفية تلقي الدروس في النجف وكيفية التجاء هولاء الطلاب الى الشعر تنفيساً عن انفسهم لانعدام اية وسيلة أخرى للتنفيس حتى لقد فاضت مدينة النجف بالشعر ، وحتى تجاوز قول الشعر طلاب العلم الى البقالين والبنائين واصحاب الحرف .

وبشارة الخوري جواد كريم اعتاد الكثير ان يتناولوا الشراب والطعام على مائدته خصوصاً في ايام مزاولته الصحافة التي تتطلب منه ان يلازم مكتب الجريدة ، فاذا حان موعد الغداء والعشاء الفيت عدداً من الاصدقاء والاحباء يشربون ويأكلون عنده وفي مكتب جريدته ، وقد وصف امين تقي الدين احد صاحبي مجلة الزهور التي تعرفت اول ما تعرفت ببشارة الخوري عن طريقها لقد وصف السجية الدالة على كرم النفس وطيب المعشر ، والادب الرفيع ، والمتجلية في مكتب البرق الذي يتحول من مطعم الى ناد ، والى مجلس سمر ، فمعهد ادب وفن ، فيقول امين تقي الدين :

ما رأيت كادارة (البرق) فيما رأيت الى اليوم من ادارات الجرائد فلا هي ادارة ، ولا هي ناد ادبي ، ولا هي قهوة للمنادمة ، ولا هي خان للمسافرين ... اتيتها عند الظهر ، فاذا بمائدتها الكبرى المغطاة ابداً بالجرائد والمجلات لتفكهة الزائرين وتسليتهم قد تحولت الى مائدة للاكل . وصارت

المجلات صحافاً للحم ، والجرائد مناشف للصحون ، وزرتها في العصر ، فاذا باخوان الادب قد التقوا فيها كانهم على موعد ، وكأنما هي مزار يتبرك به ، فهناك الاديب التاجر ، والاديب العامل ، والاديب المحامي . وحملة الاقلام من كل صنف وطراز ،

* * *

وفي سنة ١٩٣٤ اصدرت جريدة (الراعي) بعد احتجاب جريدة الفجر الصادق باربع سنوات ، وفي تلك الايام قام الشاعر الياس ابو شبكة بحملة كبيرة شنّها على بشارة الخوري وشعره متهماً اياه بسرقة الافكار من الفرنسية وآخذاً عليه اموراً وقعت عند البعض موقعها ، واثارت عند البعض الاخر النقمة على ابي شبكة ، وكنت يومذاك لم ازل في ريعان الشباب كثير الحماس لما أراه من رأي ، كثير الغرور بنفسي . لاسيما وقد دخلت وانا اصدر (الفجر الصادق) معركة صحافية كبرى باسم الاصلاح خيل الي فيها انني قد انتصرت وظللت نشواناً بذلك الخيال ، فلم ترقني من ابي شبكة تلك الحملة . ورحت اقابل حملته بحملة فيها الكثير من الجور والركة التي ندمت عليها بعد ذلك ندماً شديداً ، وكان مبعث ندمي في ذلك ما تجلي فيّ من قلة الوفاء ومقابلة الاحسان بالاساءة اكثر من ندمي على النزغ الذي طالما صحب الشباب وانطبعت به مراحله ، وذلك لانني حين كنت في سنة ١٩٣٣ او قبلها مصطافاً بضهور الشوير كان الياس ابو شبكه يعمل محرراً في جريدة الاحرار مع جبران تويني ، وكان قد جاء الى ضهور الشوير في نزهة ، ولست ادري كيف قد تم التعارف بيننا واغلب ظنّي ان ذلك قد تم عن طريق صديقي اسكندر حريق فزارني بفندق سنترال ، وهناك دعاني الى قريته التي نسيت اسمها لقضاء ليلة الاحد المقبل عنده فاعتذرت ولكنه ظل مصراً على ذلك اصرار المحب الذي يرى في ذلك تحقيق امنية من اماني الصداقة والكرم والسخاء ، ولم ادر كيف نسيت هذا الموقف الكريم من ابي شبكة وكيف سوغتّ لنفسي ان احمل بتلك الرعونة على

مثل هذه النفس الكريمة ، وقد زاد من اسفي وخجلي وندمي ما تلقيت من بشارة الخوري من عدم اهتمام بالياس ابي شبكة كما لو كان ابو شبكة طفلاً او جاهلاً او احمقاً لا ينبغي ان يقابل تصرّفه بالاهتمام ، وقد كتب لي تعليقاً على حملتي يقول في مضمونه : ان ابا شبكة لا يستحق كل هذه الأهمية مني .

ومات ابو شبكة ولم اوفق لرؤيته لاعتذر له عن هذه الوصمة التي ظلت ذكراها حتى هذا اليوم تنغّص علي حياتي وتذكرني بانعدام الوفاء في نفسي والتجني على رجل كريم حبيب بداعي النزق ، وطيش الشباب ولا اعترف لغير هذه الوصمة بما يمكن ان يلصقه قارىء بما كتبت وسجلت على نفسي في الجرائد الثلاث التي اصدرتها : الفجر الصادق ، والراعي ، والهاتف ، على رغم ما وقع لي فيها من الاخطاء الكثيرة التي تفرضها حالات الشباب ودواعيه .

* * *

وقويت الروابط بيني وبين بشارة ، وصرت اهتبل الفرص والمناسبات لأسجل اعجابي بهذه العبقرية ومواطن نبوغه من شعره في جريدة الراعي والهاتف ، وبعث لي مرة بالقصيدة التي نظمها خصيصاً لجريدة البلاد التي اصدرها موسى نمور ويوسف الخازن ببيروت قبل ان يصدر العدد الاول منها والتي استهلها بقوله :

قالوا : البلاد فقلت أيهما أهي الجريدة ام هي الوطن

وكتب يقول لي انه نظمها لجريدة البلاد التي ستصدر في بحر الاسبوع القادم ، وقد نشرتها أنا بمقدمة اشرت فيها الى موطن الابداع ولم ادر ما اذا كان قدتم نشرها في جريدتي قبل ان تصدر البلاد ام كان ذلك في تاريخ مقارب ولكنني ادري ان بعض صحف العراق قد نقلتها من جريدتي

وقبل اطلاعها عليها من جريدة البلاد .

وحين صدر ديوانه (الهوى والشباب) تفضل باهدائه إلي متوجاً هذه الهدية بكلمة لا استحقها ، وفي صدد هذا الديوان شاع في الاوساط الادبية العراقية ان الذي انفق على هذا الديوان هو عبد الله بن فيصل العاهل السعودي او امير سعودي آخر .

وقيل انه قدم لبشارة الخوري دفتر صكوكه وطلب منه ان يعين المبلغ الذي تتطلبه نفقات طبع هذا الديوان ، ولم يتسن لي ان أسأله عن ذلك ، كذلك اشيع ان ثروة قد واتت بشارة في سنينه الاخيرة عن طريق الوراثة ومن حيث لم يحتسب ، وهي الاشاعة الاخرى التي لم اتحقق من صحتها ، بل اني لأستبعد صحتها ، واذا صحت فلا ينبغي ان تكون ثروة بالمعنى الواسع ، ذلك لانني لم اتبين مظاهر هذه الثروة في زياراتي له، ولم اكن من الفضول بحيث اسأله عنها .

ومن المؤسف ان يموت الاخطل الصغير وانا اكاد انتهي من طبع هذا الكتاب ببيروت فلا يكون بوسعي الرجوع الى ما تحت يدي من المذكرات ورؤوس الاقلام التي احتفظ بها في مكتبة بيتي ببغداد ، وحتى الصورة لقد عز علي الحصول عليها لولا السيد منير جمال الدين صاحب مطبعة دار الكتب .

* * *

وفي السنين الاخيرة اعتلّت صحة الاخطل الصغير فصار إن خرج الى المقهى يوماً اضطرته العلة بعده ان يعكف في البيت اياماً ، ثم دبت الشيخوخة في وجوده ، فقد دخل العقد التاسع ، وتجاوز الثمانين التي قيل عنها .

ان الثمانين وبُلّغتَها : قد أحوجَتْ سمعي الى ترجمانْ

ولازم البيت وظهرت علائم الانتهاء عليه يوماً بعد يوم وقيل لي إن الضعف قد شمل وجوده كله حتى الذاكرة منه ، لذلك لم أمرّ به في السنتين الاخيرتين وحين القيت نظرة على صورته وهو في فراش المرض يتململ رحت اقارن هذه الصورة بصورة ذلك الشاب الانيق الوسيم الذي يتدفق شباباً وحيوية والذي ملأ النفوس بهجة وحبوراً بشعره ، وصقل الاذهان بادبه الرفيع ، وحرت كيف اوفق بين تلك الصورة التي نشرتها مجلة (الزهور) قبل



الأخطل الصغير (بشارة الخوري) على فراش المرض

نصف قرن وهذه الصورة التي نشرتها له صحف بيروت اليوم .

انها سنة الحياة ، تنجم النبتة من الارض ، ثم تزهر ، ثم تتفتح الزهرة عن الوردة العطرة ، ثم اذا باوراقها تتساقط ورقة بعد ورقة ويؤول ما يبقى منها الى الذبول وتفنى وتموت ذكراها ، والفرق بين هذه الوردة العطرة ، والاخطل الصغير هو ان ذكرى الاخطل ستظل الى الابد عابقة بالشذا ، تعطر نفوس الاجيال القادمة كما عطرت نفوس هذا الجيل ، فوارحمة لهذا الشاعر الكبير بروحه ، ومزاجه ، ونفسه ، وادبه الذي انفرد به في دنيا الشعر كنابغة قلّ المجارون له في نهجه واسلوبه ،

واقسم انني بكيته وشيعته بالدموع كما لو كنت واحداً من اهل بيته المفجوعين .

الفهرست

لمحتويات الجزء الثاني

من هكذا عرفتهم

فهرس الأعـــلام

ح

خ

ش

ص

ض

ط

ع

ن

و

هـ

ي

مؤلفات الخليلي المطبوعة

يوميات ـ الجزء الاول ـ طبعة ثانية ـ نافدة وبانتظار الطبعة الثالثة

يوميات ـ الجزء الثاني ـ » » » » » » »

الضائع ـ طبعة ثانية ـ نفد وبانتظار الطبعة الثالثة

عندما كنت قاضياً ـ طبعة ثانية ـ نفد » » » »

في قرى الجن ـ طبعة ثانية ـ نفد » » » »

من فوق الرابية ـ نفد ـ وبانتظار الطبعة الثانية

تسواهن ـ نفدت ـ » » »

على هامش الثورة العراقية ـ نفد » » »

اولاد الخليلي ـ نفد ـ » » »

مجمع المتناقضات ـ نفد

اعترافات ـ نفدت

مقدمة في تاريخ القصة العراقية

هولاء الناس

جغرافية البلاد العربية ـ نفدت

آل فتله كما عرفتهم ـ نفد

نفحات من خمائل الأدب الفارسي

ما أخذ الشعر العربي من الفارسية والشعر الفارسي من العربية

كنت معهم في السجن

التمور العراقية قديماً وحديثاً

القصة العراقية قديماً وحديثاً

هكذا عرفتهم ـ الجزء الاول

هكذا عرفتهم ـ الجزء الثاني

حلقات من سلسلة

أ ـ حبوب الاستقلال ـ نافدة

ب ـ خيال الظل ـ »

ج ـ حديث السعلى ـ »

موسوعة العتبات المقدسة

صدر حتى الان :

المدخل الى موسوعة العتبات المقدسة

الجزء الاول من قسم مكة المكرمة

الجزء الاول من قسم النجف الاشرف

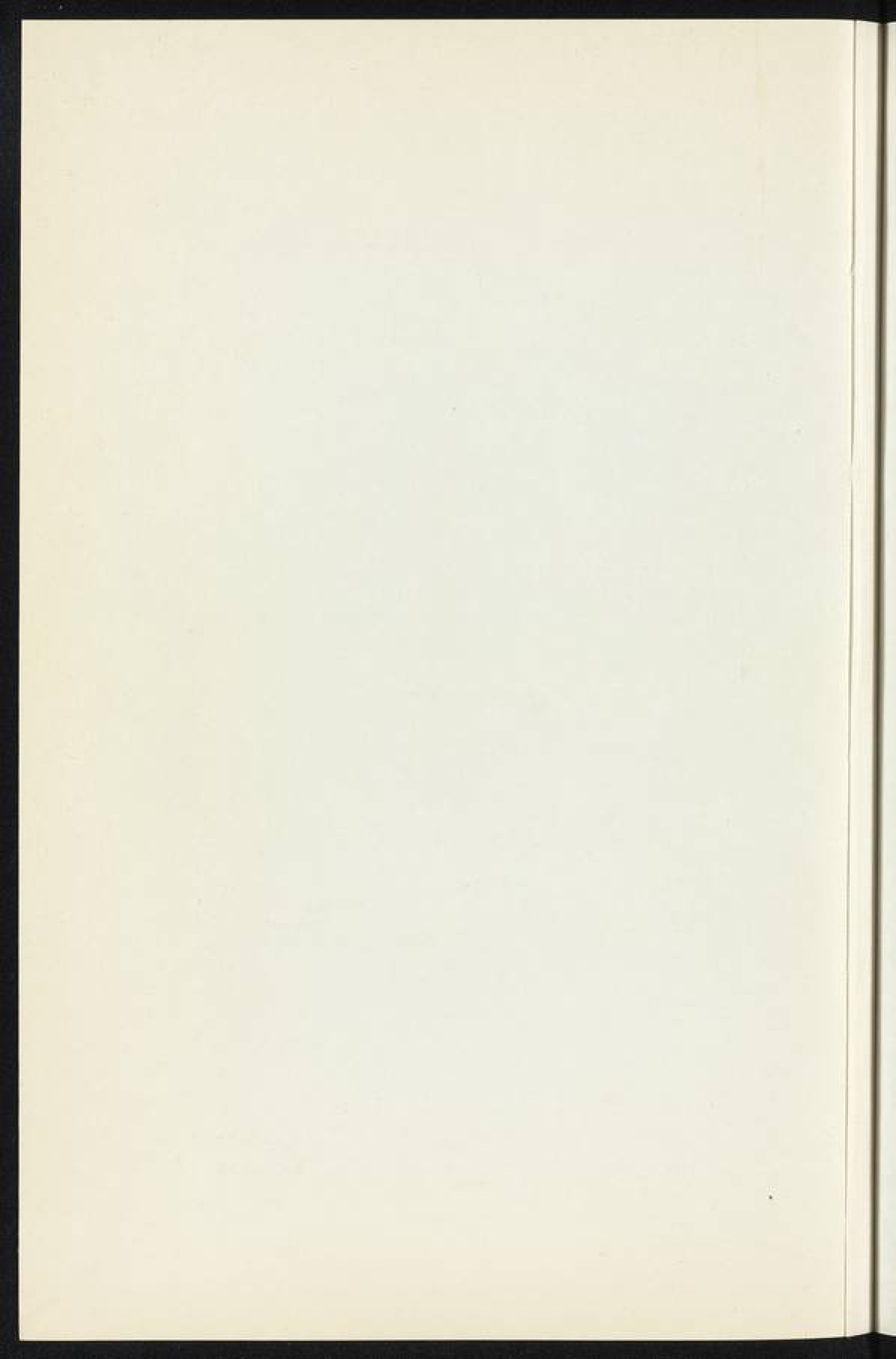
الجزء الثاني من قسم النجف الاشرف

الجزء الاول من قسم كربلاء

الجزء الاول من قسم الكاظمين

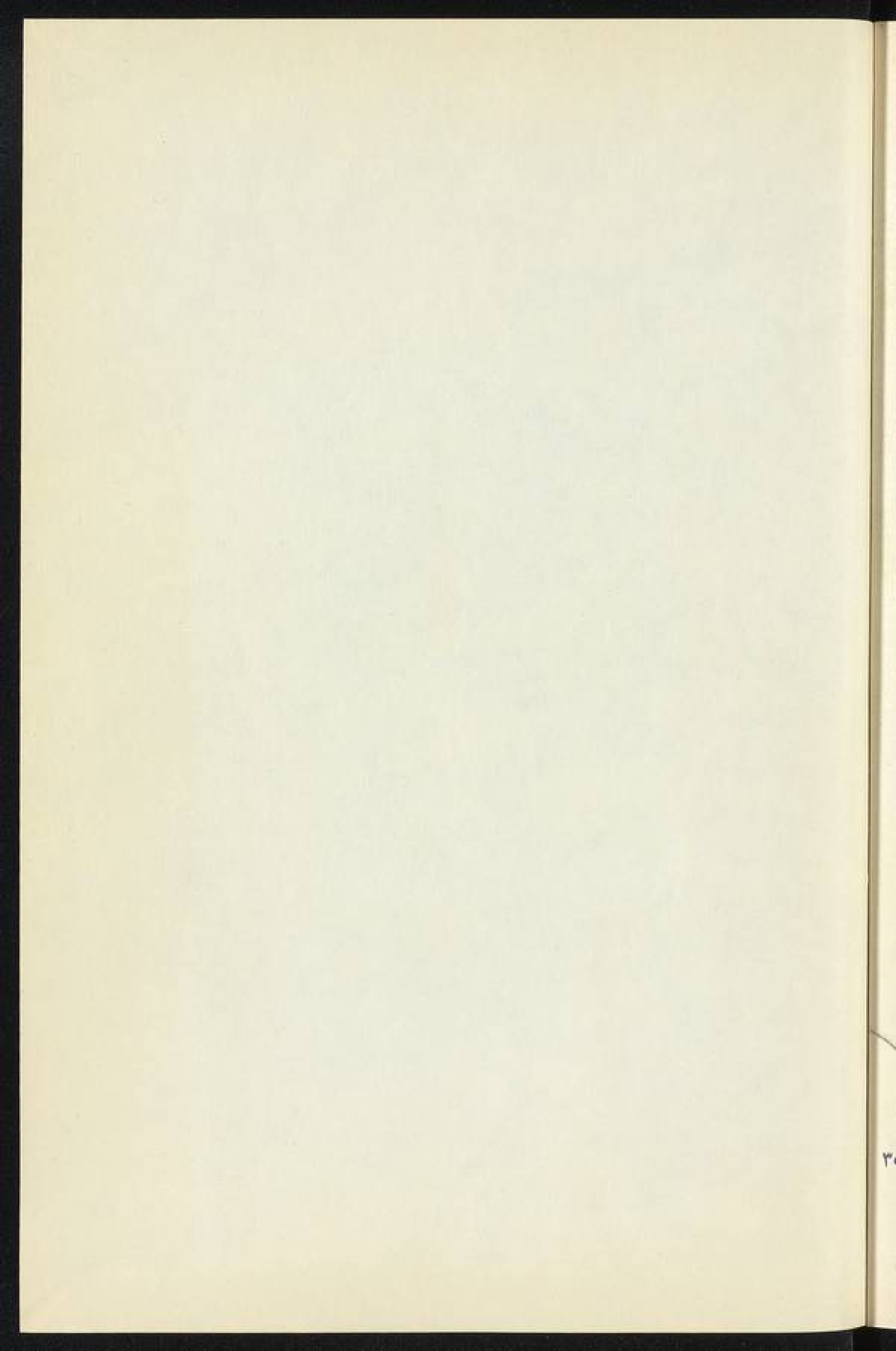
الجزء الاول من قسم خراسان

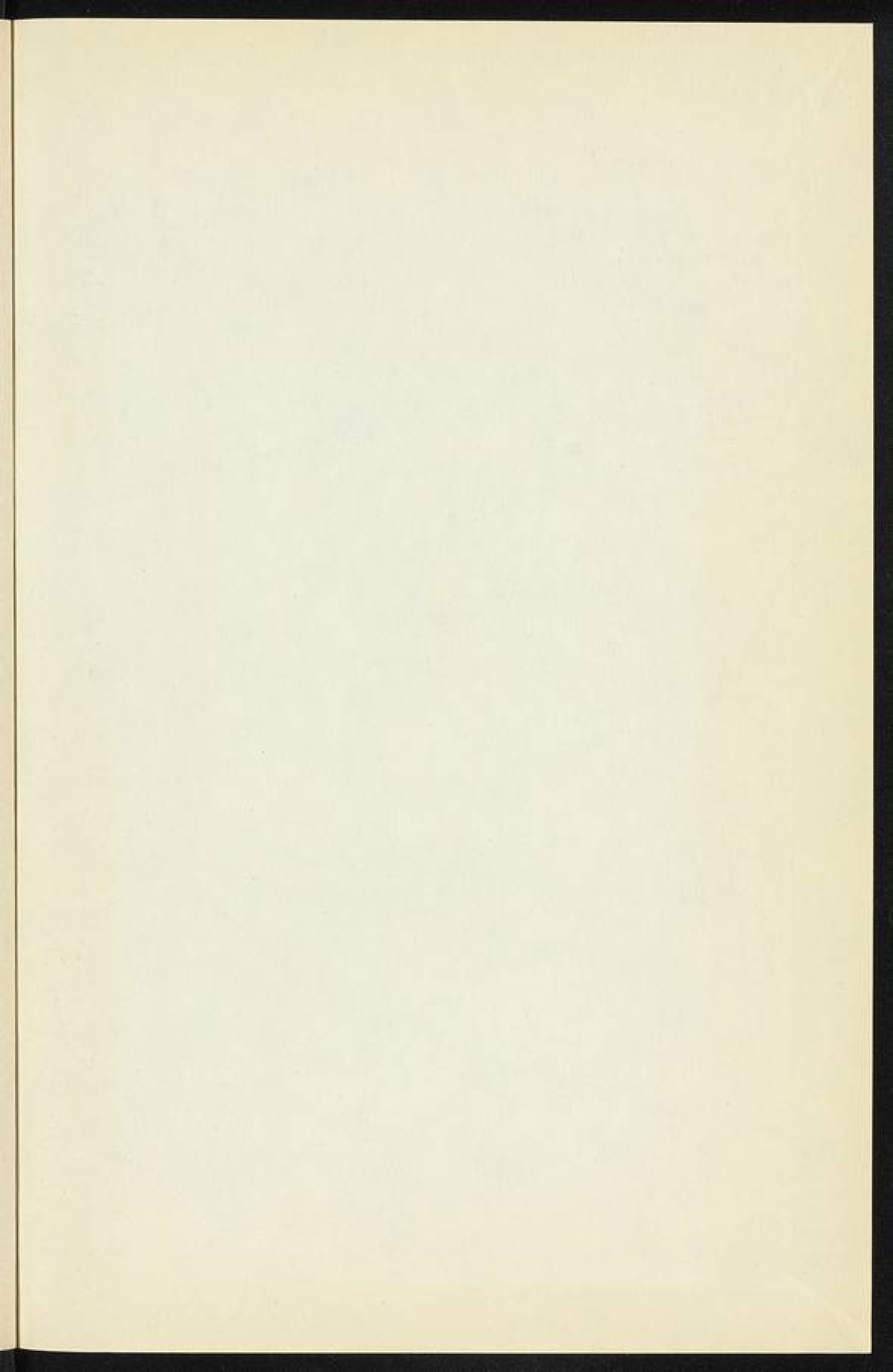
الجزء الاول من قسم سامراء

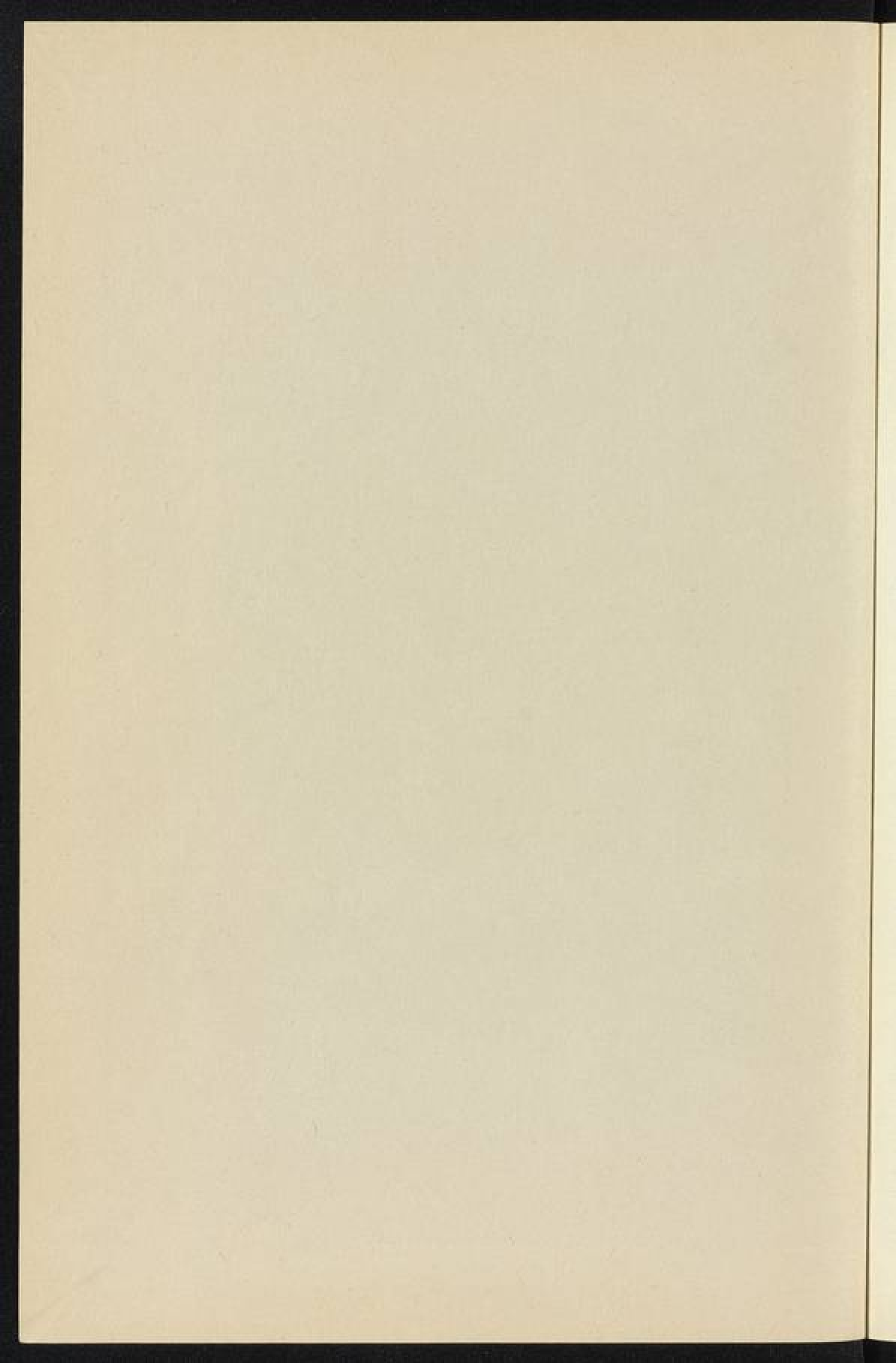


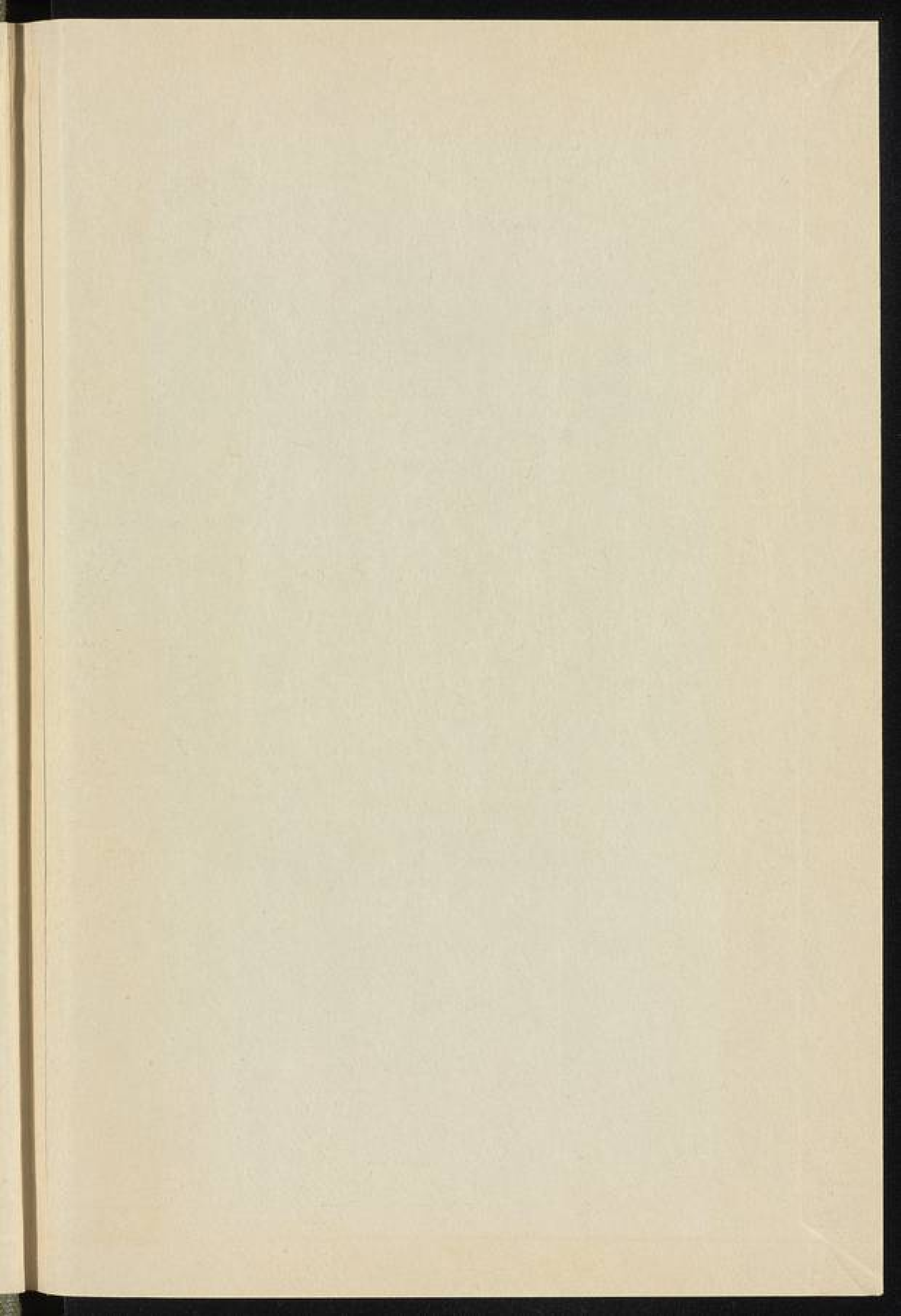
الثمن { ٥٠٠ فلس عراقي
٤٠٠ ق.ل.

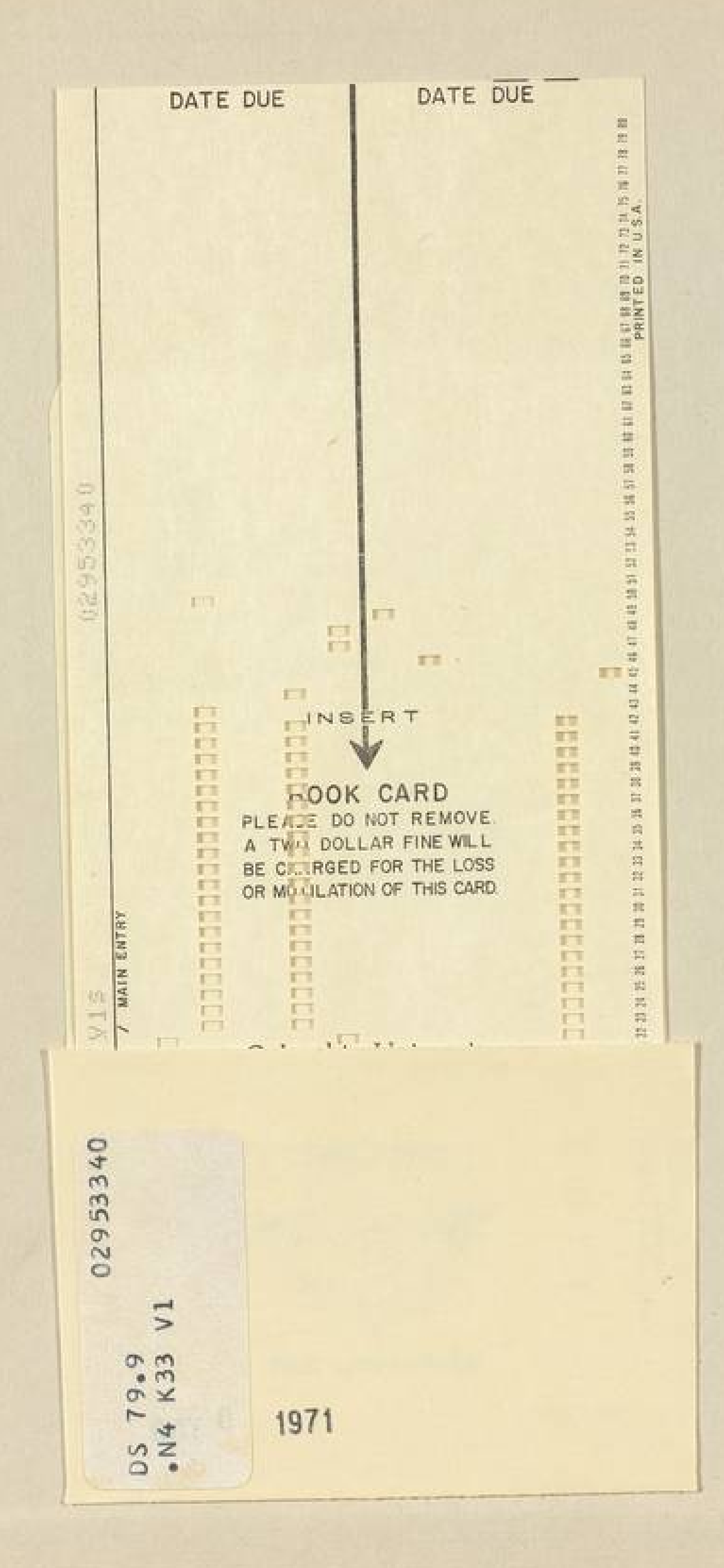
مطبعة دار الكتب
بيروت ــ ص.ب ٣٥٥٩










DATE DUE
DATE DUE
PRINTED IN U.S.A.
02953340
INSERT
OOK CARD
DO NOT REMOVE
DOLLAR FINE WILL
RGED FOR THE LOSS
LATION OF THIS CARD
MAIN ENTRY
02953340
DS 79.9
.N4 K33 V1
1971

